

رقعة الشطرنج

رواية

ديوان العرب للنشر والتوزيع

عنوان الكتاب: رقعة الشطرنج

اسم المؤلف: سهير المصطفى

التصنيف الأدبي: رواية

رقم الإيداع: 11768 / 2024

الترقيم الدولي: 1 - 934 - 998 - 977 - 978



التدقيق اللغوي: سهير المصطفى

تصميم الغلاف: غادة علام

التنسيق الداخلي: محمد وجيه

رقم الطبعة: الطبعة الأولى

المدير العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

تليفون: 00201030502390

dewanalarabegypt@gmail.com

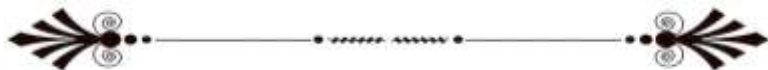


رقعة الشطرنج

رواية

سهير المصطفى

ديوان العرب للنشر والتوزيع



الإهداء

إلى شجرة اعتقلت لأن قلماً منها تمرد على حاكم الغابة.

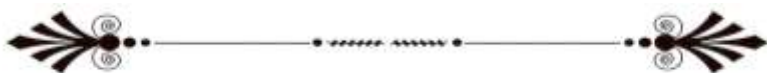
سهير المصطفى



تمهيد

سبق لي أن أبحرت في محيط ذكرياتي وغصت فيها حد الغرق، لكنني لم أصب باختلاج المشاعر كما تنتابني الآن الرهبة وما ارتجف القلم وهو حاني الرأس يطبع قبلاته على الورق، كما الآن يذرف الدموع الزرقاء دون توقف. أن تكتب ما في ذاكرتك، يرهقك مرة، أما أن تكتب ما في ذاكرة الآخرين، يرهقك ألف مرة.

كيف لا، وأنت حينما تفرغ ما في داخلك، وترسم ذكرياتك على شكل حروف، هذا لن يأخذ منك سوى أن تُعيد الإحساس بما مررت به مجدداً، ولن يتطلب منك جهداً إضافياً لتخيل، كالرسم الذي يرسم صورة ما أمامه، ولكن أن تعيش في ذاكرة الآخرين وتنقل ما قد عاشوه، هذا يحتاج منك أن تتقمص أدوارهم، وتعيش حياتهم في خيالك، لتشعر بما شعروا به، حتى تستطيع نقل الصورة بأقرب شكل إلى عين القارئ، وهذا سيكلفك طاقة مضاعفة، لأنك تعرض نفسك لمشاعر لم تكن لك، لكنك في مكانك ككاتب ستعيشها في خيالك حتى تنتهي من الكتابة.



المقدمة

ظلام دامس، رياح تصفر في الأرجاء، ترتعد الأطراف بردًا، رعب يكبل النفوس، يجعلها تشخص الأبصار نحو الأفق حيث يخيل للناظر أن لا نهاية لهذا الظلام.

طائر بجناحين سوداء يحجب الرؤية أمامها، تتشبث الفتاة بساعد أحدهم لا تستطيع تمييز ملامحه، يتمایل القارب يمينًا وشمالًا، السنة باردة تلحق قدميها، تبلل ثيابها وحذاءها.

فم عملاق يكشر عن أسنانه يتجه نحوهم يغطي الأفق ويخفي شحوب السماء.

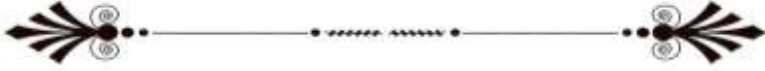
صراخ مخنوق، حنجرة مكبلة لا تستطيع تحرير ما تبقى من هواء خلفها، ليتها تستطيع رمي حبالها الصوتية خارجًا وتجعل منها طريقًا للنجاة، تتسلق نحوها وتنجو من ذلك الظلام الخانق الذي يطبق على قفصها الصدري، ويحيلها دودة تتلوى بلزوجةٍ دون أطراف..

صراخ مكتوم، امتلأت الحنجرة ماءً مالحًا يسد آخر منافذ الحياة، حشرة تختلج في الصدر لا تخرج، أطراف تتخبط، عنق منهك يحاول معانقة السماء التي غدت قريبة جدًا.

تلك اليد التي كانت تتشبث بها، أفلتها وأضاعتها بين زحام الأرواح التي نجت من الضياع في ذلك اللج المخيف، وعانقت الغيوم التي كانت تتشابك



لتصنع طوق نجاة لكل العابرين إليها، لتغدو السماء وطنًا آخر، وطن ينعم
بالسلام، بعدما افتقدت الأرض لكل مقوماته في مختلف بقاعها..
إلا روحها... تاهت في لَجّ الليل تأبى مغادرة الجسد، بعدما استكانت على
كفّ ذاك العملاق الذي بدأ يغفو على كتف الليل، بعدما تناول وجبته
الدسمة من أجساد مرهقة أتعبها طول المسير..



الفصل الأول

(1)

مذكرة رقم 1- أيلول 2015.

فوق الرمال الذهبية، أمام زرقة البحر الشاسعة التي تعانق السماء، عُثر على جثة فتاة في العقد الثاني من العمر، تتبعثر حبات الرمال على جسدها الغض، طيور النورس تحلق فوق رأسها وتنقر أطرافها، اجتمع حولها رجال الإنقاذ وخفر السواحل، فحص أحدهم علامات الحياة ثم صرخ قائلاً: إنها على قيد الحياة.

كانت الحياة مائتال تسري في عروقها على الرغم من مظهرها الذي يوحي بأنها مجرد جثة لا روح فيها، الزرقة تعلو شفيتها وعيونها منتفخة. كانت تعاني من نقص أكسجين حاد، لربما سبب لها تلفاً في خلايا الدماغ، وإن استيقظت لربما عانت من شلل أو فقدان للذاكرة. أجروا لها بعض الإسعافات الأولية، جاهدين أن يبقى قلبها نابضاً، ثم تم نقلها إلى سيارة الإسعاف ومنها إلى المستشفى. باختصار، هذا هو الماضي الذي تعرفه جوليا عن نفسها، تقرأه مراراً وتكراراً من مفكرتها.



نقراتٍ على الطاولة أعادتها إلى الواقع، نظرت إليه مفتعلةً ابتسامةً وهو بدوره كان يزيح الكرسي إلى الخلف ثم جلس ليقابلها كما كان قبل دقائق. كانا قد التقيا منذ قرابة الساعة في المقهى، وكما يجب أن يمضي وقته معها، كان لابد أن ينافسها في لعبة الشطرنج التي علمها إياها، وتجعلها تحرك ذهنها، كانا قد قطعاً شوطاً في اللعب قبل أن يرن هاتفه المحمول ويستأذن لينهي مكالمة ويعود، وهي استغلت تلك الدقائق في إخراج مفكرتها من الحقيبة لتدوّن عليها أحداث يومها، ولابد لها أن تعود إلى الصفحة الأولى وتقرأها كما تفعل دائماً وحينما عاد دستها في حقيبتها.

فرغت الرقعة من الأحجار السوداء التي تحارب بها، ولم يتبق سوى جندي واحد تراوغ به بين المربعات البيضاء والسوداء، والمملك خاصتها قابض مكانه بانتظار أن تُحسم المعركة.

منافسها يحرك جنوده بكل ثقة، بنصف ابتسامة تشدّق بها رمقها بعيونٍ ماكرة، ما لبث أن أطلق ضحكته كلما حرك جندياً وأطاح بجنودها.

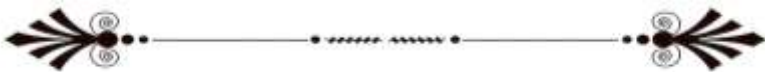
-لم يتبقّ لك سوى جنديٍّ واحد ولم تستسلمي.

-ليس بعد، لطالما أن الملك في مكانه.

قهقه ضاحكاً اهتزت على إثرها نفاحة آدم في عنقه، ثم قال:

-لكنك دمرتِ المملكة.

-لا يهم.



- كيف للملك أن يكون ملكاً في مكانٍ خاوي هكذا، ولا يملك سوى
جنديٍّ واحد قاب قوسين أو أدنى من أن يلحق برفاقه؟
- سترى كيف سأصل لقعر مملكتك.

- بجنديٍّ واحد؟

ثم اهتزت أوداجه فاتحاً فمه حتى بانت أسنانه المعدنية.

- تهزأ بي أليس كذلك؟

- لا أبداً، لكن تعجبي ثقتك بنفسك حتى بعد فراغ ساحتك من
المقاتلين.

- الحياة بحاجة لأن نكون هكذا، ألا نستسلم، أن نقاتل بآخر ما نملك من
وسائل، ألا نفقد الأمل ولا نتوقف حتى نصل، فيما أن نكون أو لا نكون.
وإذا خسرنا حينها لا نندم ولا نحزن لأننا نكون قد فعلنا ما بوسعنا أن
نفعله.

- هذا ما أحبه فيك.

- ممممم.

اكتفت بها بعد أن زمت شفيتها كيلا تنطق، واكتفت بالنظر إلى المربعات
أمامها وإلى أماكن جنوده، تخطط لطريقة تتسلل بها إلى الملك وكأن ما
قاله للتو ليس بالأمر المهم.
- هل تسمعين؟ أحبك.



-ألن تكف عن الهذيان؟ لا وقت للحب الآن، أم أنك تريد أن تضعفني
وتشغلني لتجعلني أخسر.

-أنتِ خاسرة على جميع الأحوال.

ثم حرك حجر القلعة لترك الطريق متاحًا أمام الملك ولا مجال له لأن
يحركه بسبب ازدحام الجنود أمامه، وإن راوغ إلى الوراء أو الخلف فهو
مقتول لا محالة.

-كش ملك، اجمع جنودك.

-ضحك ثم قال:

-تعمدت أن أجعلك ترجح لأن إصرارك على الفوز قد أعجبني.

-كفاك هراءً.

-جوليا متى سنتزوج.

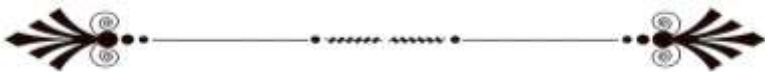
-ألم أخبرك بأن تلغي الفكرة من رأسك.

أمسك بيدها فوق أحجار الشطرنج التي تبعثرت وقال لها:

-إلى متى يا جوليا؟

أدارت برأسها نحو النافذة، دون أن تنبس ببنت شفة، سحبت يدها من بين
يديه، لأنه يعرف جوابها مسبقًا، ويعرف سبب رفضها.

منذ أن داهم خلوتها واعترف لها في ذاك المساء الشتوي البارد، كانت
الأشجار قد تعرّت عن آخرها، قطرات المطر تطرق النوافذ بغزارة، الموقد
يلتهم الحطب بشراهة، يلسع وجهها بحرارته ويعكس توهجه على جسدها،



لتكون النقطة المضيئة الوحيدة في الغرفة، شعرت بيد باردة حطت على كتفها العاري، ارتعشت لتلك البرودة المفاجئة فانتفضت واستدارت إلى الوراء لترى رامي يقف خلفها، جلس بقربها ضاحكًا، ورفع الشال الصوفي الذي انسدل على ظهرها ليغطي كتفها وهي تحديق به غضبًا، التقت أعينهما وكأنها للمرة الأولى التي ترى فيها رامي ينظر إليها تلك النظرات الغريبة، فنطقت شفتاه عن جنون، ما جعل الأرض تحتها تتأرجح والموقد يبتث ثلجًا بدل النار، اقشعرت خلايا جسدها، فضممت أطرافها كلها في وسطها وتحسست بيديها جلدها المرتعش.

-جوليا، أريد الزواج منك.

جعلتها جملته تلك أن تسقي وسادتها بالدموع، ليس فرحًا أو حزنًا، ولكنه احساسٌ بالضيق.

انبلج الصبح بعد ليلة ثقيلة، لتخرج من منزلهم الذي اعتادت أن تمضي الوقت فيه، كلما قتلتها الوحدة في منزلها، لكن بعدها لم تعد تغادر غرفتها إلا لعيادة الطبيب النفسي لإكمال جلسات العلاج.

كان ذلك آخر لقاء لها معه، غادر المقهى غاضبًا بعد شجار اشتعل بينهما، ثم تركها وحيدة كما تعهد نفسها.

في منزلها الواقع على بعد طريقين وصيفٍ من الأشجار عن بيته، تمددت على السرير، تبعثر نظراتها يمينًا وشمالاً، وفي اللاشيء تحديق، تنتابها مشاعر كثيرة، تحسست موضع قلبها خشية أنه فقد منها، ولكنها تشعر بنبضه



المتواتر، يطرق عظام صدرها معلناً عن تمرده، كسجين في زنزانتة يُنشد الحرية.

باتت الضربات أكثر حدة، ودماؤها تتسابق في عروقها حتى أصابها الإرهاق، فتحت الجارور بحثاً عن الدواء الذي اعتادت أن تتناوله كلما تمرد فؤادها وخيل إليها ساعتها وكأنه نبت له جناحان ويكاد أن ينطلق من بين ضلوعها محلّقاً.

أمسكت صفيحة الحبوب وبأصبعي الإبهام والسبابة أخرجت الكبسولة من غلافها وقذفتها في فمها، تناولت كأس الماء وسكبت كل محتواه في جوفها، كان بارداً جداً وكأنما صببته فوق حريق مستعر، ما لبثت أن تصاعدت الأبخرة السوداء لثمت عينيها وسالت منهما قطراتٍ حفرت طريقها على خديها، وما انحبس منها في رثتيها خرج مندفعاً على شكل آه، مع كثير من الهواء الذي طردته بزفرة واحدة.

أعادت يدها إلى يسار صدرها خشية هروب المتمرّد، ويد أخرى تحسست المياه المالحة التي دُفنت بين شفتيها.

عادت إلى سريرها ترتجي نومًا، أغمضت عينيها محاولة أن تعود إلى زمن ما قبل الشاطئ، لكنها لم ترَ سوى مناطق بيضاء وسوداء تدور حول بعضها لتمتزج وتغدو رمادية، دون أن يظهر منها أي لون آخر.



ليتها تكفُّ عن الدوران، لربما ظهر في المناطق البيضاء بصيص أمل لصورة ما، لكنها كصفحات دفتر خاوية دون خطوط، أشبه بأوراق الرسم الفارغة التي تتوق لريشة رسام ومزيج من الألوان لترسم لها الماضي، لكن عبثاً. تهوي في دوامةٍ لا متناهية، تدور حول نفسها كبنديل لا يرى ما حوله، ولا يشعر حتى بنفسه، تدور ذاكرتها تدور وتدور ولا يظهر لها فيها سوى "رامي" لأنها لم تعرف سواه، منذ أن فتحت عينيها بعد غيبوبة دامت لعدة أيام.

رامي ووالداه الرائعان، جميعهم اعتنوا بها وساعدوها في تجاوز فترة إقامتها في المستشفى، صحت على صوت والدة رامي وهي تقول لها: -هل أنت بخير يا ابنتي.

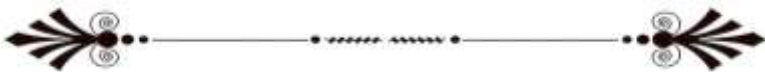
كانت ملامحها جميلة، شعرها يغزوه الشيب، وجهها أبيض تزيينه خطوط الزمن، تحديداً حول عينيها اللتين تبدوان ضاحكتين حتى وهي صامتة، كانت دافئة بيضاء كغيمة، لم تتعرف عليها حينما رأتها ولكنها طمأنتها بأنها نجت وبأن الله قد كتب لها حياة جديدة.

حينها نظرت حولها في أرجاء الغرفة، في السقف والجدران، كانت بيضاء ناصعة عدا عن الشراشف التي كانت باللون الأخضر وبعض الأجهزة التي تتلون بالأسود ولولا هذه الألوان لصرخت رهبةً من كل هذا البياض المحيط بها، والذي شعرت بأنه يخرج من أعماق ذاكرتها دون رؤية واضحة لما قبل ذلك.



مما نجت؟ من موتٍ محتوم؟ من ذاكرة، من ماضٍ، من نفسها؟
وأني حياةٍ جديدةٍ تلك التي تتحدث عنها، باتت تعيشها بصراعها مع ذاتها،
لتعتاد "أنا" الجديدة التي لم تفقد ماضيها وحسب، لكنها كانت تعاني من
نسيان لكثير من الأشياء التي تحدث معها يومياً، لذلك نصحتها الطبيب
الذي يشرف على حالتها بأن تدوّن يومياتها في مفكرة لتعود لقراءتها ما
استطاعت، علّها تؤول إلى الذاكرة طويلة الأمد، لهذا باتت المفكرة ترافقها
كاسمها الذي أطلقوه عليها بناءً على حروفٍ كانت تتلفظ بها أثناء غيبوبتها.
لا تتذكر الأيام التي تلت صحتها، ولا تعلم ما قد حدث معها لكي تخضع
لعلاج مكثف ومراقبة دقيقة والكثير من الأدوية التي باتت من روتينها
اليومي والتي بدأ ينخفض عددها شيئاً فشيئاً لتقتصر على نوعين فقط
إحدهما لضبط ضربات القلب المضطربة (انديرال) ونوع آخر لضبط
المزاج المتقلب (مضاد اكتئاب)، لربما قد أنجبها البحر مع توأماتها الكآبة
التي تلازمها.

رامي كان له دور كبير في إخراجها من القوقعة التي عزلت فيها نفسها بعد
أن وجدت نفسها وحيدة في هذا العالم، استطاع بحنانه أن يكون سنداً لها
ورفيق ودليل وكل شيء في هذا البلد، حتى غدت في أحسن حال وباتا
يمضيان الأوقات معاً، إلى أن بدأت تشعر بأنه من الضروري أن تستقل
بنفسها، ساعدها في الإجراءات القانونية اللازمة حيال وجودها في هذه



البقعة من الأرض بناءً على تقرير المشفى وغدت لها شقة خاصة بها، تتقاسم مع أثاثها السكون والهدوء.

وفاة والده رامي بعد عام من معرفتها بهم أوقعه في صدمة وضياح بعد حالة رامي النفسية التي آل إليها، غدت حينها سنده بعد أن كان هو من يسندها، فباتا كعصاتي عكاز لرجل مشلول دون إحداهما لا تقف الأخرى، وحينما استعاد عافيته وسلا عن حزنه بات يتقرب منها أكثر، لا كصديقة أو أخت بل كحبيبة، يضمها إلى صدره طويلاً، يضع رأسه في حجرها وكأنما يستمد منها دفء الأمومة التي فقدتها والتي هي بحد ذاتها لا تتذكرها.

اعترف لها بحبه وبهوسه بها، وبرغبته في أن يتزوجا ليقطنا معاً تحت سقف واحد، بعد طلبه في تلك الليلة الذي فاجأها به، وبعد عزلتها التي أخرجها منها بمساعدة الطبيب، معاهدًا إياها أن يكون السند والرفيق، ظلت متحفظة عن الموافقة إلى أن تجد الخيط الذي يدها على من تكون، ومن هم أهلها، وأي ماضٍ عاشت فيه خمس وعشرون عامًا قبل أن يرسو جسدها غصًا على شاطئ الغربية.

ذات لقاءٍ قالت له:

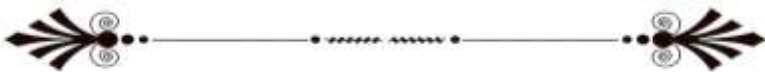
-كيف ترغب في الارتباط بفتاة لا ذاكرة لها، تنسى ما فعلته قبل ساعة، وتحتاج لأن تدوّن كل ما تقوم به لتسير حياتها بشكل شبه طبيعي؟

أجابها حينها وهو يدخل أصابعه في شعرها :

-سأكون أنا ذاكرتك، ماضيك، حاضرك ومستقبلك.



كانت كلماته تهزها من العمق، يسحرها بلكنته العربية المكسرة، تشعر
بالفة غريبة اتجاهه، لكنها كانت تحافظ على ردة فعلها اتجاه فيض المشاعر.
رامي وأهله يقيمون هنا في فرانكفورت منذ خمس وعشرون عامًا، كان
رامي حينها صغيرًا، يبلغ من العمر خمسة أعوام، حالفها الحظ في أن تلتقي
بهم أو بالأصح أن يلتقوا بها أثناء وجودهم في إحدى مدن اليونان لزيارة
بعض الأقارب ودخول والد رامي إلى المشفى الذي تم نقلها إليه، لأجل أن
يقيس نسبة السكر في دمه بعد وعكة صحية تعرض لها، لا تعلم ماذا
حدث بعدها لأن رامي لم يحدثها بالتفاصيل ولم تدون ذلك في مفكرتها.
كل ما تعرفه أنهم اصطحبوها معهم إلى ألمانيا وإلى فرانكفورت تحديدًا.
اختطفها النوم إلى أحضانه بعدما فعل بها الدواء ما فعل، وغرقت في
أحلامها التي لا تذكر منها شيئاً حينما تستيقظ.
فتحت جفניה المنتفخين عبثًا، لترى خيوط الشمس قد تسللت إلى غرفتها
من بين الستائر، والظل قد بعثر رسوماتٍ على الجدران من أغصان الأشجار
وقضبان النافذة وخيوط الستائر الداكنة، جميعها قد شكّلت لوحة فنية من
نور وظلال لكنها كانت تتراقص كلما هبت الرياح وسكنت، وهي ظلت
تراقبها بضع دقائق قبل أن تنهض بجسدها المنهك لتجد المفكرة ماتزال
بيدها والقلم تدرج هارباً على الأرض.



نهضت متثاقلةً إلى الحمام عليها تنعم بحمام دافئ، تنفض به عن جسدها الآلام التي تشبثت بأطرافها وكأنها أغصان أشجار يابسة، وحينما انتهت اكتشفت بأنها قد نسيت بعض ثيابها على السرير.

خرجت وهي تلعن هذه الذاكرة التي ستنهكها، الجو بارد في الخارج وستصاب بنزلة برد إن لم تسرع في ارتداء باقي ثيابها، وحينما كانت تسير باتجاه السرير رأت نفسها في المرآة المواجهة لها، يتقطر الماء من أطراف شعرها، توقفت أمامها تتأمل نفسها، مسكت رأسها بكلتا يديها وقالت:

-أليس من الظلم أن يكون هذا الرأس خاويًا من الذكريات؟، لكن ماذا لو كان لي ماضٍ مؤلم قد حجبته الله عني، لماذا أريد أن أستحضره؟ هل لأضع نفسي رهينة الألم؟ أليس من الجميل أن يكون المرء بلا ذاكرة؟ كم من أناس هلكوا بسببها لأن النسيان لم يكن من حليفهم.

لكن ما وددت معرفته هو عائلتي، أي وأمي، هل من الممكن أن أكون بلا عائلة؟ أم أن البحر هو الذي تمخض فأنجبني؟

ومن هو جاد الذي كنت أردد اسمه في غيبوتي؟ هل هو حبيبي، خطيبي، زوجي، أخي، من؟

أيعقل أن أكون متزوجة ولدي أطفال؟ لا، لا أعتقد، بطني ما زالت سليمة لم تتشقق ولا يبدو أنها كبرت يومًا ما.

أمام المرأة نصف عارية تتحسس جسدها، تتلمس بطنها، انحناءات جيدها الفاتنة، تملك جسدًا رائعًا، شعرها الأشقر المتموج، عيناها الزرقاوان،



شفتها المتلثتان "رامي" كان يقول لها بأن جمالها ليس عربياً وربما كانت من أصول أوروبية، لكنها تتكلم العربية، يفقد المرء ذاكرته، ذكرياته، ماضيه، ولكنه لا يفقد لغته!

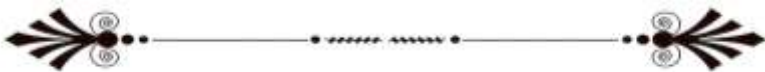
خاطبت انعكاس صورتها على المرأة:

-رامي يعيشني بجنون، لكن ماذا يحبُّ فيّ، هل يحب جسدي فقط.
إن كان ذلك صحيحاً، تبّاً لك يا رامي.

كانت تمسك بقارورة العطر الفرنسي التي أهداها إياها في رأس السنة، رمتها على انعكاس صورتها، فاخفت الصورة وأحالت المرأة إلى شظايا مبعثرة خلال ثوان، انبعثت رائحة عطر واخزة مستنكرة فعلتها.
-تبّاً لك يا رامي، أين أنت؟

اكفهرت غيوم فوق عينيها وبدأت دموعها تسيل غزيرة على خديها، لتشارك السماء في هطولها وحزنها، جسدها يرتعش كبقايا الأوراق على الأغصان، أطرافها لم تعد قادرةً على حملها، تراجعت إلى الوراء بضع خطوات ثم هوت على السرير كبناء أسقطته هزة أرضية، سحبت اللحاف لتدثر به، دفنت رأسها وغرقت في بحرٍ من نحيب.

أنهت جوليا نحيبها حتى جفت مآقيها، غياب رامي تركها في عزلة كبيرة وضياح، لأنها لا تمتلك أصدقاء، كانت تتجنب الاختلاط وتفضل العزلة خشية ورهبة، ووجود رامي كان يكفيها من أن توسّع دائرة معارفها، وحده كان يفهمها ويستوعبها، ويتحمل غضبها وتقلباتها النفسية.



استجمعت شتات نفسها، ونهضت لترتدي ملابسها، نظفت المكان من شظايا الزجاج المحطم وحينما انتهت دخلت إلى المطبخ وصنعت لنفسها فنجان قهوة تصاعدت أبخرته الشهية وفاح عبق حبات البن في أنحاء شقتها بعدما كان العطر الفرنسي قد احتل ذرات الهواء.

وقفت أمام النافذة تتأمل جنون الطبيعة ونحيبها الذي يملأ الكون صخبًا، لماذا لا تبكي الطبيعة في سرّها مثلنا؟ لماذا تبلل كلّ شيء بدموعها وتنقل عدوى البكاء للنفوس؟

الشتاء قاسٍ هنا، وعلى الرغم من كثافة الأشجار وعلوها الباسق إلا أن معظمها يتعرّى في هذا الفصل، تجود السماء بالكثير من الأمطار، وتغطي وجه الأرض بندف الثلج أشهرًا عدّة، مازال الشتاء في أوله والأشجار لم تتعرّ عن آخرها بعد، ولا يمنع ذلك من الخروج والسير تحت المطر، لذا قررت جوليا أن تخرج في جولة سيرًا على الأقدام، علّها تنجو من بئر الحزن الذي أوقعها فيه غياب رامي المفاجئ.

ارتدت بنطال جينز واختارت فوقه كنزة صوفية زرقاء، ثم انتقت جاكيتًا رماديًا يغطي وركها حتى الركبتين، وتركت أزراره مفتوحة ثم دست كفيها تحت ياقة الجاكيت لتخرج شعرها منه، ثم نثرته حرًا على كتفيها، تناولت حقيبتها التي وضعت فيها هاتفها المحمول ومذكرتها، انتعلت جزمة جلدية ثم صفقت الباب خلفها وخرجت.



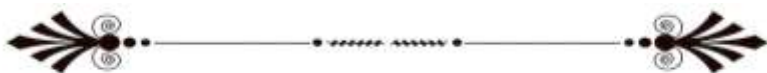
اقتحمت رثتيها نسمات باردة شهية برائحة الصنوبر وعطر الأرض المشبعة بالمطر، تورداها على الفور وكأنما منحت عروقها أكسجيناً إضافياً أعاد إلى جسدها النشاط، انطلقت في الطريق المعبد المحفوف بالأشجار من الجانبين، ثم التفت يساراً لتكون في طريق تحفه البيوت الملونة، وعلى الرصيف حثّت خطاها فلم تجد نفسها إلا أنها تقف أمام بيت عائلة رامي كجاذبية مغناطيسية جذبتها إلى المكان الأحب.

رنت الجرس مراتٍ عدة ثم بدأت بالضرب على الباب بكلتا يديها وما من محيب، أحدثت ضجيجاً أطلت على إثره إحدى الجارات برأسها من النافذة، لتخبرها بأن المنزل خالٍ من رامي ووالده الذي سافر إلى باريس منذ عدة أيام.

لكن ما راع استغرابها بأن رامي غادر المنزل بعد والده بيومين ولا تعلم جارتهم إن لحق به أم كانت له وجهة أخرى.

Danke-

شكرت جوليا السيدة وغادرت وبدأت تتمتم في نفسها:
أيعقل أن يكون رامي قد لحق بوالده؟ لماذا لم يخبرني؟ يعلم بأني وحيدة هنا ولا عائلة لي كيف يتركني بهذا الشكل حتى أنه مذ غادر حتى اللحظة لم يتصل بي.



-لن أتصل بك أيها الوجد، إن كنت تنتظر أن أتوسل إليك بألا تتركني لن أفعل، نعم فهمت لعبتك تريد أن تضغط عليّ لأوافق على الزواج، لن أوافق اذهب حيث شئت يا رامي.

تحدث نفسها وهي تسير غاضبة باتجاه النهر، اعتادت أن تقف أمامه برفقة رامي لكن هذه المرة ستكون وحدها.

كان سطح الماء يعكس صورة السماء بغيوم رمادية متجمعة والأشجار على الضفة الأخرى منحت ذاك السطح جمالاً إضافياً، وقطرات المطر المتواترة يهتز لها النهر راقصاً بتموجاتٍ ناعمة.

تأملت المشهد جولياً بشرود، ما لبثت أن رفعت حصاةً من على الأرض و جعلتها تهوي إلى النهر فاهتز هلعاً بدوائر صغيرة بدأت تكبر شيئاً فشيئاً ثم تلاشت، وكأنها لم تكن، هي مشاكل الحياة هكذا، تبدأ صغيرة ثم تكبر مع مرور الزمن وفي نهاية المطاف تختفي، فيما أن تترك في نفوسنا ندوباً، أو نكن كسطح الماء لا تترك الحصى بعد سقوطها فيه أي أثر.

تسلل البرد إلى جسدها، فضمت عروات الجاكيت الأزرار إليها، ثم احتضنت جسدها بكلتا يديها تستمد الدفء من نفسها، وتمنحها بعض الطمأنينة وكأنما تربت على قلبها بأن اهدأ كل شيء سيمضي.

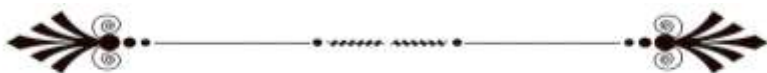
لا بد لها من فعل شيء يخرجها من شعور الوحدة والاضطراب، الحياة هنا تفتح لها الأبواب على مصراعيها، البلاد واسعة ولن تستطيع البحث عنه، من غادرك دون سبب أو وداع لا تبحث عنه ولا تركض خلفه، ستستنزف



طاقتك في الركض، ستبدو وكأنك تجري وراء سراب، تلهث نازفًا كل مشاعرك عبثًا، من يريدك يبقى بجانبك، يقلق لأجلك، يمسك بيدك ويخبرك بأنه معك، من يحتاجك كحاجتك له، يجلس معك في ظلامك إن لم يكن قادرًا على إضاءتك.

جوليا تمتلك مواهب عدة، لم يؤثر فقدانها للذاكرة على قدراتها، تستطيع إشغال نفسها بأي شيء، ولا تترك بابًا للفراغ يدخل البؤس من خلاله إلى قلبها، اشترت عدة كتب لم تكمل قراءتها بعد، ولديها لوحاتٍ مكونة في غرفة صغيرة في شقتها تنتظر منها أن تربت بفرشاتها عليها لتكتمل، ومنذ مدة كانت قد بدأت البحث في مواقع التواصل الاجتماعي لتقرأ عن بلادها وتتعرف عليها وعلى ما حلّ بها، وكان الطبيب الذي تتابع عنده رحلة علاجها قد نصحها بالقراءة، فالكتب خير دواء، وخير نجاة لنا من الاستسلام لمكدرات الحياة.

أيعقل أن نكون محاطين بالكثير من الأشياء، وغياب الشخص الأحب يترك فينا فراغًا هائلًا كثقبٍ أسود يبتلع سعادتنا وهدوءنا وتوازننا؟ مسحت دمعتين كانتا قد تسلتا من عينيها، وتوقفتا على جفنيها المتورمين، ثم جلست على صخرة بالقرب من الماء، وبدأت ترمي بالحصى من جانب الصخرة إلى النهر الواحدة تلو الأخرى، المطر قد توقف، لكن رياحًا باردة بدأت تهب في الأرجاء وتعزف من خلال الأشجار شجنًا مهيبًا.



أخرجت هاتفها المحمول من حقيبتها، بحثت عن اسم رامي على برنامج الواتس أب، حتى ظهوره كان متوقفاً منذ تلك الليلة التي غادر فيها المقهى، لم ترسل له ولا حتى فكرت في أن تتصل به، كبرياءها وعنادها قد منعها من ذلك، لكنها كانت تكابر كثيراً، لأنها تشتاق إليه وتشعر وكأنها شجرة فارغة من الداخل تعصف بها الريح.

وضعت الهاتف بجانبها على الصخرة وبسبب سطحه الأملس انزلق نحو النهر ولم تستطع تداركه قبل أن يغرق.

-تبا، وها قد خسرت الهاتف أيضاً، ورقم رامي يا إلهي.

وضعت رأسها بين يديها وأسندت نفسها على فخذيها، شعرت في هذه اللحظة أنها انقطعت عن رامي ولم يعد بإمكانها الوصول إليه إلى أن يعود.

عادت إلى منزلها وأعصابها تالفة، خرجت لتحصل على قليل من الهدوء لكنها كانت كمن يقف تحت المطر دون مظلة ولا يريد أن يتبلل، وها قد باتت مبللة فعلياً ونفسياً بالمطر وبخسارة صلة وصلها مع رامي.

بعد أن بدلت ملابسها وصنعت الشاي الساخن جلست أمام حاسوبها تتجول بين صفحات التواصل الاجتماعي، كانت منذ أيام قد لفتت انتباهها صفحة باسم (ناجيات) تهتم بقصص النساء اللواتي يعانين من سجن المجتمع بعد خروجهن من المعتقل في بلدن التي تعاني من حرب منذ سنوات، هي ذاتها بلدها التي جعلتها تجوب البحر بقارب مطاطي لتصل إلى

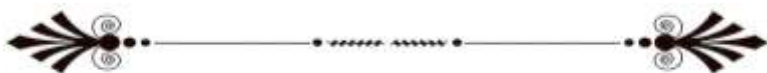


شاطئ اليونان بعد أن قذفها الموج واستقبلها الشاطئ، لتبدأ حياة جديدة
بوطن جديد وذاكرة جديدة.

لينا جميعًا كجوليا قد تركنا ذاكرتنا على حدود بلادنا وبدأنا من جديد
دون الرجوع إلى الماضي، ودون التأثير بالذكريات التي تصلب أفئدتنا على
خشبة من ألم، مَنْ مَنّا لم يعاني ويشهد الموت مرات؟ كم نجونا من موت
محتوم بعد غارات الطيران، من صاروخ تاه عنا وسقط في مكان آخر، وكم
من مرة صحونا على أصوات التفجيرات واعتقدنا بأن نهاية العالم قد
اقتربت؟

أن تمضي السنوات بأيامها وفصولها بين حرب وحرب، بين هلع وخوف، بين
فقدان وجوع، متنقلًا من مدينة لأخرى، تقع تحت وطأة الضغوط النفسية،
باحثًا عن مأوى، عن جدران تأويك، عن سقف يظلك، تفتش لاهثًا في
أعين الناس الخائفة عن أمان مفقود، تصاب بالذعر من كل شيء ومن لا
شيء، ينعقد لسانك عن الكلام خشية أن يتم الصاق تهمة ما بك زورًا
وبهتانًا، لتجد نفسك في غيابات المعتقل تذوق أنواع العذاب.

بتنا ننشد الأمل في الخلاص بحثًا عن أمان في وطن آخر، لأنه لم يتبقَّ لنا
أي أمل في انتهاء الحرب التي اشتعلت وبدأت تنهش أرواحنا وأرزاقنا.
كان البخار يتصاعد من كأس الشاي أمامها، وأغاني فيروز تصدح في أرجاء
الغرفة، شيء من السكينة تعيدها تلك الألحان إلى نفسها، تشعر بأنها
مُزجت داخلها منذ زمن بعيد.



وهي تنقر الحاسب أمامها لم تجد نفسها إلا أن ساقتها أصابعها إلى حساب رامي الشخصي على الفيس بوك، كان ظهوره قد توقف أيضًا مذ رآته آخر مرة، بدأت تتجول بين المنشورات وكانت كلما ظهر لها اسم فتاة ما تشعر بالنيان تتقد داخلها، غير من نساء افتراضيات ربما كنّ صديقات رامي أو حبيبات سابقات لا تعلم.

قالت في نفسها:

-أنا حزينه لأجله، وبالي مشغول عليه، وهو لم يأبه لي، لربما كان في أحضان امرأة ما، لا أستطيع أن أمنحه ما يرغب به، طلب مني الزواج لكني لا أرغب بالارتباط في هذا الوقت ولست مستعدة نفسيًا لأن أكوّن أسرة، لماذا يفكر الرجل بجسد المرأة حينما يحبها؟ لماذا لا يمنحها الحب والدفع والأمان بعيدًا عن الغرائز الجسدية؟

-افعل ما تشاء بعيدًا عني يا رامي، تبًا لك.

طنين رسالة مسنجر انتشلتها من شرودها وغضبها، فتحتها لتقرأها، أسندت ظهرها على الكرسي ثم تنهدت، وأخيرًا.

تمت بها وهي تبتسم وقد تغير كل مزاجها، وصلتها رسالة أخرى تشير بأن مرسلها متصل الآن وكانت بانتظار هذه الرسالة منذ أيام.

الرسائل ترد من الصحفية التي تعرفت عليها جوليا عن طريق الفيس بوك من إحدى صفحات التواصل التي تسلط الضوء على قصص الناجيات من الحرب، وأخريات لم يحالفهن الحظ في النجاة، وغيّبن وراء الجدران بعيدًا



عن ضوء الشمس، وأعين أهاليهن وأبنائهن، وكانت قد سردت لها قصتها المختصرة التي لا تكف عن قراءتها يوميًا، والتي بدورها قد أثارت استغراب الصحفية وعرضت عليها أن تساعدتها بقدر استطاعتها.

بدأتا بتبادل الأحاديث بينهما كتابةً ثم طلبت جوليا أن تتواصل معها بالاتصال الصوتي لتستطيع أن تتحدث بكل ما يدور في ذهنها، نغمات فيروز تسللت مع صوت جوليا لتصل إلى الصحفية، سألتها:

-هل تستمعين لفيروز؟

-نعم أحبها، تمنح نفسي دفنًا عجيبيًا، تحرك في ذهني ذكريات مبهمة، تُشعّرنِي بأحاسيس غريبة وكأني في عالم آخر، لكن لا أستطيع تذكر أي شيء، أشعر وكأن جدارًا حالك السواد يقف أمامي ويعيق رؤيتي لما وراءه، أنا في سجن يا ياسمين، سجن الواقع دون ماضٍ.

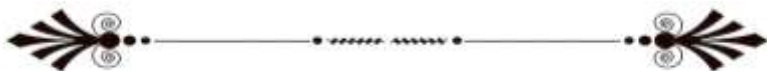
-لو تعلمين كم من فتيات يعشن في سجن الماضي دون واقع ينصفهن، لشكرتي الله على فقدانك لذكرياتك.

-لم أفهم قصدك.

-سأطلعك على قصص العديد منهن، وأنتِ بتّ الآن جزءًا من اهتماماتي، قضيتك لا تقل شأنًا عنهن، أنتِ في عداد المفقودين بالنسبة لعائلتك التي لا تعلم عنكِ شيئًا.

-عائلتي!، قالتها جوليا ونفرت دمعة حارة من عينيها.

-نعم عائلتك، سأفعل ما بوسعي لمساعدتك.



- سأكون ممتنة لك جدًا.

- هذا واجبي، ولا تنسي أنتِ صديقتي الغالية.

- أكثر ما أخشاه يا ياسمين، أن أعرف أخبارًا لا تسعدني عن عائلتي، أنا كُتبت لي النجاة لكن أهلي لا علم لي إن كانوا قد وصلوا إلى الشاطئ أحياء أم ابتلعهم البحر، أليس من الممكن أن يكونوا قد أصبحوا طعامًا لوحوش الأعماق؟

خنقتها العَبَرَات واختلجت في حنجرتها الكلمات، وساد الصمت بينهما لبرهة، حتى بادرت ياسمين بالحديث محاولةً أن تنتشل جوليا من حزنٍ مباغت وأفكار سوداء.

- قولي خيرًا يا عزيزتي.

- إن شاء الله.

- ذكرتني نبرة صوتك الآن بفتاة اسمها هاجر، لها ذات النبرة لكن قصتكما مختلفة، لا تعلم عن عائلتها شيئًا، لأنها لا تريد لعائلتها أن تعلم عنها أي شيء.

- لماذا؟ أيعقل ذلك؟.

- نعم، قصتها طويلة، وأنا في كل مرة أتحدث معها أكتب ما تسرده لي في مذكرتي.

- وأين هي الآن؟.

- هنا في تركيا، لكنها ترفض أن نتقابل، أو بالأحرى ترفض مقابلة أي أحد.



-هل لي بالاطلاع على قصتها؟

-هاه، أراكِ تهمستِ لسماع قصص الأخريات.

-بالطبع، ليس فضولاً ولكن كي أعرف نمط الحياة التي عشتها في بلادي،
لربما تشابهت أنماط حياتنا، أريد أن أنعش ذاكرتي بذكريات الآخرين،
لربما استطعت تذكر شيء ما، وإن كان لي ماضٍ مؤلم لا يهم، أنا هنا في
أمان وحياتي تسير على ما يرام، لكن تعذبني وحدتي وأشعر بأني غصن
شجرة قُطع وأبعد عنها وبدأ يحف ويموت ولم يعد صالحاً لشيء، إلا أن
تلتهمه النيران.

-هوني عليكِ عزيزتي، أنا هنا معك، اعتبريني أختك وراسليني في أي وقتٍ
شئتِ.

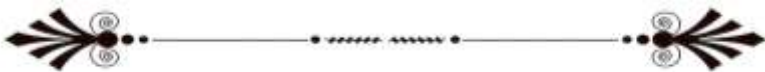
-أشكركِ جداً، لولاكِ لغرقت أكثر في عزلي، الحديث معك يبعث في نفسي
الراحة.

-الحمد لله، سأتركك الآن، لدي بعض الأعمال، نتواصل غداً إن شاء الله أو
متى ما أحببتِ فقط ارسلي لي.

-حسناً.

أنهت حديثها مع ياسمين، وكانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشر ليلاً،
فذهبت مباشرة إلى سريرها واستلت كتاباً من الجارور القريب منها.

-سأعود للكتب، الطبيب محق، منذ أن توقفت عن القراءة وحالتي النفسية
تزداد سوءاً، القراءة تجعل مني امرأة مختلفة، أخرج من وحدتي لأعيش مع



أشخاص كثر في عالم مزدحم، أشعر وكأن براعم صغيرة في عقلي تتفتح عند نهاية كل كتاب، ليغدو فكري بستاناً خصباً، حتى أنني أغدو أكثر حماساً للرسم وأضيف للوحاتي أفكار جديدة.

-الرسم!

تذكرت جوليا لوحتها التي تركتها في غرفتها الصغيرة، والتي جعلت منها مرسمًا بمساعدة رامي بعد أن جهزها لها بجميع الأدوات والألوان لتضرب بفرشاتها على اللوحات البيضاء كذاكرتها، وتجعل منها صورًا بخطوط وألوان. رمت الكتاب على السرير وتوجهت إلى المرسم، فتحت الباب المغلق منذ عدة أسابيع لتدخل إلى أنفها رائحة الألوان الزيتية الواخزة، وأمام ناظرها كانت آخر لوحة قد تركتها بعين واحدة تبادلها النظرات، وكأنها تقول لها لماذا هجرتني كل هذا الوقت وتركتني حبيسة لوحة دون أن تكتمل تفاصيلي، وحيدًا بين إطارات أربع تضيق علي، ويطبق فوق سقف غرفة مهجورة، وظلام يطمس هويتي ووجودي، أين أنتِ مني؟

ألا تسمعين صرخاتي وأنيبي، بعين واحدة ونصف وجهه، لا بل بنصف عين دون أن تكتمل.

اقتربت جوليا أكثر نحو اللوحة وكأنها تسمع صوتها حقيقةً.

-اعذريني لم تكتمل الملامح بعد، لا أستطيع أن أتذكر أكثر، كلما هممت لإكمالك، يزداد الضباب بيني وبينك، لا أريد أن أرسم وجهًا لا أعرفه، أريد أن أكملك كما في مخيلتي، أعرفك ولا أتذكرك ولكن شيء ما يحول بيني



وبين أن أتذكر، هذه الذاكرة اللعينة التي تفسد علي كل شيء، من أنت أخبرني من؟

لماذا أرى في ملامحك ألمًا لا أستطيع أن أخطه بفرشاتي، عيناك تشيان بالكثير، لا أريد أن أكمل الحزن المرسوم فيهما، تطفو تفاصيل وجهك على السطح ثم تتوارى في الأعماق، قف قليلًا لتأملك، علني أعرفك، عسى أن تخبرني من تكون، وأعرف نفسي من أنا.

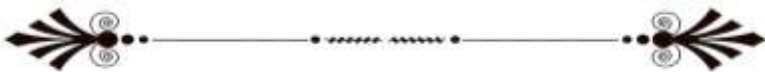
أنت من ماضيّ الضائع، كم تشبهني ملامحك، فهل من الممكن أن تكون أنا؟ أرسم نفسي على هيئة رجل؟

لا أعتقد بأن الجنون يتسلل إلى عقلي هذه المرة، لو رآك رامي لرمى اللوحة من النافذة، يغار جدًا، ولا يجب أن أرسم ملامح رجل غيره.

أمسكت جوليا اللوحة بكليتا يديها وهي تخاطبها، تتأمل ملامح نصف الوجه المرسوم، سالت دموعها على خديها، ثم أعادت اللوحة مكانها بانتظار أن تكتمل.

بين نسيان وذاكرة، بين حلم ويقظة، بين أمل وألم، دفنت جوليا نفسها في السرير، تتوسد دموعها خديها حتى الصباح.

ما الذي سينتشلها من هذا الضياع الذي تعيشه والوحدة التي تحيط بها من كل جانب؟



استيقظت بروج متجددة، جذبتها نحو طاولتها وكراستها، فنجان القهوة
تتصاعد أبجرتها لتعانقه خيوط الشمس المتسللة من زجاج النافذة.
بعثرت الأوراق أمامها وأمسكت القلم لتبدأ برسم كلماتها التي تدور في
ذهنها.

(-لا بد لي من فعل شيء، معجزة ما، لأخرج من صمتي وضياعي ونكراني
لذاقي، وإن كنت فتاة بلا ذاكرة، لم لا أصنع ذاكرة لنفسي من ذكريات
الآخرين؟ أن أبحث بين أنقاضها عني، بين صورها المشوهة شيئاً مني،
جميعنا نتشابه بالذكريات إن كنا قد عشنا نفس الظروف في ذات البلد.

ربما كان ما أفكر به أمراً جنونياً وغير منطقيّ البتة، ولو سمع بفكرتي رامي
لمات من الضحك على سذاجتي، لطالما كان يكتفي بالقهقهة وأنا أتحادث
إليه بكل جدية، أين أنت الآن يا رامي، اشتقت لتفاهتك، تبّاً لك.

ليس علي سوى أن أستمع لقصص اللاجئين من بلدي وأساعد ياسمين في
تدوينها أو حتى رسمها، لإيصالها لكل العالم، ولئلا تغيب عن الأجيال
القادمة على الرغم من أن ذكريات الحرب والنكبات تنتقل بين الأجيال
لعقود طويلة من ذاكرة لأخرى دون الحاجة للتدوين.

لكن ماذا لو كان هناك من يحمل ذكرياتٍ يأبى أن يخبرها لأحد؟ أو معاناة
عاشها ويخشى أن ينطق بها و أثر أن يحتفظ بها لنفسه؟.

هل من العدل أن يموت إنسان ويدفن معه ألمه دون أن ينصفه أحد؟



لربما هناك من سَطَّر أمله ودموع عينيه في مخطوطات كما فعلت مي زيادة واحتفظت بها بعيداً عن أعين البشر رهبةً وخوفاً من ردة فعل الآخرين، أو من عقوبات تفرضها الحكومات أو الأفراد على جرم الكتابة.

من منا يعيش بلا ذاكرة، وإن كنت قد فقدتها فهذا لا يعني أنني لا أملك ذكريات، لكن ذكرياتي تنقصني، تفتقد لأن أستحضرها وأحييها في ذهني بين الحين والآخر، لا بد بأن هناك على هذه الأرض من يشاطرنى الماضي ذاته، وأناى مازلت في ذكريات أحدهم، يبحث عني كما أبحث عن نفسي، وحدهم الأموات لا ذاكرة لهم سوى ما يتذكره الناس عنهم.

لذا قررت أن أخوض حربي مع نفسي وأستغل معاناتي بدلاً من أن تستغلني، وأملأ وقتي الضائع في البحث عن شيء قد دُفن في أعماق البحر، في إيجاد ما يمكن أن أكونه على سطح الأرض، لذا قررت أن تبدأ رحلتي..

إصرار جوليا في البحث عن حقيقتها جعلها تسلا عن فكرة البحث عن رامي وكأن غيابه قد ترك لها مجالاً لأن تتفرغ لنفسها وأن تتحدى عائق النسيان وتسعى في طريقٍ جديد تجد فيه ذاتها.

الاستسلام يسحب بيدنا نحو الهاوية حيث الضياع، يجعلنا نتجمد ولا نبرح أماكننا والزمن يعبر مهوولاً من خلالنا دون حراك، يترك أثره علينا دون إدراك منا، لذلك كان لابد لنا من أن نصنع من أحزاننا حافزاً يقودنا نحو الإبداع.



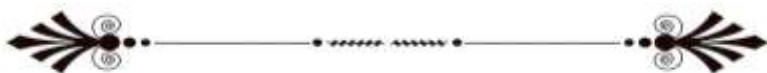
غياب شخص أو فقدانه لا يعني نهايتنا وبالأخص حينما يكون غيابه
بملء إرادته، فلن تتوقف الحياة عنده ولا حتى عقارب الساعة ذاتها التي
شهدت بدايتنا، لن تأبه لمصابنا في النهاية وستتابع دورانها باستهزاء.
ستسخر الدقائق من غفلتنا إن نحن جعلناها تمضي دون أن نجعل من سَمِّها
ترياقاً ينهض بنا من سرير اليأس.



(2)

بدأت جوليا تمضي أيامها كفراشة تتنقل من متجر لآخر، ترقشف الألوان واللوحات البيضاء وتأخذ بها إلى مرسمها، لتصنع منها رسومات جديدة وتكمل ما كانت قد بدأت لتشارك بها في معرض الرسم الذي سيقام في مدينة استوكهولم في هولندا، بعد تلقيها دعوة من أحد أصدقاء رامي الذي تعرفت عليه الصيف الفائت وكان أحد الرسامين الهولنديين القائمين على المعرض.

ستغامر دون تردد لأنها على ثقة بأن لوحاتها تستحق الاهتمام حتى وإن اتهمها الزائرون بالجنون، فكل ذو موهبة مجنون وهذا وسم المبدعين. اقتنت هاتفًا جديدًا يحمل رقمًا آخر غير الذي يعرفه رامي ولم تعد تكثر بالأمرفقد أعجبتها فكرة الاختفاء عنه علّه يعود من تلقاء نفسه. الأشياء التي نلح في طلبها تعاندنا إن نحن وضعنا أنفسنا رهن انتظارها، تصلبنا على خشبة الانتظار على مرأى من الأيام دون شفقة، ننزف بصمتٍ غير آبهة بتمزقنا، بل تزداد بعدًا وعنادًا على عدم اللقاء. لكن حينما نكسر قيودنا ونتركها تبيء على مهل، شاغلين أنفسنا، مالئين الفراغ من أوقاتنا، فإنها ستمط عنقها فضولًا رافعة راية الاستسلام تسعى إلينا بمنطقٍ غريب تتخذه الأشياء الأحب إلينا كدستور تحكم به رغباتنا.



هروب من الواقع، أو ربما انغماس مع الذات، كلما ضاقت بك الحياة ،
وكلما شعرت بالضيق، الجأ لنفسك، ستكتشف ذاتك، وتتعرف أكثر على
ماهيتك، ترتب أفكارك، وتمارس أحب الأشياء إليك.

هكذا فعلت جوليا حينما عزلت نفسها عن العالم الخارجي وباتت تمضي
أغلب ساعات اليوم في الرسم.

تنسى نفسها أحياناً وهي تضيع بين عالم الألوان، حتى يغلبها النوم بين
لوحاتها وأقلامها.

الواقع لا يبدو بذاك السوء، إن نحن منحنا أنفسنا بعضاً من الوقت، لنرى
فيه العالم بعين أخرى، أكثر توازناً وهدوءاً.

مسحت الغبار عن بعض اللوحات المكتملة وأسندتها على الجدران الواحدة
تلو الأخرى، وتركت اللوحة غير المكتملة وسط الغرفة كملكة تحيط بها
الجواري من كل جانب، تعلو فوقهن رغم النقص الذي يعترئها، تحطّ جوليا
جلّ اهتمامها بها محاولةً إكمالها.

تمزج الألوان فوق خشبة الرسم التي تتشبث بيدها اليسرى، تضرب باليد
اليمنى الفرشاة عليها، ثم تذهب بها إلى اللوحة، تمررها بجنونٍ ثم رؤوم فوق
جبين ذاك الوجه الغامض الذي باتت ملامح جانبه الأيسر أكثر وضوحاً،
ترتعد أوصالها كلما بانّت ملامحها أكثر.

عرق بارد يتصبب من جبينها، تسارعت أنفاسها، ويدها التي تمسك
الفرشاة بدأت ترتجف، لامست الفرشاة خشبة الرسم دون إدراك منها



فتشبت باللون الأحمر الذي بدأت تلطخ به مناطق متفرقة من الوجه، دارت الأرض من حولها، الجدران تتمايل اللوحات تدور من حولها، سقطت الفرشاة من يدها وخشبة الرسم ثم هوت على الأرض. صراخ وأصوات أقدام تركض تسابق القدر، كل شيء يحيط بها ضبابي يعيق الرؤية، تتلمس الأرض التي تلطخت بسائل لزج، باحثةً عن هاتفها المحمول.

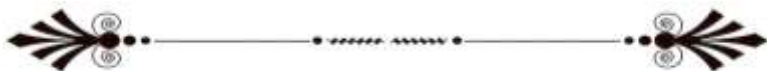
ضجيج وجلبة وأصوات هامسة، يبدو وكأن العديد من الأشخاص يشاطرونها المكان، لا تراهم ولكنها تشعر بوجودهم فقط، تجثو على ركبتها تحاول الحركة زاحفةً ويدها تتلمس الأشياء حولها، لا شيء سوى الحجارة تمسك بها ثم تبعدها جانباً، أصوات سيارات وأزيز رصاص يبتعد شيئاً فشيئاً..

-أين أنا؟

تحدثت لنفسها، محاولةً أن تتبين ماهية المكان، تابعت الحبو وهي تدور حول نفسها، تتقدم إلى الأمام ثم تعود إلى الخلف ثم تعاود الدوران. -هل هذا الهاتف لك؟

أحدهم بصوت مبسوح سألها.

توقفت عن الحبو، ثم وقفت على قدميها بطريقة هستيرية، دارت حول نفسها باحثةً عن صاحب الصوت الذي أعاد سؤاله عليها ولكن بوضوح أكثر.



-هل هذا الهاتف لك؟

صوته مرعب وكأنه فحيح أفعى عملاقة، صوت ارتطام شيء ما على الأرض أمامها، ثم أضاء المكان من ذلك الشيء.

كان هاتفها على الأرض يعرض فلماً قصيراً، التقطته بخفة قبل أن ينتهي المشهد.

صورة شاب وسيم بابتسامة جميلة تظهر لشوان كان يلوح لها بيده، ثم تتحول الشاشة إلى اللون الأحمر، ضوء ساطع يخرج من الهاتف يلثم عينيها ويمنعها من الرؤية، أزيز رصاص ودوي مدفعية يقترب، الهاتف يغلي ويصدر صوتاً كقنبلة موقوتة.

-أنت ميتة، لا يوجد أحياء هنا، حاولي دفن نفسك بأسرع ما يمكن.
الصوت ذاته يخاطبها، بصوته المبحوح المخيف، حاولت أن تستجمع قواها وتحافظ على رباطة جأشها لتمكن من تفسير ما يحدث.

يد من الخلف أمسكت بها بقوة وسحبتهما حتى سقطت على الأرض.
-انهضي، اجري بسرعة، لا تقفي هكذا.

-لا تحاولي الهرب أنت ميتة، الأموات لا يموتون إلا مرة واحدة، عليك مواجهة مصيرك بكامل وعيك، لن يفيدك الهرب، لم يتبق إلا لحظات..
-لا تستمعي إليه، انهضي، هيا بسرعة.



تقف مذهولة تلتف حول نفسها لترى من يتحدث إليها، دخان أسود غطا على كل شيء، انعدمت الرؤية والهاتف على الأرض يهتز بوميض أحمر خافت بعدما سقط من يدها.

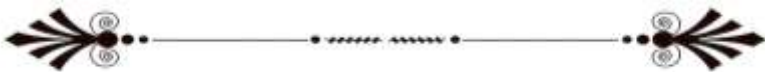
-من أنتم؟ من أين جئتم؟ وأين أنا؟
بدأت الصراخ بأعلى صوتها، تصرخ بجنون.
-أجيبوني...

لا تقفي يا مجنونة اركضي..
-لا تستمعي إليه لن يفيدك الهرب...

ضوء ساطع يضيء المكان، مع صوت انفجار هائل، تهيأ لها أنها تحولت إلى أشلاء، لولا أن فتحت عينيها لترى أشعة الشمس قد لامست وجهها بعد تسلسلها من بين ستائر الغرفة..

تجمدت مكانها محاولة أن تتحكم بأنفاسها المتسارعة، تمسح قطرات العرق الباردة من على جبينها، تتسع حدقتي عينيها لتبتلع أكبر قدر ممكن من الضوء الخافت، تتوضح الصورة أمامها شيئاً فشيئاً.

لوحاتها المصطفة على جدران الغرفة، الألوان مبعثرة تحت قدميها، أصابعها ملطخة بمزيج من الألوان الداكنة، تنتهي من استيعاب المشهد ليعود الظلام مجدداً بعد أن تغمض عينيها بقوة، محاولة أن تسترجع اللحظات التي سبقت حالتها تلك.



أنين يخرج من اللوحة المعلقة على مسند خشبي، صوت آه يكاد يمزق الورقة الملطخة بملامح ذلك الشاب الذي رسمته جوليا وحاولت ليلة الأمس استكمالها.

-لم يكن سوى حلمًا..

قالتها في نفسها ثم فتحت عينيها لتقعان على اللوحة أمامها.

-من أنت؟

دارت حول نفسها وهي تقول:

-لا أستطيع التركيز، أعتقد بأني رأيت أحدهم في حلمي.

تعصر رأسها بكلتا يديها وتردف:

-الحلم، الحلم، لأول مرة أتذكر شيئًا من حلم أراه، رأيت هذه الملامح ذاتها، لا أعلم ربما أهذي، وربما لأنني أطلت التحديق في اللوحة وأنا أرسمها فتراءت لي في الحلم، نعم، نعم هذا ما حدث، لكنه مؤشر جيد أستطيع تذكر شيء ما، نعم أتذكر.

ضحكت بصوت عال ارتد إليها بصدى عبر الجدران وكأنها تضحك معها سخريةً.

صمتت، ونظرت إلى الألوان التي لطخت الأرض، واللون الأحمر الذي ملأ اللوحة فبدت كدماء تسيل من جبين الشاب الذي ترسمه جوليا وتتساقط على الأرض.



-يبدو أنني أجهدت نفسي كثيراً، ولم أئل كفايتي من النوم منذ عدة أيام، وبدأت أهذي في صحوي.

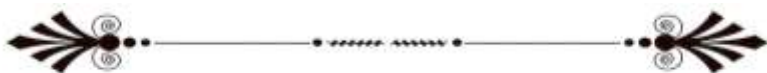
فجان قهوة يعيد إليها توازنها وصحوها، بعيداً عن كل ما يرهقها، جلست تحتسي قهوتها أمام النافذة تراقب العصافير التي تتراقص على أغصان الأشجار العارية، تبحث عن بقايا الأوراق فيها أو شيئاً من الحياة، قبل أن تغادرها وترحل إلى بلاد أكثر دفئاً.

نحن كالطيور المهاجرة لا نغادر أرضنا إلا حينما نفتقد لمقومات الحياة، لمكان يأوينا، لأمان يظلمنا تحت جناحه، لكن الطيور أفضل حال منا، تعود إلى موطنها حينما يعود الربيع، لكن أي ربيع ذاك الذي تنتظره أوطاننا حتى نعود؟ وكانت هجرتنا منه بعدما حل الربيع العربي الذي كان شتاءً قاسياً أبدياً.

تهاجر الطيور إلى أماكن تألف فيها العيش، لكننا نفني سنوات من عمرنا ونحن نحاول أن نألف العيش في الأماكن التي نأوي إليها، وحينما نعتاد أو يتراءى لنا ذلك، نعاود الهجرة من جديد.

وكأن الأرض تأبى أن نثبت فوقها، فتبقى تركل بنا حتى تدفننا داخلها، وكأنما موطننا الأصلي تحت التراب لا فوقه..

لذا نبقي نصارع بكل ما نملكه من أمل فوق الأرض لتغدو ملائمة لنا ولو قليلاً.



قطرات المطر تطرق بأناملها زجاج النافذة، ثم تسيل كأنها دموع، كانت جوليا شاردة الذهن والسكينة تحيط بها من كل جانب، إلا أن رنات هاتفها المحمول أعادت إليها صحوها وفنجان قهوتها داهمته البرودة لما تمسه بعد..

- ألو أهلاً ياسمين..

- كيف حالك يا جوليا.

- لا أعلم، ربما بخير.

دار حديث بينهما، طلبت فيه ياسمين من جوليا أن تتفقد بريدها الإلكتروني، وتحفظ بالملف الذي أرسلته لها عن طريقه، و حذرتها ألا تقوم بفتحه حتى يكون مزاجها جيداً، وتكمل فصول روايتها التي تكتبها.

فرحت جوليا لوصول الملف بعدما تفقدت بريدها الإلكتروني، ارتجفت يداها حينما قرأت العنوان "أوراق الذاكرة".

- الذاكرة، الذاكرة، وكأن الجميع لهم ثأر معها، منهم من يتذكر ومنهم من ينسى، ومنهم لا تمت الذاكرة لهم بأي صلة مثلي، ومنهم من أضنته ذكرياته فكتبها على الورق، ومنهم من آثر الصمت على البوح فكانت عبئاً عليه تقض مضجعه ليلاً ونهاراً.

ظنين رسالة مسنجر جعلها تغلق الملف قبل أن تقرأ منه سطرًا.



-عزيزتي جوليا، حاولت التواصل معك على هاتفك لكنه كان مغلقًا، ساورني القلق حيال ذلك ولم أجد طريقة للوصول إليك سوى حسابك على الفيس بوك، إن كنتِ بخير وأرجو ذلك فردي على رسالتي في أقرب وقت وطمئيني عنك وعن رامي الذي لم أستطع الوصول إليه هو الآخر، أظن بأنكما معًا.

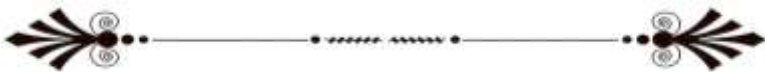
تجهيزات المعرض شارفت على الانتهاء، وراسلت العديد من الفنانين للمشاركة، المعرض سيقام في منطقة الميدان للمتاحف في أمستردام بالقرب من متحف الرسام الهولندي فينيست فان كوخ ونتوقع حضور الكثير من رواد المتحف للاطلاع على لوحات المعرض، وهذه فرصتك للمشاركة والحضور ولن يكتمل جمال المكان إلا بتواجد لوحاتك وابداعك، بانتظار ردك...

صديقك الفنان ألبرت..

-ألبرت.... يا إلهي كيف نسيته.

سارعت في الرد على رسالته، وأخبرته بأنها فقدت هاتفها المحمول في النهر، وضاعت معه أرقام الجميع، أرسلت له رقمها الجديد وطلبت منه الاتصال بها ليتحدثا.

-ألبرت لا يعرف شيئًا هو الآخر عن رامي، أين ذهب هذا الوغد، لن يستطع الغياب طويلًا، سيعود إلى هنا لا محالة، لن أفكر بك كثيرًا، عقلي لا يحتمل



التفكير بأشياء كثيرة، يكفني ما أنا فيه الآن، سأهتم بلوحاتي وهي الأهم وأجهز نفسي للسفر إلى هولندا في أقرب وقت..

دلفت إلى المرسم لتستقبلها اللوحة الغامضة بعين حزينة، واللون الأحمر الذي لطح اللوحة كأنها دماء تفجرت من رأسه..

لا أظن بأني سأشارك بهذه اللوحة المشوهة، يا لحظي السيئ كنت أظن بأنها أفضل لوحة أرسمها على الإطلاق، لكنها تشوهت ولم تعد صالحة للمشاركة. رفعت اللوحة من على المسند الخشبي ووضعتها بجانب الحائط، لكنها لم تحتمل رؤيتها كلما دخلت إلى المرسم، فقامت بتغطيتها بقماش أبيض ككفن وارت به جسد ميت..

أول مرة يرى فيها ألبرت لوحات جوليا حينما قام بزيارة رامي قبل بضعة أشهر، استدعتهم إلى بيتها لتناول عشاء خفيف ولتذيقهم كعكة التفاح التي قامت بتجربتها لأول مرة وكانت قد نالت إعجابهم كثيرًا، وحينما توجه ألبرت نحو دورة المياه، مر بجانب غرفة المرسم ولأنه رسام وله خبرة بروائح الألوان الزيتية اخترقت أنفه وكأنه يدخل إلى ركن في بيته له ذات الرائحة، فهم أن يفتح الباب لولا أن نادتهم جوليا ودعتهم لشرب الشاي على الشرفة.

-لم أكن أعلم يا جوليا بأنك رسامة.

-من أخبرك بذلك؟ استدارت نحو رامي ثم لكرته على كتفه ووجهت سؤالها له.



-أنت أخبرته أليس كذلك؟

-لا لم أخبره، لكني كنت سأفعل.

رمقته بعينيها اللتين تقدحان كزرقة البحر حينما تسقط عليه أشعة الشمس وهاجت كموجه غضبًا، وانعقد حاجباها العريضتان كغيمتين اتحدتا تنبآن بالمطر، عضت على شفتها السفلى فازدادت احمرارًا، ودفعت بظفر إبهامها بين أسنانها لتلتهمه، فسحب يدها رامي وخبأها بين كفيه ثم قال لها:

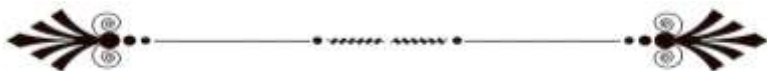
-لا يليق بجميلتي الغضب، ثم هذا الإصبع لا يحق لك أن تلتهميه، صحيح أنه كأصابع السكر المحشو بالكراميل لكنه ليس متاحًا لك، هذا فقط لي.

سحبت يدها من بين يديه وأدارت وجهها عنه موجهةً كلامها لألبيرت:
-ألبيرت أعتقد بأن رامي قد وشى لك عني، لكن لا تصدقه أنا فقط أعبت بالألوان فوق قماش أبيض لمجرد التسلية فقط ولا أعتقد بأن خردشاتي يليق بها أن تسمى رسمًا أو إبداعًا، أنا أقتل الفراغ الذي أعيشه وحسب، ورامي الفساد حسابه في وقت آخر.

ضحك رامي وألبرت معًا، وجوليا تنظر إليهما باستغراب.

-لم ألق نكتة عليكما لتضحكا، ثم لم يجبني أحدكما من أخبرك بأني أرسم؟

نهض ألبرت من مكانه وتوجه نحو الأزهار المعلقة على سور الشرفة، ثم قطف زهرة بنفسجية صغيرة وتوجه بها نحو جوليا.



- هل تعتقدين بأن هذه الزهرة لها رائحة عطرية؟
- نعم بالتأكيد وما هذا السؤال؟
- وهل تعتقدين بأن الفراشات تزور شرفتك عبثاً؟
- طبعاً لأجل الأزهار.
- وكيف تستدل عليها؟
- من رايحتها.
- هذا ما أريد الوصول إليه، الرائحة، وأنف رسام مثلي لا يُخطئ رائحة التريبونتين التي تنبعث من الغرفة المغلقة في الداخل.
- وهذه الرائحة تدل على استخدامك للألوان الزيتية، ليس لمجرد التسلية وتعبئة الفراغ، لأنه لا يقتنيها سوى فنان مبدع يجيد استخدامها، لم أر لوحاتك بعد لكني أعتقد بأنها تفوق الوصف، وسأكون سعيداً جداً إذا سمحت لي بالاطلاع عليها.
- حينما شاهد ألبرت رسومات جوليا دُهِش كثيراً لجمالها واتقانها، واقترح عليها أن تشارك هذه الرسومات في معرضه الذي سيقامه في هولندا.
- رفضت الفكرة جوليا بادئ الأمر، ثم وافقت على المشاركة حباً في المغامرة، ومنها فرصة لزيارة هولندا بلد الرسام فان كوخ الذي تعتبره جوليا قدوة لها في رسوماته وفنه وخياله.
- “ لن ينتهي هذا البؤس أبداً ”

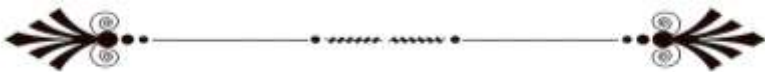


المقولة الأكثر شهرة لفان كوخ ترددها جوليا دائماً، هذا البؤس الذي يحيط بها وتلك الكآبة التي تعيشها“ ما فائدة الحياة إن لم نجرب كل شيء “وهي كذلك ستجرب وتغامر وتخرج لوحاتها للنور ليراها الناس، تحلم وترسم، لا بل ترسم كل أحلامها وتخيلاتها التي تتراءى لها دون معرفة ماهية ما تراه. خيالات من عقلها الباطن تجسده بالألوان، لتتعايش معه عليها تتذكر شيئاً من ماضيها الذي يغدو كصحراء خالية من التضاريس وحتى السراب.

“إنني أحتاج الأقارب والأصدقاء كأني شيء آخر، أحتاج الحب والوصال الحميم... لست صخرة ولست من حديد كصنبور أو عمود إنارة”

هي كذلك مثله تحتاج للعائلة للأصدقاء للانتماء، الحب لا يكفي وحده، فالإنسان هو جزء من العائلة، والعائلة شجرة ضخمة لا تساوي شيئاً دون أغصانها والغصن فيها هو الإنسان.

تتقلب على سريرها محاولة استدعاء النوم، حماسها في السفر لأول مرة لوحدها جعل حواسها جميعاً في حالة استنفار، فكيف وهي تريد السفر لأجل المشاركة في معرض الرسم، سترى الكثير من الناس وستتحدث لهم عن لوحاتها، ستشاهد لوحات الآخرين، ستقرأ ما يجول في أعماقهم منها، وهم كذلك سيقروا ما في أعماقها، أترامهم يلامسون شيئاً من خيالاتها وأحلامها التي تراها من خلال الألوان التي تبعثرها على الألواح البيضاء، أم أنهم سينظرون لها على أنها إبداع فقط وخيالات رسام لا أكثر.



تركت سريرها بعدما سئم تقلباتها، وتوجهت نحو مرسمها يقودها الشغف للعبث بالفرشاة، تلقي نظرة على اللوحات الساكنة بجوار الجدار، تقف أمام النافذة المغلقة، تزيج الستائر عن وجه الليل المظلم، تتأمل السماء الداكنة الخالية من النجوم، أشجار السرو تبدو وكأنها أشباح تتراقص على جنبات الطريق، عملاقة مهيبة لا تبدو بهذا الشكل كما في النهار، في الليل تختلف ماهية الأشياء، وكأنها تتجرد من أقنعتها التي ترتديها منذ الصباح، فتبدو واقعية أكثر، والسماء قريبة جدًا تحتضن الأرض.

“يكفي أن الليل ليس أبيضًا” تحدث جوليا لنفسها.

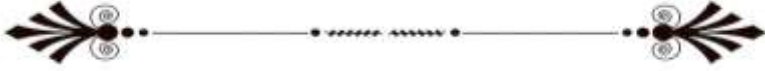
مسكت فرشاتها وبدأت ترسم، رسمت الليل بظلامه مع وجه حزين يتجلى من ضوء القمر، طائر بجناح مكسور يقف على غصن شجرة باسقة، تداخلت ألوان اللوحة بين الرمادي والأسود والأزرق والبنفسجي، والطائر بلون ذهبي يصدر النور من حوله.

ذهبت إلى سريرها في الرابعة فجرًا بعدما استنزفت كل طاقتها في البقاء مستيقظة وأعيائها النعاس، فاستقبلها السرير منهكة ورحلت إلى عالم الأحلام على الفور.

صداع يلازمها بعد الاستيقاظ، استبدلت فنجان القهوة بكوب عصير ليمون، الوقت يقارب الثانية ظهرًا، والمطر ينسكب بجنون على الأرض، تركل الأشياء بقدمها لا تدري ما تفعل، الوحدة وحش بأذرع طويلة تلفها من كل جانب وتحكم بقبضتها على عنقها، لوحاتها البكماء لم تعد تؤنسها، فقد



رسمت الكثير منها، وماتزال صامته بجانب الجدران دون حراك، لم توقظها
من نومها كما كان يفعل رامي، ولا تصنع لها القهوة أو الفطور، لا تثرثر ولا
تلقى النكات حتى تضحك، ولا تخرج معها وتمشي تحت المطر.
متى يحين وقت السفر حتى تواجه العالم وترى الناس؟
أخرجت مفكرتها التي اعتادت أن تدون فيها كل شيء، وعادت للوراء لتقرأ
ذكرياتها مع رامي.



(3)

مذكرة رقم 2
12 تموز 2016.

- متى ستتوقفين عن تناول السكر؟

- وما شأنك؟

- تهمني صحتك.

- أنت قلتها صحي وليست صحتك، ارح نفسك ولا تدخل بشيء ليس لك.

سحب كيس السكاكر من يدي ورماه من النافذة، وأنا أحاول أن أمنعه كطفلة، أمسك بيدي وأعادني إلى مكاني على الأريكة، ثم جلس القرفصاء قبالي:

- أنا لا أ تدخل بأشياء لا تخصني حقاً، ولكن حينما يتعلق الأمر بك، فهو يخصني بالتأكيد، لا أريد أن أسمعها منك مرة أخرى.

كان ينظر إليّ بعينيه البنيتين كحبات البن، الواسعتين كنافذتين تطلان على حقول لا نهاية لها، شعره الذي يتركه طويلاً حتى كتفيه، كانت تتمرد منه خصلات تلامس جبينه وتكاد تلثم عينيه، تعجبني تفاصيله التي استغل مثل هذه اللحظات وأتأملها وهو يتوسل إلي للاعتناء بنفسه.

- سأترك السكاكر ولكن بشرط.



هَبَّ واقفًا وجلس بجاني ولف ذراعه حولي، كان يحيط بي كصرح شامخ
كتفاه العريضان كانتا كفيلتين لأن أضع رأسي على أحدهما وأضع في
دفع صدره.

- أنت لا تتركين شيء إلا مقابل شيء آخر تفضلي ما طلبك.

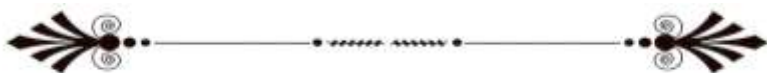
- أريد طائرًا صغيرًا.

- سيكون لك ما تريد وحالًا، هيا بنا للذهاب إلى متجر الطيور.

سحبني من يدي ولم يترك لي مجالًا لأكمل طلباتي أو حتى أن أبدل ثيابي،
فتح باب سيارته ودفع بي إلى الداخل، ركب بجاني وأدار المقود وانطلق بي
متوجهًا إلى وسط المدينة.

أدار مفتاح مذياع السيارة ورفع الصوت إلى آخره، اختار أغنية لجاستن
بببر مغني الراب المفضل لديه، كان يرقص ويغني وهو يقود، كنت أنظر إليه
بذهول، ضاحكة على جنونه، يرفع صوته موجهًا كلامه لي كلما قال المغني
"love me".

في متجر الطيور شعرت وكأنني دخلت إلى عالم آخر، طيور ملونة من جميع
الأنواع كلها محبوسة في أقفاص، تغرد بأصوات مختلفة وألحان جميلة، رغم
سجنها إلا أنها تبدو مبتهجة، لديها ما تحتاجه من طعام وشراب فما الذي
يزعجها في وجودها في أماكن كهذه، أيعقل أن نقبل بالقيود مقابل أن
يتوفر لنا ما يبقينا على قيد الحياة، دون الاهتمام بحقوقنا الأخرى، وأهم حق
هذه المخلوقات هو الطيران، وقد خلقت لأجله.



خيّل إلي لو أُنِي فتحت الأبواب جميعاً كيف ستترك كل شيء وتفرّد أجنحتها وتطير، تخلق في السماء، وتبني أعشاشها على الأغصان بدل هذه البيوت الخشبية الصغيرة الملتصقة بالأقفاس، وتملأ الدنيا أهازيجاً وألحاناً.

أعجبتني الفكرة واقتربت من أحدها، كانت طيورٌ تشبه الببغاوات الصغيرة، صفراء وخضراء ومنقطة، عندما لاحظت اقتراي منها هاجت وابتعدت والتصقت بالقضبان، نظرت نحو رامي لأجده مشغولاً مع صاحب المتجر في الحديث عن أحد أنواع الطيور، فتحت باب القفص وكنت بانتظار خروج كل من فيه دفعة واحد، خيّل إلي أنها تتدافع لتخرج وتصطدم ببعضها البعض وتخلق في السماء وتملؤها ألوان، لكن ما حدث كان عكس تخيلائي وتوقعاتي، ظلت الطيور مكانها ثابتة لا تتحرك، لم يغيرها منظر الباب المفتوح، البعض منها هربت إلى البيوت الخشبية الصغيرة والتي تضع فيها بيوضها، والبعض الآخر توجهت إلى أماكن الطعام غير مبالية، إلا عصفور واحد بلون ذهبي ظل مشدوهاً شاخصاً بصره نحو السماء، اقترب نحو الباب محاولاً استكشاف الأمر، وكأنه غير مصدق بأن الحرية باتت بين يديه، “هيا يا صغيري حلق، دع رفاقك يرون كيف تكون الحرية، لربما إن فعلتها يلحق الجميع بك، هيا لا تخف”

رفرف الطائر بجناحيه وخرج من القفص، كدت أصرخ فرحاً لكنه حط على كتفي، فصرخت خوفاً.



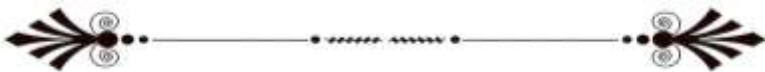
هرع رامي وصاحب المتجر نحوي والأخير يضحك ويصفق، أمسك الطائر وأعادته إلى القفص ثم أغلق الباب.

- ما الذي فعلتيه يا مجنونة، كيف تتركين باب القفص مفتوحًا هكذا، تخيلي لو طارت جميعها سأدفع ثمنها للرجل، ليس ذلك وحسب لن نعود إلى البيت ومعنا الطائر الذي تريدين، ولن تستطيع هذه الطيور العيش في الخارج ستموت جوعًا وبردًا.

- أليس مكانها الطبيعي على الأشجار، لماذا تمتلك أجنحة إذن، أليست لأن تحلق بها عاليًا، ما الفائدة منها وهي محجوزة في هذه الأقفاص، لماذا تورثها لأبنائها وليس لهم الحق في استخدامها، لماذا تورثهم العبودية هكذا، ما ذنبهم حتى يولدوا في أقفاص ويعتادوا على الأسر.

- صغيرتي ذات القلب الرقيق، ما الذي جاء بنا إلى هنا، ألم نأتِ لشراء طائر جميل، وكنت ستضعيه في قفص أيضًا، ما الذي جعلك تنظرين للأمر على أنه أسر وما شابه، هذه الطيور سعيدة في منزلها هذا، ماذا تريد من هذه الدنيا سوى أن تأكل وتشرب، ومكان آمن، وكله متوفر لها هنا، بالعكس هي ممتنة للبشر كثيرًا.

عدنا إلى البيت ومعى الطائر الأصفر الذي تجرأ وخرج من قفصه، لكنه لم يكن يملك الجرأة الكافية للتحليق بعيدًا فحط على كتفي، لكن يكفيه شرف المحاولة بأنه خرج من سجنه ولم يهرب كباقي أقرانه.



أغلقت جوليا المفكرة وتوجهت نحو قفص العصفور الفارغ تتلمس قضبانه وتذكر الطائر الذي أطلقت عليه اسم غولدن وكيف حلق عاليًا في السماء وحصل على حريته أخيرًا، لم تستطع أن تغلق باب القفص عليه كما كان معتادًا في المتجر، بل تركته يتحرك بحرية داخل القفص وخارجه حتى قرر التحليق والعودة إلى أحضان الطبيعة.

اشتقت إليه الآن كما تشتاق لرامي، فقد كان وجوده يؤنسها، افتقدت لصوت غنائه صباحًا، ولرفرفة جناحيه حولها، باتت تفتقد لكل شيء يذكرها برامي، ولو كانت ذاكرتها لا تسعفها كثيرًا، إلا أن هذه المفكرة كفيلة لأن تجعل الذكريات تصحو من جديد.



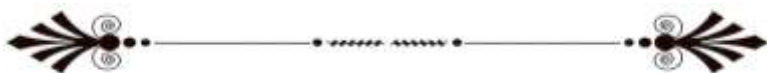
(4)

لقد حان وقت السفر، الرحلة التي ستغامر فيها جوليا إلى بلد جديد ولوحدها هذه المرة، وضبت حقائبها وجمعت رسوماتها التي ستشارك بها في المعرض، الحماس يجعل منها كتلة من توتر، ودقات قلبها لا تهدأ، الليلة التي سبقت موعد السفر كانت عاصفةً، الهواء كمارد غاضب ينفخ ببوقه حتى ترتعد الأشجار والنوافذ، المطر يهطل بجنون، وصوت الرعد كانفجارت تهز الأرض، تكورت على نفسها تحت أغطيتها في السرير، تريد لليل أن ينقضي ويأتي الصباح، تكات الساعة تضرب في رأسها ثقيلةً بطيئةً لا يمر الزمن، تتقلب في فراشها تحاول استدعاء النوم لكنه يرفض الحضور، ظلت على تلك الحال ساعات عدة، حتى فُتحت النافذة بفعل الريح على مصراعها، تراءت لها فتاة تشبهها تطل برأسها من النافذة وتدعوها للاقترب، نهضت من سريرها وانكشمت على نفسها تراقب الفتاة بهلع، اختفت الفتاة للحظة ثم عادت بهيئة مختلفة، الدماء تلمخ يديها، ومازالت تدعوها للاقترب، حاولت النهوض من السرير والسير نحو النافذة، إلا أن صوتًا من الخلف همس لها:

-لا تقتربي من النافذة، الاقتراب من النوافذ يجعلك ترين أشياء لا تسرك.

انتفضت ونظرت إلى الخلف فلم تجد أحدًا.

أعادت النظر إلى النافذة فلم تجد الفتاة، التفتت حولها حتى وقع ناظرها على السرير، حيث كانت الفتاة متكورة على نفسها تن، انخلع قلبها رعبًا،



وكادت تصرخ، إلا أن الفتاة نظرت إليها بعيون حزينة، كشفت لها عن ساقها لترى فيها ندوبًا كثيرة، الدماء بدأت تلتطخ السرير تحتها وكأن الفتاة تنزف، تجمدت جوليا مكانها هلعًا، ولم تعد تعلم إلى أين ستهرب، وما الذي ستفعله، نطقت شفتاها عن عبث بصوت مرتجف:

- من أنت، وما الذي فعل بك هكذا؟

- أنا الماضي الذي تبحثين عنه.

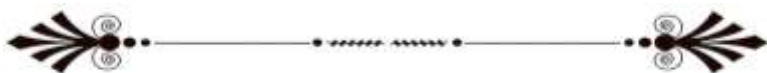
ارتجفت جوليا، وهبوب الريح ازداد في الخارج، حتى وكأن العاصفة قد دخلت بكلّها إلى الغرفة، ضباب كثيف حال بينهما، تبدلت ملامح المكان، صوت صفير الريح يعلو، سقطت جوليا على الأرض، فانتفضت من مكانها لتجد نفسها على السرير، العرق يتصبب من رأسها، النافذة مغلقة، والعاصفة قد هدأت في الخارج، غيوم كثيفة قد حجبت أشعة الشمس ووارت خلفها الشروق، لكن ضوءها منح الكون نورًا ليعلن عن انبلاج الصباح.

تنهدت جوليا ونهضت من سريرها مسرعة بعدما شاهدت بأن الساعة تشير إلى اقتراب موعد الطائفة، أدركت بأن ما رآته لم يكن سوى حلمًا راودها حينما اختطفها النوم بعد محاولاتها الحثيثة لاستدعائه، (حلم للمرة الثانية أنذكره، يا إلهي)، ربما كان ذلك مؤشرًا جيدًا لقدرة جوليا على التذكر، كانت سعيدة لأجل ذلك لكنها توجست خيفةً من ذاك الحلم، (لماذا لا أتذكر سوى الكوابيس، وهل الماضي الذي تحدثت عنه الفتاة بهذا



السوء حتى كانت ملطخةً بالدماء؟، إن كانت هذه هي الذكريات التي أبحث عنها فلا أريد تذكرها).

في مطار فرانكفورت، شعرت بنفسها تائهةً تحت سقفه الضخم، والتي تُرى السماء من خلاله، القاعة الواسعة التي تعج بالمسافرين كلُّ يجرُّ حقائبه مسرعًا نحو الداخل، لحقت بمجموعة منهم كي تستدل طريقها، قرأت على اللوحة الإلكترونية الكبيرة موعد الرحلة إلى امستردام والقاعة التي يجب التوجه إليها، حاولت الإسراع كي لا تتأخر عن رحلتها، مستعينة بالإشارات والرموز على اللوحات، وإن تاهت كانت تسأل أحد المسافرين لتكمل طريقها والإجراءات الروتينية، حتى وجدت نفسها أخيرًا في الطائرة، قبل دقائق قليلة من إقلاعها، استرخت على الكرسي بالقرب من النافذة المدورة، تنفست الصعداء وكأنها كانت في سباق ماراتون، وحينما أقلعت الطائرة تشبثت بالكرسي، شعرت بجاذبية تشدها إلى الأسفل، حتى علقت الطائرة بين السماء والأرض، شعور مهيب وهي تتأمل فرانكفورت من الأعلى، كلوحة فنية مرسومة، كل شيء كان يصغر البيوت والأشجار وحتى الطرقات، أخرجت مفكرتها من حقيبتها اليدوية لتسلي نفسها وتكتب أحداث يومها، ساعة وبضع دقائق تفصلها عن الوصول إلى وجهتها، كانت تتأمل وجوه الركاب، تبحث بين وجوههم عن ملامح تأنس بها، الكل مشغول بنفسه، البعض منهم قد أغمض عينيه واستسلم لهددة الطائرة وغرق في أحلامه، شعور بأن أحدًا ما ينظر إليها من الخلف جعلها تلتفت إلى الوراء



إلى أقصى يمينها، فوقعت عينيها في عينين شاب يحرق بها، هربت بعينيها إلى الأمام مستغربة من نظرات الشاب، عاودت الالتفات باتجاهه فوجدته ما يزال مركزًا باتجاهها، ينظر إليها بغرابة، وكأن لعينيه أفواه يريد أن ينطق بها، حاولت تجاهله واعتبرت الأمر عرضيًا، كنظرات أي معاكس في الطريق.

أغمضت عينيها لتجعل الزمن يمضي دون أن تشعر بالمسافة، ولو أن النظر من نافذة الطائرة أكثر متعة وتسلية، الغيوم البيضاء كغزل بنات يحلق في السماء، كقطن أبيض، كفراء أرنب صغير كذاك الذي كانت تربيته جوليا العام الفائت، وكان هدية من رامي بعد أن افتقدت للطائر الأصفر، فاجأها به في يوم صيفي جميل، كان يضعه في صندوق مربوط بشريط أحمر ثم قدمه لها، فتحت الصندوق بحماس فشاهدت كائنًا صغيرًا لطيفًا بلون أبيض وعينين حمراوين، انتفضت لرؤيته خوفًا، لأنها تهاب البياض، وبعد محاولات رامي لأن تعتاد عليه وعلى لونه أحبته وجعلته يرافقها كلما خرجت في نزهة إلى الحدائق بعدما أحاطت عنقه بالشريط الأحمر لتكسر البياض الساطع الذي كان يتمتع به، وذات يوم جعلت فروه مرسومًا لها.

قفزت من نافذة الطائرة بيدها ريشة ألوان وبدأت تلون الغيوم وتقفز من غيمة لأخرى، تفاجأت بالشاب الذي كان ينظر إليها يقف على إحدى الغيمات، يلوح بيده لها ويناديها باسم آخر، الغيمة تحتها تلاشت حتى هوت في السماء، صرخت فوجدت نفسها على الكرسي في الطائرة وصوت نسوي



يعلن بضرورة ربط الأحزمة لأن الطائرة تستعد للهبوط في مطار امستردام.

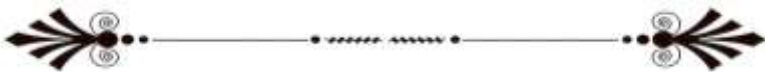
في المطار استلمت حقائبها وحاولت الاتصال بالبيرت الذي كان بانتظارها في قاعة الاستقبال، انتهت من إجراءات الدخول وهمت للذهاب، فاصطدم ناظرها بالشاب يقف أمامها مبتسمًا لها، تحدث معها باللغة الانكليزية، معتذرًا على تطفله، فأجابته باللغة العربية دون شعور بأن لا وقت لديها وفي عجلة من أمرها، ما جعل الشاب يوقفها ملحًا متحدثًا بالعربية هو الآخر:

- لا أريد أن آخذ من وقتك، ولكن أعتقد بأنني أعرفك، أو تشبهين أحدًا أعرفه.

ظنت جوليا بأنه أسلوب ليتبادل الحديث معها، ولكن حديثه بلغتها الأم جعلها تقف بعدما ابتعدت عنه بضع خطوات، استدارت نحوه وقالت له:

- اسمي جوليا، وأنا رسامة وفي طريقي للمشاركة في معرض الرسم، لي صديق هولندي بانتظاري، ما الذي تريد أن تعرفه أكثر؟

تردد الشاب حينما سمع كلامها، كان ينظر إليها وكأنه يؤكد لنفسه بأنه يعرفها جيدًا، الملامح ذاتها ونبرة الصوت، لكن هيئتها وثيابها مختلفة كثيرة، ومع هذا لم يثنه ذلك عن طلب رقم هاتفها واللقاء بها في وقت آخر. التقت بالبيرت وصعدت بجانبه إلى السيارة، وهي تفكر بذلك الشاب، صدام أصابها وضيق تنفس جعلها تفتح النافذة التي سمحت للهواء البارد أن يلثم



وجنتيها، أغلق ألبرت النافذة وهو يخبرها بأن البرد سيمرضها ولا وقت لأن يحدث لها أي شيء الآن، الناس بانتظارها في المعرض وعليها أن تكون في كامل نشاطها.

- حجت لك في فندق قريب من متحف فان كوخ، ستنايلن قسطن من الراحة وكأس ليمون سيفي بالغرض.

هزت برأسها جوليا، وتعلقت عينها ببلور النافذة، لم تكن تشاهد الشوارع والأبنية بل كان ذهنها شاردًا في ذلك الشاب، ماذا لو كان خارجًا من ماضيها الذي تبحث عنه؟

- ألم يصلك أي خبر عن رامي؟
- لا.

- أشعر بأنك غير مهتمة للأمر.

- لا يهم هو من اختار ذلك، لكنني أتمنى أن لا يكون قد مسه سوء.

- لا تقلقي هو بخير، انتبه ألبرت على نفسه والكلمات التي كاد يزلق بها فأدار مقود الحديث كما يدير مقود السيارة:

- خشيت عليك من الطريق، لأنها أول مرة تسافرين بها وحدك.

- غياب رامي فادني للاعتماد على نفسي.

- جميل، جميل، متحمس جدًا للمعرض، ستزين أشياء تسرك.

- وأنا كذلك.

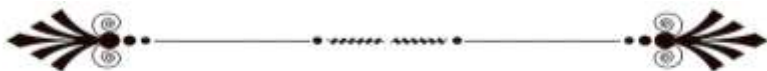


في غرفة الفندق تمددت على السرير، اتصال هاتفي كسر صمت الغرفة، كانت ياسمين تتفقد أحوالها وتبشرها بإنهاء أول عمل روائي لها، فرحت جوليا لهذا الخبر وهنأتها على ذلك وأخبرتها بأنها ستكون أول القارئین له.
- الرواية مستوحاة من قصة واقعية، أعتقد بأنها ستنال إعجاب الكثيرين، تعلم هاجر بأني كتبت قصتها بعد تلك المحادثات بيني وبينها وقراءة مذكراتها، ولكن لا بد من أخذ إذنها قبل نشرها.

- يزداد شوقي في كل يوم لمعرفة قصتها والتعرف عليها.
- أتمنى ذلك فأنا لم ألتق بها حتى اللحظة، لكنها قررت أخيراً السفر إلى ألمانيا فقد أتاحت لها الفرصة لذلك عن طريق منظمنا، حدثتها عنك وأخبرتني بأن لها رغبة في لقاءك حين وصولها لهذا زودتها برقمك، ربما يكون سفرها خلال هذين اليومين، لقد تغيرت نفسيتها كثيراً بعد أحاديثنا المطولة، وكتابتها لمذكراتها، ومساعدتها لي في إحصاء أسماء معتقلات كثيرات، تتوارى خلف شخصية واسم آخر، لكن في المذكرات كتبت كل شيء، لهذا ترفض نشرها.

- ليتني أعلم بقصتي كاملة لجعلتك تكتبينها وليعلم بها الجميع، لكل منا حياة تستحق أن تكون في رواية ما، منذ خروجي من البحر وحتى الآن مررت بأحداث كثيرة، تذكرني بها مفكرتي، ربما أودعتها عندك يوماً ما، لتكتبني عنها شيئاً.

- بالتأكيد سأفعل، بالمناسبة هل قرأت الملف الذي أرسلته لك؟



- لا أتذكر أساسًا بأنك أرسلت لي شيئًا.
- ضحكت ياسمين وجوليا معًا.
- لا بأس هذا جيد، لأن الملف كان به بعض المقتطفات عن حياة هاجر، ستقرئين الرواية كاملة.
- لم أحرق عليَّ الأحداث إذن.
- طبعًا لم تفعل، نسيانك مفيد في بعض الأحيان.
- النسيان نعمة، ولكن لو نستطيع اختيار الأشياء التي نريد نسيانها، ونحتفظ فقط بما نريد له أن يعلق في الذاكرة.
- بغض النظر عن حالتك، الأشياء الأكثر ألمًا تبقى عالقة في سرايب الذاكرة، تغطي على كل الذكريات الجميلة، فنحن كما قال الرافي حينما نحزن نستدعي أحزاننا جميعًا وكأن حزنًا واحدًا لا يكفي.
- في الآونة الأخيرة بدأت أرى أحلامًا مزعجة أظن أنها شيئًا من رواسب الماضي، كنت أنسى أي شيء أراه في الحلم ولكني بتّ أتذكر في حال استيقاظي، وأكتب ما أراه في مفكرتي.
- مؤشر جيد، ربما تصحو ذاكرتك يومًا من سباتها.
- أتصدقين، أخشى استيقاظها، لأنني لن أجد أحدًا من عائلتي.
- دعيها تستيقظ وأنا سأقوم بمهمة البحث عن أسرتك، لا تقلقي.



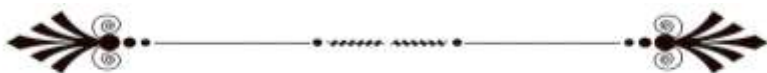
- أتمنى ذلك، أشكرك من أعماق قلبي يا ياسمين، ليتك هنا لتحضري المعرض الذي سأشارك فيه برسوماتي، أشعر بحماس كبير ورعب، مشاعر متضاربة لا أعلم.

- كوني قوية وواثقة من نفسك، وفخورة بهذا الانجاز، النساء هنا يتمنين أن يفعلن شيئاً، الكثير من العوائق تقف أمام أحلامهن، الحديث يطول بهذا الأمر، على كل حال زوديني بالصور، ربما أكتب عنك في الصحيفة وأعمل لك إعلاناً، نحن نفخر بإنجازات أبنائنا في الغربية.

- بالتأكيد يا صديقتي، بئ الآن أكثر حماساً، سعيدة بك يا عزيزتي. أنهت جوليا الاتصال بعد حديث مطول مع ياسمين، توارت تحت غطائها وهي تفكر بالمعرض، طنين رسالة على برنامج الواتس أب قطعت أفكارها، كانت من رقم غريب مرسلاً لها، (مرحباً أنا الشاب الذي التقيتك في المطار، هل بإمكاننا التحدث؟).

قرأت الرسالة من ستارة الهاتف ثم أغلقته، ترددت في الإجابة عليه، أعادت فتح الهاتف مرات عدة ثم أغلقته، أرسل لها برسالة أخرى، (أنا طبيب سوري، كنت قد جئت إلى هنا منذ عامين، منذ رأيتك شعرت بأني أعرفك من قبل، ربما أكون مخطئاً وأعلم بأن الله خلق من الأشباه أربعين، لكني أريد أن أقطع الشك باليقين، إن لم أكن أزعجك).

فتحت الهاتف وقرأت الرسائل، تأملت صورته التي كان يضعها في ملف تعريفه على برنامج الواتس أب، شعرت بدوار في رأسها وصداع، لم تشعر



بأنها تستطيع الحديث معه، فكتبت له بشكل مختصر (أنت مدعو للحضور إلى معرض الرسم، ربما تتعرف علي هناك، وأعتذر منك الآن لأني متعبة نتحدث لاحقاً إلى اللقاء).

أغلقت الهاتف على عجل وأطفأت الانترنت قبل أن يرد برسالة على كلامها، خبأت رأسها تحت الغطاء وأغمضت عينيها، شعور غريب يختلجها، أسئلة تراودها عن حقيقة الشاب، لأول مرة تشعر بأنها تهرب من معرفة ماضيها، أيعقل أن يكون من عائلتها، ولماذا تتهرب من الحديث معه، ربما يكون معاكساً لا أكثر لماذا تهتم كثيراً للأمر، طردت كل الأفكار من رأسها دقائق واستسلمت للنوم.

الشمس تلح على الإشراق، ورنات هاتفها كذلك، كان ألبرت يريد منها أن تستعد للجولة الصباحية في ميدان المتاحف، ويعرفها على الأماكن.

- أريد أن أتناول فطوري وأشرب القهوة أولاً.

- ستشربين أفضل فنجان قهوة هنا أعدك، لا تتأخري.

وقفت تتأمل الغرفة من حولها، والنوافذ الكبيرة التي تطل على منظر جميل يستلهم الأفكار للرسم والتأمل والخلوة مع النفس، لكن الرسائل المتواصلة من ألبرت يحثها على الإسراع، جعلتها تجهز نفسها وتؤجل التأمل إلى وقت آخر.

امستردام، مدينة الأحلام، ساحة كبيرة خضراء تحيط بها المتاحف من كل جانب، وكأنها مدينة ديزني خرجت من عالم آخر، شعرت بنفسها أميرة من

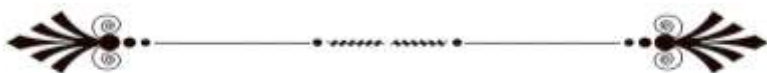


حكايات ألف ليلة وليلة، تتجول في الساحة تتقدم نحو متحف فان كوخ لتكتشف سحر ما في الداخل.

قطعا تذكرتين في مكتب الاستقبال وولجا إلى الداخل، كانت لوحات الفنان تملأ الجدران من كل جانب، لكل لوحة حكاية، وكأنه خلّد ذاكرته هنا، بدءًا من حياته في الريف، إلى دخوله المصح، طوال حياته لم تلق لوحاته رواجًا، فعاش فقيرًا وأصيب باضطرابات نفسية انتحر على إثرها، لتباع لوحاته بعد انتحاره بملايين الدولارات، رسائله التي خطها بيده معروضة في المتحف، كان كتلة من بؤس يتحرك، يخلق ألوانًا جديدة للطبيعة، غير تلك الألوان التي يراها حزينة، يقول:

(كل الأشياء تغدو باردة وباهتة بعدما يطوها الزمن، ماذا أصنع؟ أريد ان أبتكر خطوطًا وألوانًا جديدة غير تلك التي يتعثّر بصرنا بها كل يوم، كل الألوان القديمة لها بريق حزين في قلبي، هل هي كذلك؟ أم أن عيني مريضتين).

نرى الأشياء انعكاسًا لما في داخلنا، لا ذنب للطبيعة في ذلك، لو حصل فان كوخ على تلك الشهرة قبل موته وعاش غناه سعيدًا، لما رسم لنا تلك اللوحات البائسة، في بعض الأحيان يكون الحزن مولدًا للإبداع، كطريقة للتعبير عن مكامن النفس، لو عدنا لحياة كل فنان وأديب على مر الزمن، لرأينا البؤس والحزن يتجلى واضحًا في أعماله، وكلُّ قد عاش حياته بطريقة أشد صعوبة من غيره، الفقر ليس السبب الوحيد للبؤس فكثيرون عاشوا



الأسى على الرغم من توفر الأموال لديهم، فقد تعرضوا لتجارب وقفوا أمامها حائرين، وحاولوا التخلص منها في سلام، كما كتب رجاء النقاش في مقدمة كتابه تأملات في الإنسان.

(كيف يعيش الإنسان في سلام مع نفسه، وفي سلام مع الناس؟ ما الطريق إلى ذلك، وما العقبات التي تقف في الطريق؟ وكيف يتصرف المهزومون في معركة الحياة، وكيف يتصرف المنتصرون، ما الأمل...وما التفاؤل ما التشاؤم، ما الأسى...ما الفرح؟)

كل تلك الأسئلة أجاب عنها في كتابه، من خلال عرضه للحياة النفسية لكبار الشخصيات، مثل تولستوي وتشيكوف، وسقراط الذي كان أبوه يعتبره عارًا بسبب قباحة شكله، فعمل واجتهد حتى أصبح الممع اسم في العائلة وكلها باتت منسوبة إليه، (فالحياة لا تعطي سرها وسعادتها بسهولة لأحد، وعلى الإنسان أن ينظر إلى حياته على أنها مشروع، يجب أن يعمل على تحقيقه وتنفيذه.) من كتاب تأملات في الإنسان

أنهت جوليا جولتها في متحف فان كوخ برفقة ألبرت، وقد ذهلت كثيرًا من إبداعه ولوحاته، وتعلمت أشياء جديدة، قصة حياته التي لامستها من خلال رسوماته وكتاباتاته ولدت لديها حافزًا كبيرًا للعمل والنجاح، والتعبير عن مكان النفس بالرسم، وألا يشكل فقدانها لذاكرتها أي عائق، وربما كان الفن سببًا لإعادتها لذكرياتها الكامنة.



أطلعها على الزاوية التي سيقمون فيها معرضهم، والتجهيزات الأولية لذلك، شاهدت لوحاتها مركونة بانتظار أن تعلق على الجدران، وتصبح محط أنظار الزوار.

زارت المتاحف المجاورة الأخرى، ونهلت من ينابيع الفن حتى الثمالة، من رسم وموسيقى، والكتب لم تكن أقل شأنًا لمصادر الثقافة، فعاهدت نفسها أن تكرّس حياتها للفن والكتب، وألا تدع الوحدة تشكل عائقًا لها بل دافعًا للنجاح.

عادت إلى غرفتها في الفندق مساءً، متعبة سعيدة، تشعر بنشوة لم تشعر بها من قبل، وكأنها كانت في حلم اسطوري، لم يفتها أن تقوم بتصوير كل شيء تراه بواسطة هاتفها المحمول، ومفكرتها التي رافقتها ودوّنت فيها تفاصيل الأشياء، لتحتفظ بذكرى ذلك اليوم وتستحضره كلما أرادت.

بعد حمام دافئ طلبت من نادل الفندق كوبًا من الزنجبيل والليمون والعسل، بدلًا من المنبهات التي تجعلها قلقة طوال الليل، فأحضره لها خلال دقائق، فتحت جهازها المحمول وبدأت تتفقد بريدها الإلكتروني، وجدت رسالة من ياسمين أرسلت لها فيها ملف روايتها التي أنهتها، وطلبت منها أن تطلع عليها بعد الانتهاء من المعرض، كان العنوان ملفتًا (الذاكرة المنسية) شدّها فضولها لتفتح الملف وتبدأ في القراءة، لم تستطع تأجيله لما بعد المعرض، وكأن كلماته تدعوها لأن تغوص فيها في ذاكرتها المنسية.

الفصل الثاني

(1)

10 نيسان 2011..

انتهت أجواء الحفلة الصاخبة، في ليلة اكتست سماؤها عباءة سوداء وتكللت بالنجوم، كالفستان الذي كنت أرتديه في تلك الليلة الاستثنائية، مزينٌ بالدانتيل ذو أكمام طويلة.

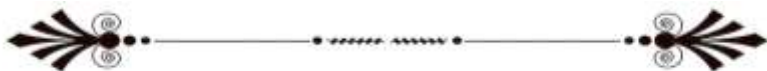
وقفت أمام مرآتي أتفقد زيني، خلعت الأقراط ودلكت بأصابعي شحمتي أذني لأزيل الألم والاحتقان الذي ترك أثراً حمراً عليها، لطالما لم أطق وضعها، ولم أكن كالفتيات أحبذ ارتدائها، لكنها ليلة استثنائية كنت أنتظرها منذ ثلاث سنوات، ليضع أسامة خاتمه في إصبعي، ويغدو خطيبي على سنة الله ورسوله.

تلقفت حجاباً من على المشجب ووضعتَه على رأسي كيفما اتفق ودلفت إلى الصالة قاصدةً الشرفة حيث وقف أسامة متأملاً سماء المدينة وأضواءها المتلألئة كمجرة تناثرت كواكبها على الأرض، وحينما شعر بوجودي التفت إلي بابتسامته، وقد نفت آخر سحبة من سيجارته فحال بين وجهينا الدخان.

- لا أريد أن يحول بيننا أي شيء منذ الآن فصاعداً ولو كان دخاناً.



ضحك أسامة واقترَب مني ممسكاً يدي ثم قال:
- لن يبعدني عنك أي شيء أميرتي الجميلة، لقد بدوتِ كالأميرات في الحفل،
الفرسان الأسود يليق بك كثيراً، بدوتِ وكأنكِ قمرٌ في ليلة التمام.
انتفض قلبي خجلاً دافعاً الدم إلى وجنتي فاحمرّت، أشحت بنظري عنه، فلم
أعد أملك القوة لأن أنظر في عينيه وهما تلتهمان ملامحي، تظاهرت بأني
أثبت حجابي بيدي عند عنقي ثم قلت له:
- لقد كانت أُمّي تعارض ارتدائي للون الأسود في يوم خطبتي، تعلم ما تقوله
النسوة عن الفال وما شابه وخرافات الجدّات، أرادت أن أنتقي فستاناً بالألوان
زاهية، لكنني لم أحبذ أيّاً منها.
- كلُّ ما ترتديه يتجمل بك، أنتِ من يمنح الألوان جمالها وزهوها، وبرأيي
يكفي ما تمنحه وجنتيك من زهور حمراء، وخضرة عينيك كغابات أضيع
فيها ولا أرغب في النجاة، وبياض بشرتك يمنحني نوراً...و..و.
وضعت يدي على فمه دون شعوري لا يكمل غزله، استدرت وتوجّهت نحو
الطاولة وسط الشرفة، أزحت كرسيّاً وجلست عليه، وجلس قبالي أسامة
وهو يتأملني مبتسماً.
- ما عهدتك تُجيدُ الغزل هكذا.
- كيف لا، وخطيبتي أجمل فتيات المدينة، والآن أنتِ حلالي، لم الصمت
إذن؟



أمسك بيديّ فوق الطاولة، ثم أردف قائلاً:
-الصمت يقتل الحبَّ يا مريم، لا أريد أن أُخفي ما بداخلي وما أود قوله لك،
الكلمات تموت إن لم نبج بها، ليس كما كانوا يقولون لنا ويخدعوننا لئُجبر
على السكوت، الصمت سُمُّ العلاقات الخفي، يقتل المشاعر ويطفئ الروح، ما
حاجتي للحب إن لم أبح بكل ما يجول في خلدي لمن أحب؟
وفي المقابل أريد منك ألا تُخفي عني أي شعور، حتى ولو كان ما يزعجك
مني، لا تكتم شيئاً في قلبك، مفهوم!
أطال النظر في عينيّ، يريد مني كلاماً، لكنني اكتفيت بالابتسام وقد دمعت
عيناى فرحاً.

لم أكن أستطع التعبير عن فرحي إلا بالدموع، وعن حزني إلا بالصمت..
كنت قد أنهيت دراستي في كلية الحقوق منذ أشهر، وأقوم بالتدريب في
مكتب محامٍ متمرس وسط المدينة، وأسامة قد تخرج من كلية الطب ويطمح
في المزيد من العلم والترقي في المعرفة، تقدم لنيل شهادة الماجستير في جامعة
دمشق وتم قبوله بعد أن أنهى سنوات الاختصاص في علم النفس.
كسر صمتنا صوت والدتي وهي تنادي عليّ لجلب القهوة من المطبخ بعد أن
جهزتها لنا، وكانت قد فرغت الصالة من الضيوف وأهل أسامة، ليبقى وحده
مكملاً سهرته معي كما اقتضت العادات في بلدنا.



سحبت يديّ ومسحت دموعي وذهبت إلى المطبخ، كانت والدي ترتب الصحون والكاسات في أماكنها، وحينما رأني اقتربت منها خبأتني في حضنها.

-لا أريد أن أبكي يا أمي ستخرب زينتي.

-أبعد الله عنك كل حزن يا ابنتي وليبارك لك في حياتك إن شاء الله.

-أكثر لي من هذه الدعوات يا أمي.

قبلتُ رأس والدي، حملت صينية القهوة وقبل خروجي قلت لها:

-دعي عنك الترتيب الآن، وتعال شاركيينا القهوة.

-لا يا ابنتي أريد أن أذهب إلى غرفة الضيوف حيث والدك، لأرى ما يريد.

جففت يديها بمنديل ثم أردفت:

-أختك نور ستتابع الترتيب بعد أن تنهي عملها في الصالة، وأخوك جهاد

سيعود بعد قليل، خرج ليوصل خالتك إلى بيتها.

-حسناً أمي كما تشائين، لكن أردت أن يشاركني أحد سهرتنا أشعر

بالخجل معه.

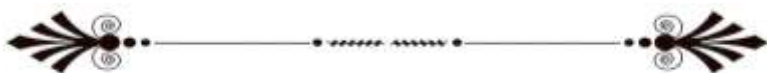
ضحكت والدي ودفعني بيدها تحثي على الخروج، كي لا تبرد القهوة وتأخر

عن أسامة.

استجمعت نفسي المرتبكة وتوجهت نحو الشرفة، مضت سهرتنا نتجاذب

أطراف الحديث حتى شاركنا فيما بعد والداي وجهاد قبل أن يستأذن أسامة

ويغادر إلى منزله.



أشرقت شمس صباح اليوم التالي وتسلفت خيوطها من بين ستائر غرفة نومي لتلثم وجهي وأنا غارقة في أحلامي، وذكريات ليلة الأمس التي لا أريد منها أن تنتهي، اهتزت لها جفوني وفتحتهما قليلاً، ابتسمت دون إدراك حينما رفعت يدي أمام وجهي، وتأملت لها لأرى خاتم الخطوبة يلمع في إصبعي.

-لم يكن حلمًا...

نظقتها هامسةً ووضعت يدي فوق صدري، واليد الأخرى فوقها وكأني أخبئها خشية أن يتلاشى الحلم.

-لن يفرقنا شيء بعد اليوم..

بات الحلم واقعاً، لطالما كنت أحلم بأن تربطنا علاقة رسمية، وأن يرافقني في سنوات عمري القادمة، هذا ما ترجوه كل فتاة من فارس أحلامها، ومن الرجل الذي اخترق قلبها وجاء على مقاس روحها.

أغمضت عيني، لأسترجع صورة أسامة وهو ببزته الرسمية السوداء والقميص القرميدي، وربطة عنقه الأنيقة، قامته الطويلة وشعره الخرنوبي المتموج الذي يسرحه إلى الخلف مع انكساره قليلاً إلى اليمين، عينيه الواسعتين بلون العسل، رائحة عطره الباريسي، وتلك الشامة.

عضضت على شفتي السفلى وقد تسارعت نبضات قلبي، حرارة سرت في جسدي، سعادة تتراقص بين ضلوعي جعلتني أطير كفراشة وأنا فوق سريري، نغمات متواترة جعلتني أزيح الغطاء عني وأقفز لوسط الغرفة،



أتمايل يميناً وشمالاً، النافذة وسط الجدار المقابل التي تطل على شجرة الأكي دنيا أراها ضاحكةً، الستائر ترقص، الشمس في سطوعها اليوم تشع ابتهاجاً.

أتراه الكون جميلاً هكذا، أم أن السعادة التي في داخلنا تعكس نظرنا للأشياء فنراها بأجمل حلّة، أم تراه الحزن حينما يخيم على قلوبنا يغدو كغيمة سوداء تحجب الشمس عن كل شيء فتغدو رماديةً باهتةً لا جمال فيها.

أفقت من شرودي على طرقات الباب وصوت أمي التي اعتقدت بأني لم أستيقظ على رنين المنبه الذي يكاد أن يوقظ الجيران كما قالت حينما فتحت الباب ودلفت إلى الداخل.

-ليستيقظ العالم كله وليرقص على ألحانه، أمي صباح الخير يا جنتي، صباح السعادة يا أجمل ما في الوجود.

صباح يوم الأحد، يوم الهدوء بعد التوتر الذي باتت تشهده المدينة في الأيام الأخيرة، يتميز بطقوسه الخاصة وإن كانت اعتيادية إلا إنها تتميز باختلافها عن باقي الأيام، نشاط غير مسبوق لقاطني المنزل، وكأنهم يسابقون الشمس في شروقها والعصافير في رحلة بحثها عن قوت يومها، يوم العودة إلى العمل والدراسة بعد أن منحتنا العطلة قسطاً من الراحة لننطلق بكامل طاقتنا للدخول في الحياة، وقبل أن يلفظنا البيت إلى الخارج لا بد أن تحظى الدقائق الأخيرة بالكثير من الأجواء المميزة.



رائحة القهوة تنبعث من الصالون يحتسيها والدي، صوت المذيع في التلفاز وهو يلقي نشرة الأخبار الصباحية، فيروز تغني في المطبخ يرافق صوتها أمي في إعداد الفطور، رائحة الشاي تمتزج مع رائحة المناقيش بالجبنه والحبة السوداء، مناقيش الزعتر التي تكمل انتفاخها بعد نزعها عن الصاج يغلي الزيت فوقها فرحاً، حبات الزيتون تتراقص في الصحن تطغى في لمعانها حينما ترفع أمي الستائر وتفتح النافذة فيدخل عبق الربيع ورائحة أزهار الأكي دنيا حديثة التفتح، كرات اللبنة والشنكليش في الصحن تسبح في زيت الزيتون المعتق، أنواع من مربى المشمش والتين والكرز تتلألأ بألوانها ولمعانها وقطرها الأشبه بالعسل، كاسات الشاي تغازل بأبخرتها أنوفنا تدعونا للانضمام لهذا الحفل المميز.

هياً أسرعى قبل أن يلتهم جهاد الفطور، لقد سبقكم إلى المطبخ..
قالتها أمي وهي تتجه نحو الشرفة لنشر الثياب بعد أن أخرجتها من الغسالة التي ترافقنا الأخيرة النشاط الصباحي، لتستغل شروق الشمس وبداية النهار بعد ليلة حافلة.

جهاد أخي الصغير في السنة الأولى في كلية الآداب، مدلل العائلة لأنه الولد الوحيد معنا أنا وأختي نور التي تكبره بعامين، كانا متشابهين كثيراً، شعرهما الأشقر المجعد، عيناها الزرقاوان كلون السماء، أما عيوني فكانت مختلفة وكان أمي لكثرة ما كانت تنظر إلى أشجار الزيتون في بيت جدي العتيق أنجبتني بعيون خضراء، بشرتهما بلون الجوري المتفتح أمام أبواب



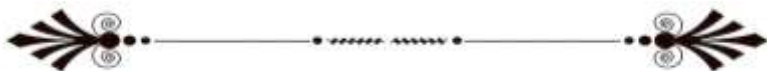
البيوت في الحداثق الصغيرة التي لا يخلو منها أي فناء حتى ولو كان قطعة تراب صغيرة، فتوضع فيها نبتة الجوري لتشارك الياسمين في زينتها، كانا يمضيان أغلب وقتهما معاً، لكنه منذ مدة بدأ يميل للعزلة، وبدأت تشتكي نور من رفضه الجلوس معها ولعب الشطرنج ليقضى بدلاً من ذاك وقته على الكمبيوتر الخاص به.

ذات مساء قصدت نور غرفته، وقفت أمام الباب وهمت بالطرق عليه، إلا أنها سمعت صوتاً من الداخل، حاولت استراق السمع لكنها لم تفهم شيئاً، حاولت الإصغاء أكثر علّها تسمع غزلاً، كلاماً موجهاً لفتاة ما، لربما أخيها عاشقاً، وأبعده العشق عن جو العائلة.

طرقت ثلاثاً أنهى جهاد اتصاله على عجل، وأطلق صوته من الداخل:
-من الطارق؟

-أنا نور، الشاي جاهز، ألا تريد أن تشرب معي؟
فتح جهاد الباب وكان وجهه ممتعاً، تأملته نور لتبحث في عينيه، شفثيه، وجنتيه، عن أي أثر لكلام الغزل والحب، لكنها لم تر سوى قسمات وجه باردة، تأملها بدوره حينما لاحظ شرودها ونظرها المطول في وجهه، أدركت نفسها ثم استدارت وهمت بالعودة إلى الصلاة.

-بانتظارك الشاي سيبرد.
في المطبخ كان جهاد يتناول فطوره بصمت، لكزته على رأسه، وسحبت الكرسي المجاور له ثم جلست.



-صباح الخير سيد جهاد، كيف حالك اليوم.
اكتفى بهز رأسه ولم يجب، انضمت إلينا نور بعد دقائق وجلست قبالتنا، لم
يعجبني صمته ذاك الصباح ولا حتى شروده.
لم تكن عاداته في أن يمضي الوقت صامتاً، فكان لا يكف عن الحديث
والمزاح والمشاكسة مع نور، ظننا بأن ما يشغله دراسته أو ربما رغبته في
الانضمام لفريق الكرامة (فريق كرة قدم).
والدي كان سعيداً بتغييره، ويقابل تساؤلاتنا بأنه بات رجلاً لن يبق طفلاً
وتصرفاته ستكون أكثر جدية، لم يكن كلامه يقنعنا، يبدو وكأنه يحمل
هماً على عاتقه، ولم ندرك بأن همه كان بحجم وطن.
بعد تناول طعام الفطور غادر المنزل إلى الجامعة مع نور ثم تبعتهم بعد
دقائق قاصدةً مكتب المحاماة الواقع في شارع شكري القوتلي وسط المدينة.
كنت أسير بهداوة، أملاً رثيَّ بالهواء الممزوج مع رائحة التراب بعد المطر
الذي جادت به السماء فجراً، وعبق زهور الأشجار التي تفتحت على جنبات
الطريق وعرائش الياسمين التي تسلقت على سياج البيوت تهيء لسكانها
لوحاتٍ فنية من بتلات بيضاء ذات عطر آخاذ، يملأ الصباحات عبقاً مميزاً،
زهرة المجنونة الحمراء تجن على أسوار البيوت وتغطي المداخل، تكسوها
الخضرة استعداداً للإزهار، أحواض الخبيزة بألوانها العديدة ورائحتها الزكية
تصطف على طول الشرفات، بانتظار أن تفتح أزوارها وتكمل اللوحة
الفنية مع باقي أزهار الفل وشب الظريف والعطرة و”فم السمكة” ،



وأحواض الريحان والحبث التي بدأت تفور بأوراقها العطرية لتتكور على نفسها معلنة عن قبة عطرية خضراء جميلة، يهزها الجالس بقربها بيده لتفوح رائحتها ثم يشمها مصلياً على النبي.

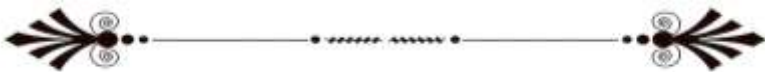
اعتاد الأهالي أن يرتشفوا قهوتهم على الشرفات مع أنغام فيروز الذي كان يصدر من النوافذ، رائحة البن مع الهال، الخبز الطازج يخرج متورداً من الأفران، عامل النظافة ينهي عمله في زاوية الشارع، الأطفال في طريقهم إلى المدرسة يثرثرون مع أقرانهم، شرائط حمراء تزين شعر البنات وضحكاتهم تتناغم مع زقزقة العصفير، قطعة صغيرة تقف أمام محل القصاب تنتظر حصتها، تأخذها وترحل، بائع الزهور يقف على الرصيف يعرض أجمل الأنواع والألوان يرتبها في سلال من قش وينتظر عاشقاً سبق الشمس في طلوعها، ليشتري منه أول زهرة يهديها لحبيبته.

الربيع في بلدي جميل جداً، لكنه ذاك العام لم يكن كما عهدناه، فكانت تشوبه المظاهر العسكرية التي بدأت تزداد يوماً بعد يوم، كانت رؤية السيارات العسكرية والجنود في الطرقات ملوثاً للعين والنفس لأننا لم نعتد رؤيتهم إلا على شاشات التلفاز.

قطع شرودي أثناء سيرني الحاج أبو شادي الذي يعمل في بقالية صغيرة في نهاية الحي:

-أسعد الله صباحك، كيف حال محاميتنا.

-أهلاً عمي كيف حالك.



اقتربت منه لأتناول من يده حبة سكاكر اعتاد أن يقدمها لنا كضيافة كلما مررنا بجانبه، العم أبو شادي كان جزءًا من طفولتنا فقد اعتدنا رؤيته كل صباح، كنا نتسابق أنا وأخوتي لشراء غزل البنات وقباقيب السكر الملونة، وما يميز متجره الصغير في يوم الخميس الحمصي، جبال الحلاوة الخبزية التي كان يضعها أمام دكانه على الرصيف على شكل أهرامات، فكنا نراها جبالًا من سكاكر ملونة.

كان ذاك اليوم كأيام العيد، إذ ترتدي فيه مدينة حمص ثوبًا زاهيًا ملونًا مزركشًا بكل أنواع الحلاوة الحمصية الخبزية منها وبلاط جهنم المتميزة باللونين الأبيض والأحمر، كانت تمتلئ واجهات المحلات جميعًا وخاصة في السوق الشعبي وكأنها أزهار تنافس الربيع بألوانه وزهوه.

الغريب في ذاك اليوم بأنه عيدٌ للأموات أيضًا كما كان متداول بين الأهالي، وكان يسمى خميس الأموات أو خميس الحلاوة، وما كان يحيرني منذ أن كنت طفلة وأتساءل في نفسي كيف للأموات أن يكون لهم عيدًا يحتفل معهم الأحياء بزيارة قبورهم حاملين لهم الآس وسعف النخيل ليزينوا بها مرقدهم؟

كنت أحمل هذا السؤال معي في كل مرة تصحبني فيه جديتي معها لزيارة قبر جدي الشهيد الذي كان مميزًا عن غيره من القبور، كان رخام القبر منحوتًا على شكل سفينة تعلوها طائرة حربية، كانت تخبرني كلما جلسنا بالقرب منه، بأنه استشهد أثناء قتاله العدو الصهيوني في حرب تشرين التحريرية

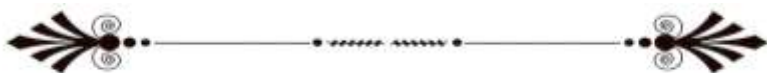


وبأنه بقي في الخندق مع غيره من الجنود الذين رفضوا الانسحاب فقتلوا جميعًا بغارة غادرة.

تُسكت تساؤلي دومًا بجواب يهدئ من حدة فضولي الطفولي وأصدقه حسب استيعابي آنذاك بأننا نأكل الحلاوة لننسى مرارة الفقد، لم أكن أعني معنى أن يكون للفقد طعم، ولا كيف له أن يكون علقماً حتى تجربته. العم أبو شادي الذي كان ينظر إليّ مبتسماً حاني الظهر قد أثقلت كاهله الأيام، وتركت على وجهه آثار الزمن وكأنها خارطة أو نقوش أثرية تحكي الكثير لناظرها، عيناه الصغيرتان المغرورتان بالدمع والذي كان لا ينفك عن مسحهما بمنديل مطرز يحمله دومًا، ذاك المنديل الذي تركته له زوجته كآخر تذكّار لها قبل مغادرتها الحياة وكأنه عاهدها أن يبكي عليها بقية عمره.

بعد الاطمئنان عن أحواله وسؤاله عن أحوالنا، تركته يجلس على كرسي قش صغير أمام باب متجره، ثم استقلت سرفيس الكورنيش الشرقي الذاهب إلى وسط المدينة.

فيروز تغني في المذيع الصغير، جميع الركاب ينظرون إلى خارج النوافذ وكلُّ شاردٌ في أفكاره وهمومه، ملامح الوجوه واجمة، والصمت لم يكن يشوبه سوى تنهدات تخرج من الصدور، وكأن صاحبها قد أنهى فك خيوط أفكاره المتشابكة أو أنه وصل لطريق مغلق في أحلامه.



السعادة التي كانت تحتل أعماقي، والخاتم الذي يلمع في إصبع يدي لم يجعلاني أكثر ثل تلك المعارك التي في رؤوسهم، كنت أبتسم كلما لاح ذكر أسامة في خيالي، وكلما استعدت ذكريات ليلة البارحة بتفاصيلها.

ترمقني إحداهن بعينين حادتين، تقيسني بنظراتها من الأعلى إلى الأسفل، هل تحسدني على سعادتي التي تشفّ على ملامح وجهي؟

أم أبدو لهذا الحد شاذة عنهم فيما يدور في عقولهم؟

تغيرت الملامح جميعها فجأة، تحولت على حين سماعهم لخبر قطع أنغام فيروز، من حزنٍ إلى غضب، اعتقدت وأنا استمع لتفاصيل الخبر وكأنه حدث في العراق أو فلسطين أو أفغانستان، أو حتى في مكان خارج كوكب الأرض، لم أصدق أنه حدث في مدينتنا، وفي الحارة المجاورة لحارتنا بالتحديد، وبكل تلك التفاصيل البشعة وما فيها من إجرام، ما يثير في النفس رعباً وحقداً على مفتعليلها، وخوفاً لما سيجري في الأيام القادمة، وتأكيذاً لأن ما يحدث مؤامرة للقتل وإثارة للفتنة الطائفية، وتحويل مسار الثورة واقناع الناس بأنها ليست ثورة شعبية وحسب إنما مخطط خارجي لزعة أمان البلد، البلد المقاوم على حد تعبيرهم، من قام بهذه الجريمة لا يمكن تصنيفهم لجنس البشر.

باتت نظراتهم الحادة تصفع وجهي تلسعني كأشواك حادة، تجلديني من كل جانب، وكأن لي علاقة بما حدث، لملت ارتباكي وخوفي وطلبت من السائق أن ينزلي بجانب الطريق.



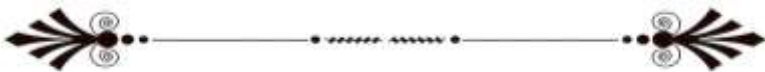
لفظتني السيارة (السرفيس) وكأنها تقيأت لقمة علقت في حلقتها وما استساغتها، دست على طرف جلبابي وكدت أقع على فمي لولا أنني أدركت عمودًا للإنارة ظهر فجأة أمامي لينقذني من السقوط، أدركت حينها أن ردائي الطويل كان سبب نظراتهم تلك، وبأن سم الطائفية بدأ بالانتشار في جسد الوطن.

بات الحجاب محط اتهام وريبة دون تمييز بين مؤيد ومعارض، تمامًا كما حدث في ثمانينات القرن الماضي في أحداث حماة، لم أكن أعلم عن تلك الأحداث شيئًا، إلى أن ذهبنا في رحلة طلابية إلى مدينة حماة وما إن هبطنا من الباص حتى بدأت صديقتي بالارتجاف والبكاء هلعًا، تجمعت على نفسها ولاذت بجانب الحائط، شفتها السفلى تهتز وأسنانها تصطك ببعضها، تخبيئ يديها العاريتين في حضنها وكأن الثلج يتساقط على الرغم من حرارة الشمس التي كانت تلسع الجباه.

-سينتقمون مني، سيقتلونني، خبئوني.

كانت تتلفظ بهذه العبارات وكأنها في كابوس، حاولنا تهدئتها جميعًا، كنت أضحك لا أعلم لماذا، على الرغم من منظرها المثير للشفقة.

-أنتِ تهذين، من الذي سيقتلك، لا يوجد وحوش هنا.



لم تقتنع بكلامنا حتى اقترب منها أحد الطلاب المرافقين لنا، همس في أذنها كلامًا هدأت على إثره تمامًا.

رويت تلك الحادثة لأهلي ضاحكةً، وأنا أظن بأن نوبة هلع أصابتها، لأنها تزور مدينة حماة لأول مرة في حياتها، أو ربما أرعبتها النواكير وصوت عنينها، حتى تحدّث لنا والدي عن تلك الحقبة من الزمن، والتي تدمرت فيها أحياء كثيرة، وقتل الآلاف على يد جيش البلاد وضباطه، فاعتقدت صديقتي بأنهم سينتقمون من كل من يمت لتلك الطائفة بصلة.

من روى لها عن تلك الأحداث لم يخبرها بأنه لم يتبق أحد من ذاك الحزب المعارض في المدينة، فقد قتل من قتل، وغيب الآلاف في باطن الأرض في مدينة تدمر، وهُجّر من كتبت له النجاة إلى بلاد بعيدة.

ومن بقي في المدينة من أهلها، بات يمشي الحائط الحائط ويدعوا الله بالستر والحفظ.

تابعت طريقي سيرًا على الأقدام، تجاوزت جامع خالد بن الوليد وسط المدينة واتجهت نحو الساعة القديمة، وقبل أن أصل إلى المكتب، أدركت وجود حاجز محاط بأكياس مليئة بالتراب وعددًا من الجنود خلفها وبجانبتها، صور القائد خلفهم على الجدار، قناص يعلو ذات البناء يلمع سلاحه الخاص من أثر سقوط أشعة الشمس عليه، شعرت لوهلة بأن المدينة متأهبة لغزو خارجي، لكن الأمر لم يكن سوى تأهب لإسكات الأصوات المطالبة



بالحرية، الحرية التي لم يفهم ماهيتها الكثيرون ولم يستوعب حقيقتها
الموالون.

مررت بجانبهم دون أن يطلبوا مني أن أتوقف، اكتفوا بالنظر إلي فقط، وأنا
أحث قدمي على متابعة المسير لأصل إلى المكتب في البناء المجاور لهم.



(2)

أغلقت مريم مذكرتها بعد أن كتبت أحداث ذلك اليوم، اتجهت إلى النافذة المواربة في غرفتها، والتي يدخل منها نسمات ربيعية مشبعة برائحة المطر، تأملت السماء التي تتلألأ كعينين تملؤهما الدموع، بعد أن نفضت عن كاهلها ثقل الغيوم، وروت بقطراتها شجيرات الياسمين البيضاء كنفوس أهل تلك المدينة، لكن القلوب لم تكن تخلو من غصة وألم، أو كبت لا يستطيع أحد البوح به، حدث ذلك بعدما أعلنت المحافظة في عام 2007 عن مشروع يسمى (حلم حمص)، والذي كان يخطط لهدم قسم كبير من السوق القديم والأبنية السكنية المجاورة له، وحارات بأكملها تقع بالقرب من مجرى نهر العاصي، وبناء أبراج تجارية حديثة بدلاً من ذلك. اعترض حينها الأهالي على هذا المشروع الذي أسموه كابوس حمص، لأنه سيدمر معالم حمص الأثرية، ويهدف إلى تهجير سكانها الأصليين والاستيلاء على ممتلكاتهم.

الأمر الذي جعل والد مريم مجبراً على تناول حبوب خافضة للضغط، بعد ارتفاعه المفاجئ ذلك اليوم حينما صدر القرار، والذي تسبب له بمرض مزمن تدهورت على إثره صحته، بسبب حزنه وخوفه من خسارة متجره الذي ورثه عن أجداده، والواقع في أحد أزقة السوق المسقوف الأثري، كان يعمل منذ أكثر من ثلاثين عاماً بين الأواني النحاسية، تلك المهنة التراثية التي لم يتخل عنها بعض الحرفيين في البلد وعلى الرغم من استبدال النحاس



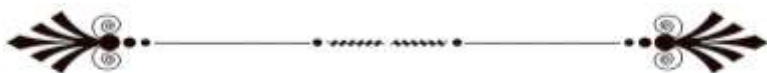
بالزجاج والستانلس في المطبخ إلا أنه ما زال له حضور في المجالس والمضافات، ليكون للقهوة المرة مكانتها في تلك الدّلال الصفراء اللامعة كالذهب.

وما تم الاستغناء عن استخدامه، أُحيل إلى قطع تراثية للزينة، ولا بد من الحفاظ على لمعانها كلّما ترك الزمن أثراً عليها، فتعود لامعة مضيئة بين يدي أبي جهاد وصانعه.

لكن من سيعيد للنفوس لمعانها بعد أن تصدأ، وتفقد بريقها وصفاءها؟ هل سيتعكر صفو هذا البلد يوماً؟ وهل الشمس التي قدّر لها الله أن تشرق على الجميع بالتساوي أن يحجبها أحدهم؟

تساءلت مريم في نفسها وهي تغلق النافذة بعدما لسعتها تلك النسومات، ثم اتجهت نحو سريرها لتخرج هاتفها المحمول من تحت الوسادة، وتتصل بأسامة ليتبادلا الأحاديث قبل أن تخلد إلى النوم وتكمل لقاءها معه في الحلم كما يحدث معها كل يوم.

لا ضير في حفنة من السعادة ننعم بها، ومن أحلام نسعى إليها، أبسط ما يمكنه لفتاة مثل مريم أن تحلم بمستقبل يجمعها مع خطيبها تحت سقف واحد، وأن تغدو أكبر محامية في البلد، تنجب طفلاً أو اثنين كما تتجادل مع أسامة بعددهم وأسمائهم وما سيكون لون شعرهم وعيونهم.



سعادة قد منحت لها لم تُمنح لغيرها كما تقول، تحسدها الفتيات وتغبطها الصديقات، وتدعو الأمهات في الأسفار أن يجعل لبناتهن حظاً مثل حظ مريم.

طاقة الأمل والتفاؤل في نفسها لم يجعلها يوماً ترى سوى الجمال والهدوء والخير، ولن يخيل لها أبداً أن يحدث مكروه ما في هذا الوطن، حتى بدأت غيوم سوداء تتجمع في سماء الأمان، وبدأت تمطر خوفاً وقلقاً على السكان. في اليوم التالي مساءً، وقبل أن يذهب كل فرد إلى غرفته ليعلن عزله عن الخارج ويتفرد بأفكاره واهتماماته، كان اجتماعهم المعتاد حول المائدة لتناول طعام العشاء حيث بدأ كل منهم بالتحدث عن يومه وكيف مضى. كان الحديث المتداول حينها عن حال البلد، وتلك المظاهرات الشعبية التي بدأت تزداد يوماً بعد يوم، كانوا يتهامسون لئلا تسمع آذان الجدران أصواتهم، لأن الكلام عن هذه الأمور خط أحمر في بلد محكوم بقبضة من حديد.

أرهق الحديث مريم، وأرادت أن تدير مقوده إلى فسحة الأمل قليلاً، قالت: -يا إلهي، كم أنتم متشائمون، بلدنا بخير ولن يحدث بها كما تتصورون، ستهداً الاحتجاجات وتحل كل الأمور، وكل هذا التشديد الأمني وانتشار الجنود في الشوارع لصالحنا، لا تنسوا بأنهم أبناء هذا البلد أيضاً، وليسوا أعداءنا من الخارج.



رمقها جهاد نظرة أسف، وأخفض رأسه ليكمل طعامه، أما والدها كان يتوجس خيفة من القادم ومما ستؤول إليه الحال، لكنه كان يحاول جاهداً ألا يذكر شيئاً أمام أولاده.

بعد دقائق من الصمت قالت نور:

-الأمر مضطربة بعض الشيء في الجامعة، بتنا نشعر وكأننا في معسكر وليس مكاناً للدراسة، التشديد الأمني مكثف، والتدقيق على الطلاب وحركة خروجهم ودخولهم بات أمراً خائفاً، لكن ما زال الهدوء هو المسيطر على الوضع هناك.

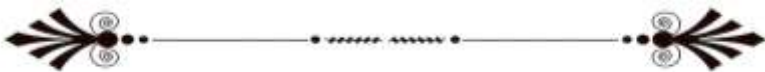
-الهدوء قبل اندلاع العاصفة.

نطق جهاد أخيراً وهو ينظر إلى يديه على الطاولة بعدما توقفنا عن نقل الطعام إلى فمه.

أدار الجميع رؤوسهم نحوه، وضعت أم جهاد يدها على صدرها وهي تتمتم بالبسملة ثم قالت:

-إياك يا بني أن تتورط بشيء، أو أن تتحدث مع أحد عما يجري، كن حيادياً، نحن لا علاقة لنا بهم، ليس لدينا أية مشكلة مع الدولة ولا ن تدخل بالسياسة أو نخرج على ولاية الأمور، رضي الله عنك يا ولدي ليس لنا غيرك، أدعو الله بأن تمر هذه الفتنة على خير.

أنهى الجميع عشاءهم في صمت، غادر جهاد تاركاً قبلة على جبين أمه شاكراً إياها على طعام العشاء، ذهب إلى غرفته حيث جهاز الكمبيوتر المكون



بجانب سريريه على طاولة خشبية، فتحه وبدأ بقراءة الرسائل التي وصلته من صديقه عامر في الحي المجاور.

كان جهاد أحد أعضاء لجان التنسيق في حيهم، والتي تشكلت مع بدء انطلاق المظاهرات، لكل حي لجنة يتواصلون فيما بينهم، يتفقون على الشعارات والمطالبات، وقد عيّن البعض منهم مجموعة من الشبان لتجهيز اللافتات والأعلام.

يستخدم جهازه الكمبيوتر بشكل متواصل على برنامج التواصل الاجتماعي الفيسبوك، وقد كان يدير صفحة باسم التنسيق المحلية، يتلقى الاتصالات من أصدقائه الذين ينقلون له الأخبار بالتواتر، ليقوم بنشرها على الصفحة.

كان عامر يخبر جهاد بكل المستجدات في الحي الذي يتميز بتنوعه الشعبي، وبذلك تكون الأوضاع أكثر اضطراباً وحساسية والعزف على وتر الطائفية يكون أكثر صخباً وضجيجاً وتأثيراً في النفوس.

أما صديقه المقرب فراس، كان يساعده في إدارة الصفحة وتزويده بالمعلومات التي يحصل عليها من الوسط المحيط به وحتى من خارج المدينة، ثم إن إقامته في حي الحميدية الملاصق لوسط المدينة، يمنحه حرية أكثر في الدخول والخروج وإطلاعاً على ما يحدث عن كثب.



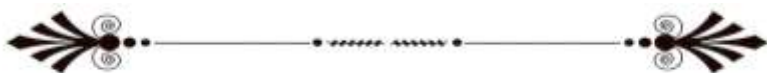
نور في غرفتها، بعثرت أقلام التلوين فوق الطاولة، على الرغم من دراستها للعلوم الصحية إلا أنها تهوى مداعبة فرشاة الرسم والعزف بها على اللوحات.

دفتر الرسم الكبير الذي قاربت على الانتهاء من ملء جميع صفحاته بالألوان، كان مرمياً على السرير ومفتوح عن آخره، إحدى الأوراق قد خضب بياضها باللون الليلي المتدرج، سماء واسعة وغيوم، نهر يحتل وسط الورقة، هابطاً من أعلاها يصب في أسفلها، غابات كثيفة على الجانبين، قارب فارغ بالقرب من الضفة اليسرى، ظل فتاة طويل تعكسه الماء دون وجود لها، لتبدو وكأنها فتاة تستلقي في قاع النهر، أو أنه خيال لفتاة من جن.

لطالما كانت نور تحب أن ترسم لوحات غريبة وإن بدت لأول وهلة لناظرها لوحات طبيعية إلا أنها لا تخلو من بعض الألباز.

في الصفحة الثانية كانت قد بدأت برسم بحر يُغرق الصفحة باللون الأزرق الداكن ويُطمس بياضها، أمواجه عالية وكأنما هناك عاصفة ما، لم تكمل تلوين بعض الأماكن وسط الصفحة وكأنها تنوي رسم سفينة في عرض البحر.

شاركت نور في معرض الرسم الذي أقيم العام الفائت في المركز الثقافي، وكانت ستترشح لمسابقة الرسم التي أقيمت على مستوى القطر، إلا أنه قد تم اختيار منافستها لا لمهارتها وإبداعها أو لأنها تتقن العزف بالفرشاة على



الورق، إنما لشيء امتازت به دون غيرها من المنافسين، جعل لها حظاً في القبول وتميزاً تتفرد به.

كأولئك الذين نقول أنهم ولدوا وفي فهم ملعقة من ذهب، ولدت مايا وعلى كتف والدها نسر ونجمة.

فتحت حقيبتها وأخرجت منها ورقة مطوية، اشتمت رائحة العطر المنبعثة منها، فتحتها لتقرأ كلماتها المختبئة بين طياتها للمرة العاشرة، لمعت عيناها وارتسمت ابتسامة خجولة على شفتيها، ضمتها لصدرها وتنهدت مغمضةً عينيها، تحلم ربما بمحتوى الرسالة أو بلامح كاتبها، ولربما سافرت إلى عالم الأحلام الوردية التي تفعلها سحر الكلمات إن كانت تمس الفؤاد.

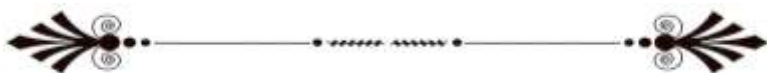
استيقظت من شرودها وسارعت لدس الرسالة بين طيات كتاب يجاور الأقلام على الطاولة، حينما طُرق باب الغرفة، ودخلت مريم إليها تدعوها للانضمام لسهرتهم اليومية، بعدما أنهت عملها في المطبخ من تنظيف للصحون وإعداد للشاي.

اتخذت نور مكانها المعتاد أمام الشاشة، في حين جلست مريم بالقرب من والدتها، لتحدثها عن بعض الحاجيات التي تنقصها لأجل تجهيزات الزفاف، وأثناء غمرة الأحاديث التي تبادلناها، رن جرس الباب، فذهبت مسرعة لفتحه، لأن نغمته التي تسارعت لها دقات قلبها، قد أنبأتها بقدوم خطيبها أسامة.

- مساء الخير يا سكر هذا المساء.



توردت وجنتا مريم، وأشاحت بنظرها عنه مبتسمة.
هيا إلى الداخل، لا أريد أن أبدو أمام أهلي كتفاحة حمراء من الخجل، لن
أسلم من كلام نور وأسئلتها الفضولية لي.
-هل خجلتِ لأني وصفتك بالسكر، كيف إذن لو قلت لكِ يا عسل.
أجابت مريم وهي تداعب خصلات شعرها بدلال:
-لكنت غدوت كالدراق شديدة الاحمرار.
اقترب منها أسامة وهمس في أذنها:
-ما ألدك حينها يا دراقي.
ضحكت مريم وهي تحبى وجهها المحمر بكلتا يديها، ومن الداخل علا
صوت والدها مُرحبًا بأسامة متجهًا نحو الباب لاستقباله.
استعادت جديتها المصطنعة، وكتمت ضحكتها، لكن عيناها كانتا تلمعان
كنجمتين في ليلة قمراء.
استلم أبا جهاد دفعة الحديث بعدما خرج عن صمته الذي كان يحيط به قبل
مجيء أسامة، تنظر إليهما مريم بحب، سعادة تغمرها لرؤية ابتسامة والدها
النادرة وهي تشع على وجهه.
رؤية عائلتك ومن تحب وهم بأحسن حال، من أكبر النعم التي لا يسعك
إلا أن تشكر الله عليها وتدعوه لدوامها، هذا ما كانت مريم تهمسه في
نفسها.



كاسات الشاي الساخنة تتناوب بين الأيدي وعلى الطاولة، ضحكات وهمسات والتلفاز يتحدث لوحده، وضعت مريم يديها على أذنيها وأغمضت عينيها، وبدورها نور قفزت من مكانها لتدفن نفسها في حضن أمها، زخات من رصاص كثيف وأصوات ضربات متقطعة من آلية عسكرية، عكرت صفو الجلسة.

خرج جهاد من غرفته مسرعًا، مطالبًا أهله بالابتعاد عن النوافذ والدخول إلى الغرفة الغربية البعيدة عن الشارع، لتفادي الرصاص الطائش الذي يطلق عشوائيًا وبطريقة جنونية.

- هؤلاء الأوغاد بدأوا اللعبة، سيطلقون النار في الهواء وعلى البيوت دون تمييز.

- ولماذا؟ ومن هم؟ سألت مريم.

- لا تسألي، غدًا شاهدي الأخبار فقط، وسترين ما سيقال.

بدأت أصوات الرصاص تبتعد شيئًا فشيئًا، ما أعاد الهدوء إلى العائلة، واتخذ كلٌّ منهم مكانه.

انضم جهاد لجلستهم، وبدأ الحديث يدور عما يجري في المدينة، السعادة التي كانت تغمر مريم قبل قليل، استحالت إلى خوف وقلق، وتبدلت ملامح وجهها وشحب لونها.

بدأ أسامة بالحديث عن المرضى الذين يرتادون المركز الذي يعمل به، وزاد عددهم في الآونة الأخيرة، بالتزامن مع بداية الحراك الشعبي، وبالأخص بعد



توزيع منشورات على الأهالي وطلاب الجامعات، على حد زعمهم تتضمن خطة بندر بن سلطان التي وضعها بالتعاون مع السفير الأمريكي السابق، والتي صرحت عنها قناة فيلكا الإسرائيلية.

كانت الخطة تتضمن بنودًا كثيرة هدفها إثارة الشغب والفتنة بين الناس لأجل تحويل مسار الثورة وتدمير سورية أرضًا وشعبًا وحكومة.

لكن تلك الخطة لم تكن سوى مخططًا مخبراتيًا ممنهجًا، بدأوا بتطبيق بنودها على أرض الواقع، وبذلك قد صدق كل من قرأها واقتنع بأنها مؤامرة خارجية بدأت بالمظاهرات، محرقة لعبة الطائفية، منتهيةً بالحرب وتقسيم سورية.

-لقد وزعوا علينا هذه المنشورات وقاموا بتحذيرنا منذ مدة، لكني لم أقرأ منها شيئًا، مزقتها على الفور.

قالت نور وهي توزع فناجين القهوة عليهم، واتخذت مكانًا بالقرب من والدتها، ثم تابعت:

-صديقتي راما حدثتني عن ابنة خالتها التي تعاني الآن من أزمة نفسية، باتت تخاف الاقتراب من أي سيارة مركونة بجانب الرصيف، خشية أن تكون مفخخة، تصاب بنوبة من البكاء والصراخ كلما سمعت أصوات الرصاص في أيام الجمعة، أو سمعت هتافات المتظاهرين.

-يخيل إليها بأنها سترى الجثث مقطعةً ملقاة في الشوارع، أو أن أحدهم تسلسل من النافذة وقام بذبح أولادها أمامها، لذلك لم تعد تستطيع النوم



بدون حبوب منومة أو إكمال يومها بشكل شبه طبيعي إلا بتناول عدة أنواع
من الحبوب المهدئة.
أكمل الحديث أسامة عنها...
سألته نور:

-هل أنت الطبيب الذي يشرف على حالتها؟
-نعم، هي واحدة من عشرات النساء اللواتي أصبن بالرهاب مما قد تم تداوله
في الصحف وبين الناس وتلك التي تسمى خطة بندر، الإشاعات تنتشر
كالنار في الهشيم وخصوصًا بأمر كهذا.
الحرب النفسية تدمر الإنسان أكثر مما تفعله البنادق والدبابات، لقد
خططوا للعبة جيدًا، وبدأوا بالتنفيذ، وجميعنا سحبنا التيار معه دون إدراك.
جهاد يستمع إليهم دون أن ينبس ببنت شفة، كان شغله الشاغل كيف
سيستطيعون تنظيم مظاهرة بأكبر عدد ممكن في يوم الجمعة القادمة،
وكيف سيتوجهون إلى مركز المدينة والاعتصام في ساحتها، وعدم التراجع
حتى سماع مطالبهم التي ارتفع سقفها إلى إسقاط النظام، بعد استشهاد
عدد من الشبان المتظاهرين برصاص الأمن، واعتقال البعض الآخر خلال
الأسابيع القليلة الماضية.

استأذن أسامة للعودة إلى منزله، بعد أن توقف إطلاق الرصاص وسكنت
المدينة، ولكنه لم يغادر حتى رأى ضحكة مريم، تبادل بعض المزاح معها
والغزل، لئلا تنام خائفة أو متأثرة بالأحاديث التي جرت خلال السهرة،



ليتركها مطمئن القلب، لأنه يعلم تمامًا ما قد يفعله الخوف في نفس فتاة رقيقة مثل مريم التي دخلت إلى غرفتها بعد وداعه، فتحت كراسيها لتفرغ ما في قلبها على الورق.

(3)

(في كل يوم حدث جديد، لم نعتد على حدوث مثل هذه الأشياء في بلدنا، بتنا نسمع أصوات الرصاص في أغلب أيام الأسبوع، لم يعد مقتصرًا على يوم الجمعة، بل أصبح يوم السبت أيضًا يشهد تجمعات ومواجهات ويسقط فيه شهداء جدد أثناء تشييعهم لشهداء يوم الجمعة، يوم الأحد تعود الحياة لطبيعتها، تنظف الشوارع من قبل عمال البلدية، يزيلون الحجارة المتجمعة على أبواب الحارات والدواليب المحترقة، الحواجز العسكرية يزداد عددها وانتشارها في المدينة.

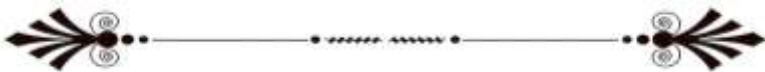
اليوم كانت أصوات الرصاص في الحارات قريب جدًا من النوافذ، وصوت قذائف لآلية عسكرية تحدث عنها والدي بأنها آلية تدعى BMB، لم نفهم ما سبب هذه الأصوات، ولا حقيقة ما يحدث في الشارع، جهاد أخي أخبرنا بأنهم يطلقون الرصاص عشوائيًا لإيهام السكان بأنهم يواجهون عصابات مسلحة تتسلل ليلاً وتدخل إلى الحارات، هدفها القتل فقط، لم يعد أحد يصدق بأن المظاهرات سلمية، وأن المتظاهرين لا يحملون سلاحًا بأيديهم، إنما أعلام وشعارات وحناجرهم التي يصدقون بها، لكن كيف ستقنع شعبًا شاهد الدماء تراق على الأرض، وسمع أصوات الرصاص؟ وسقط قتلى من الطرفين؟

منذ يومين وقع حادث في الحارة المجاورة تحدثت عنه القنوات الفضائية والإذاعة، كان الخبر مربعًا وتفاصيله مروعة، لكن ما حدث في الحقيقة



كان مختلفًا كليًا عما تم التصريح به للناس الذين شاهدوا الجثتين على الأرض وكيف تم تشوييههما والتمثيل بهما، من له المصلحة في فعل هذا سوى أشخاص معادين للجيش والحكومة، ربما أرادوا الانتقام للشهداء الذين سقطوا في المظاهرات، فكانت الضحية ضابط وابنه الذي لم يتجاوز الخامسة عشر ربيعًا من عمره، وكان ذلك أثناء توصيل الأب لابنه إلى مدرسته الإعدادية صباحًا، فخرجت السيارة عن السيطرة ولم يستطع التحكم بالمكابح و التوقف أثناء ظهور سيارة كبيرة مسرعة أمامهم، وربما كان الأب قد شرب الكثير من الخمر في الليلة الماضية أثناء سهره مع ضباط آخرين في اجتماع خاص استمر حتى طلوع الفجر، وضعت فيه الخطط لفرض السيطرة على أحداث الشارع في الآونة الأخيرة، فكان (أبو علي) الضحية الأولى للتنفيذ والتمثيل بجثته بعد وفاته وابنه عقب الحادث مباشرة وتصويرهما على أن عصابة استوقفت سيارتهم وقتلتهم ومثلوا بجثتيهم وتركوهم على الرصيف تسيل الدماء منهم دون أن يرف لهم جفن. لا أستطيع إخفاء خوفي الذي يكبر داخلي يوميًا بعد يوم، ولا حتى أن أستوعب بأن ما يحدث حقيقي وبأن الأمور في بلدنا تسير إلى الهاوية، ما الذي تحبّاه لنا الأيام لا نعلم.

كم أتمنى في قرارة نفسي أن تهدأ الأمور وتعود الحياة إلى طبيعتها، ولكن من يعيد الذين ماتوا إلى الحياة؟



وكيف سيستطيع الناس مسامحة بعضهم البعض بعدما بدأ وحش الشأر
ينهش في القلوب؟

وما هو مصير أولئك الذين غيبتهم السجون وابتلعهم الظلام؟
أرهقتها الأحاديث التي دارت في السهرة وها هي الآن ترهق نفسها أكثر
بكتابة ما يجري، أحياناً تكون الكتابة ملاذناً الآمن لنختبئ بها بين
السطور وندفن مشاعرنا خلف الكلمات، وأحياناً أخرى تكون إحياءً لما
دُفن داخلنا وتراكم مع الأيام، ليعيد إلينا ذات الشعور الذي عشناه
لحظتها وحاولنا زمناً نسيانه.



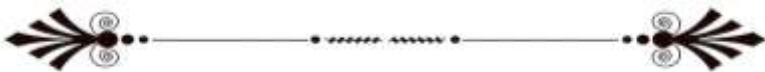
(4)

الخميس - الخامس عشر من نيسان ٢٠١١.

كان ذلك الصباح هادئاً بكل تفاصيله، السماء قد توقفت عن نحيبها الذي استمر حتى طلوع الفجر، بدأت الشمس تبتسم للكون، لتمنحه نفحة من ضيائها، خيوطها الذهبية تداعب زجاج النوافذ تمسح عنها قطرات المطر الفضولية التي اختارت التجسس على البيوت بدلاً من أن تدفن نفسها في التراب، فخلف النوافذ حكايات تُكتب، عيون تشتاق وأخرى أرّقتها الفراق، دموعٌ تذرف حزناً ومنها خوفاً، أدعيةٌ ترفعها الأكف إلى السماء وتلهج بها الألسن على سجادات الصلاة في أضلم ركن في البيت، متيقنين بأن الله سامعهم، راجين أن يكشف الضرّ عن الأمة ويجلي الغمة.

عصافير الدوري ترتشف بقايا القطرات المتمردة، تتراقص وتدور حول عرائش الياسمين الندية، تعلو ثم تحط بخفة على الشرفات وأعمدة الكهرباء، تتناغم بتغريدها فيما بينها بلغة أشبه بمقطوعات موسيقية فريدة.

تنفض أجنحتها المبللة لتحلق عالياً بكل حرية دون قيد أو خوف. يسرق المشهد نور التي أطلقت نظرها إلى الخارج من نافذة غرفتها، تنتهد من أعماقها على وقع أمنيةٍ ولدت داخلها وهي تراقب الطبيعة والناس الذين يسرون في الشارع.



ليتنا كالعصافير ننفض عن كاهلنا الهموم والخوف، نملك أجنحة، ونحلق
عاليًا في سماء طموحاتنا وأحلامنا.

غادرت البيت برفقة جهاد الذي تركها عند مدخل كلية الطب متوجهًا نحو
كليته، أقبلت رامًا نحوها بابتسامتها المشرقة، تجمع شعرها الأسود القصير
وتشده إلى الخلف، كانت حنطية اللون عسلية العينين نحيلة الجسم،
ترتدي بنطالًا أسودًا وجاكيتًا زيتيًا فوقه، سحبت نور من يدها تحثها على
الإسراع في المشي، همست لها في أذنها: بانتظارك منذ أكثر من نصف
ساعة.

ابتسمت نور ثم حاولت أن تبدو طبيعية، لكن تورد وجنتيها قد وشى بما
يحدث داخل قلبها من ارتباك.

-ما بك يا رامًا تمهلي، لمَ كل هذه العجلة، اتركي يدي من ينتظر دعيه
ينتظر.

ثم سحبت يدها ورتبت حجابها وتباطأت في خطواتها.

سارت رامًا بجانبها ولم تكف عن الثثرة، وعن حديثها عن مجد طالب
كلية الطب في سنته الرابعة، والذي يحيط نفسه بالكثير من المعجبات،
لكن لم تلفت نظره سوى نور التي كانت دائمًا ترفض الحديث معه، حتى
ذلك اليوم الذي ألح في طلبه ليحادثها وأرسل لها العديد من الرسائل مع
رامًا والتي كان مصيرها سلة المهملات بعد تمزيقها دون أن تحظى أي كلمة



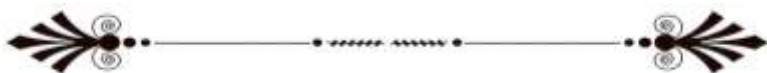
منها للقراءة، لكنها قبلت اللقاء به أخيراً لتُسكت إلحاح راماً في قبول دعوته، ولغاية في نفسها أرادت أن تبلغها في حديثها معه.
-يبدو اليوم وسيماً جداً، يحمل بيده وردة جوري حمراء أظن أنه سيقدمها لك.

توقفت نور عن السير ونظرت إلى صديقتها بغضب ثم قالت:
-ومن قال لكِ بأني ذاهبةٌ للحديث معه؟

تركتها خلفها مذهولةً تلاحقها بخطواتها وأسهرت بدورها إلى مبنى الكلية، مرت بجانب مجد الجالس على مقعد خشبي تحت شجرة الكينا دون أن تلتفت له، رائحة عطره المميزة كانت تشي بوجوده لاحقتها حتى وصلت الباب بعد أن قطعت درجات السلم من بين جموع الطلاب إلى أن غابت عن ناظره.

مريم في طريقها إلى المكتب، كعادتها كل صباح تقف بضع دقائق تلقي التحية على العم أبي شادي وتطمئن عن أحواله.
ذاك الصباح كان على غير عادته، يجلس على كرسي القش ويمسح دموعه التي تسيل بغزارة ولا يكف عن قول (يا لطيف، يا لطيف، اجعل للبلاء تصريح).

كبار السن هم أكثر الناس رؤية للمستقبل ومعرفةً لما سيؤول إليه حال البلد، لأنهم عاصروا زمناً مضى، مليئاً بالحوادث والحروب والانقلابات، وهم أكثر دراية بالسياسة التي تطبق على كل من يقف في وجه السلطة أو حتى



يفكر بمخالفتها، وبأن الدماء التي تراق الآن ليست إلا قطرات من ينابيع
لأنهار حمراء ستتخذ كافة المدن مجرى لها، دون وضوح لنهاية تقف عندها.
سؤال يدور في ذهن مريم ترددت في طرحه على والدها، لأنها تعلم أن الجواب
لن يكن كافيًا وسيختصر الكثير من التفاصيل التي لا يجب ذكرها، فكان
العم أبا شادي هو خيارها ليُشفي قريحة تساؤلاتها.

نحن أبناء بلد واحد، لم كل هذه العنصرية والتفرقة بين الناس، لم كل هذا
العداء والحقد الكامن في القلوب وقد خرج الآن كعفريت بات زمنًا في
قمقمه.

لم كل هذه الضغينة في النفوس، أين ذهبت الأحاديث والابتسامات التي كنا
نراها على الوجوه كل صباح، تتناقلها الشرفات من جارة لأخرى، ومن بائع
لجاره أو زبونه، دون النظر لمعتقداتهم وأفكارهم.

ما الذي حدث الآن؟ ومن الذي أشعل هذه النيران التي بدأت تلتهم
الطمأنينة والسكينة في أهل الحي الواحد، بات الجار يخشى من جاره، ينظر
إليه بازدراء وغضب، وكان قد نسي الأيام التي قضوها معًا والأحاديث
الكثيرة التي تبادلوها أمام الأبواب كل مساء.

نسي أحدهم كيف وقف جاره معه أثناء أزمته، وفي مرض أولاده، وكيف
فرّج عنه ضائقته حينما حلت عليه ووقف حائرًا لفكها.

ألهذا الحد ننسف كل الماضي وحتى الحاضر القريب ونخلع عن وجوهنا قناع
المحبة لنُخرج كل الحقد الكامن زمنًا في الصدور؟



كان سيل الأسئلة ينساب بغزارة من فم مريم، ليغرق أبا شادي في محيط من
حيرة، كيف سيوافيها بالإجابة؟
-يا ابنتي الكلام يطول في هذا الأمر ولا وقت لديك ولا أستطيع أن أحدثك
هنا في المتجر والزبائن يتوافدون، أخشى عليك أكثر مما أخشاه على نفسي.
لكن أعدكِ أن تجدي جواباً لكل ما يرييك حينما يحين الوقت لذلك.
استأذنت من العم أبي شادي وتابعت طريقها إلى مكان عملها، تحاول جمع
خيوط أسئلتها المتشابكة وحيرتها مما يحدث.

(5)

في الجامعة، دخل جهاد إلى القاعة ثم اتخذ له مكاناً في آخر مقعدٍ بالقرب من النافذة وترك فراغاً بجانبه حجزه بأحد دفاتره ليشغله فيما بعد صديقه فراس الذي تأخر عن المحاضرة، توجس خيفةً على صديقه الذي أرسل له برسالة نصية منذ أكثر من نصف ساعة ولم يردّه جواب عليها، ظل شاردًا طوال الوقت ينقل نظراته بين المحاضر وشجرة الزيزفون القابعة خلف النافذة، تعبر في مخيلته سيناريوهات عدة عما يُشغل فراس أو فيما تسبب بتأخره.

ضربات قلبه المتسارعة ورجفة يده المسكة بالقلم، افتعلتها فكرة عابرة في أن يكون فراس قد تعرض لخطر ما وهو في طريقه إلى الجامعة، حاول جهاد استبعادها عن ذهنه لكنها كانت كافية لنفاذ صبره فأخرج هاتفه المحمول وطلب رقمه.

المجيبة الآلية عبثت بهدوئه المتبقي، توسعت حدقتا عينيه كأنها تحاول ابتلاع الضوء رغم سطوعه في أرجاء القاعة، وتوقيت الصباح الذي لا يجعل للظلام مكاناً إلا في تلك الأماكن التي حرّمت عليها أشعة الشمس حيث تمرد العفونة معلنةً سلطتها على الجدران وشقوق الأبواب وحتى الأجساد المنسية هناك.

أخرج زفيرًا من صدره أثار استغراب الأعين التي تجاوره فحدقت به دفعةً واحدة.

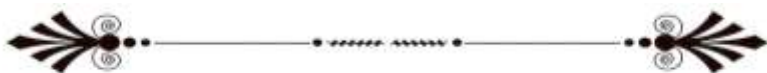


تنحني ساندًا ظهره على المقعد محافظًا على رباطة جأشه فأسكت فضولهم بابتسامته التي وزعها على عجل.
- المحاضرة مملة بعض الشيء، وبالأخص إن كانت تتحدث عن تاريخ العصر الحديث..

أيده اثنان يجلسان أمامه، واكتفى الباقون بالصمت وعادت الأعين إلى محور اهتمامها السابق نحو المنصة حيث المحاضر الذي بدأ يشكر الجميع على إصغائهم وهدوئهم غير المعتاد.

لملم جهاد أوراقه وأشياءه على عجل وخرج مسرعًا يبحث عن فراس بين الوجوه المتكومة في البهو الطويل، على الأدراج وفي الساحة.
القلق بدأ ينهش أعصابه لأن غياب فراس مثير للريبة، كيف له أن يخالف وعده، وهو الذي اتفق معه على اللقاء صباحًا وتبادل الفلاشات التي تحمل صورًا وفيديوهات للمظاهرات التي انقضت.

أكثر ما يخشاه أن يكون قد تعرض للاعتقال على أحد الحواجز المتربصة في رأس كل حي حيث ازداد عددها في الأيام الأخيرة، والتي أوكلت إليها مهمة تفتيش السيارات والعابرين وتفحص الهويات الشخصية ودفاتر الخدمة الإلزامية ومقارنتها بأسماء كتبت في دفاتر مدرسية بخط رديء، أسماء مطلوبين ليسوا لصومًا أو مجرمين، وإنما لأولئك الذين خرجوا في المظاهرات أو كانوا سببًا في إثارة الفتنة أو حتى فكروا مجرد التفكير في



المشاركة، ومنهم من كتبت ضدهم تقارير أمنية وألصقت بهم التهم ظلمًا من قبل أولئك الذين رضعوا من ثدي الحزب وتربوا في حضنه الديني. سار باتجاه باب الكلية الخارجي، شرطي يقف عند الباب يفتش الطلاب الداخلين ويتفحص بطاقاتهم الجامعية، عاد أدراجه وجلس على مقعد خشبي بالقرب من شجيرات صغيرة.

ذهنه شارد وعينه تتجولان في الساحة ثم تستقران عند الباب، لكرة على كتفه من الخلف جعلته يستدير واقفًا. -تبًا لك فراس..

احتضنه بقوة كاد أن يحطم ضلوعه.

-لقد خشيت عليك كثيرًا أين كنت؟

جلس فراس بجانبه وهو متجهم الوجه، يرتب شعره بيده، ذرات غبار علقت بقماش بنطاله الرمادي، ينفضها بكلتا يديه، ما جعل جهاد ينظر إليه بتوجس منها لا عليه بالأسئلة.

حدث ذلك قبل ساعة ونصف، توقف السرفيس على الجسر لتهبط منه إحدى الطالبات، وبدأت بالسير سريعًا باتجاه باب كلية الطب، كان أحدهم يلاحقها منذ أن صعدت إلى السرفيس في حارتها، ورافقها طوال الطريق وكان لا يكف عن مضايقتها والتحرش بها، وأكمل وراءها حينما نزلت واتجهت نحو الكلية.



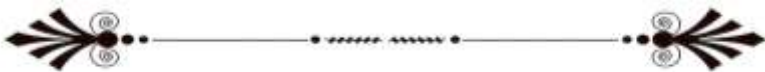
تحت خطواتها محاولةً الابتعاد عنه، تعثرت وسقطت أرضاً ثم بدأت بالصراخ حينما دنا منها وأراد مساعدتها.

تجمع الطلاب حولها وهي تنهض وتنفض الغبار عن ثيابها ثم وقفت بجانب السور بينما كان أحد الطلاب يحاور الشاب الذي كان يلاحقها.
-وما شأنك أنت..

-أختي، ابنة عمي، ابنة الجيران، ابنة مدينتنا.. حارتنا.. أياً كانت صفتها لن أقف مكتوف الأيدي وأرى وغداً يلاحقها ويضايقها دون أن ألقنه درساً. أسكته الشاب بلكمة على وجهه، ردها له الآخر بلكمة على بطنه أردته أرضاً، ثم بدأ العراك بينهما يتبادلان اللكمات والإهانات والشتائم. بدأ الشاب بشتم الطالب وتوجيه الاتهامات له على أنه من المندسين والذين يشاركون في المظاهرات وخرجوا ضد الدولة وبدأ يتوعده أن ينال جزاءه.
- يا عرعوري يا مهندس.

قالها الشاب الذي بدأ بضربه فراس بعدما رآه يتقدم نحوه ويدافع عن الطالب، وأسكت صراخه بلكمة على فمه.
تدخل أحد الطلاب لفك العراك مخاطباً الشاب:

- فراس ابن حارقي، ابن الحميدية، ليس له علاقة بالعرعور أو غيره.
كان فراس خارجاً من المكتبة حينما شاهد تلك المعمة على الرصيف المقابل وحينما ذهب إليهم لم يستطع أن يكون من المتفرجين كما الباقين، فقد قام بضرب الشاب وأبعده عن الطالب ليستلم هو طرف العراك.



لم يبتعد المتعاركين عن بعضهم إلا وحضرت سيارة الشرطة بينما كانت تجوب الشوارع بجولتها الصباحية المعتادة.

بعد احتجاز الشبان الثلاث ومن بينهم فراس والفتاة لأكثر من ساعة تم إخلاء سبيلهم مع تعهدهم بعدم الاقتراب من بعضهم مرة أخرى، ولو كان أحدهم قد تلفظ بما يسيء للدولة ورأسها لما رأى ضوء الشمس بعد ذلك أبداً.

عاد فراس إلى الجامعة بعدما فاتته المحاضرة الأولى وأثار قلق جهاد عليه.
-اعتقدت بأني سأفقدك إلى الأبد.

-ربما يأتي هذا اليوم الذي لن نرى فيه بعضنا يا جهاد.

أمسك جهاد بيده وضغط عليها وهو ينظر إليه قائلاً:

-أعدك بأن نبقي معاً، وأن أكون بجانبك ما استطعت، حتى ولو كتب الله لنا الشهادة في إعلاء كلمة الحق أتمنى أن نناها سوياً، لا أريد أن أفارقك لا دنيا ولا آخرة، أنت أخي الذي لم تلده أمي.

وضع فراس يده الأخرى فوق يد جهاد وابتسم له وكاد أن يهم لاحتضانه ولكنه ابتعد عنه كيلا يلفت الأنظار، مسح وجهه بيديه وأخفى دمعتهين كادتا أن تتسلا من عينيه .

ابتسم فراس وقال:



- تخيل يا رجل كدت أصبح كبطل رواية القوقعة، لكن لا أعلم لربما أصبحت بطل رواية أخرى، في بلادنا علينا أن نتوقع حدوث كل شيء، جميعنا سنصبح أبطالاً لحكايات لا تنتهي.

- لا تهذي يا صديقي، كلما تذكرت أحداث الرواية أصاب بتشنج في المعدة، قمت بمسحها من على جهاز الكمبيوتر لم أعد أحتمل رؤية عنوانها.

- نصاب بالاختناق لمجرد قراءتها، فما بالك بالذين يعيشونها يومياً وربما أفزع من ذلك.

- لأجلهم خرجنا ولن نتراجع، لأجل كل نفْس ممزوج بصرخات العذاب في ظلمات الأفرع والسجون، لأجل أن يصل صوتهم المكتوم خلف الجدران، لن نتراجع.

- صه، يبدو أننا تمادينا كثيراً في الحديث هنا، دعنا نذهب.

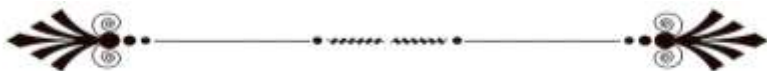
قبل أن ينهض جهاد لفت نظره في يد فراس كتاب بعنوان "عداء الطائرة الورقية" للكاتب الأفغاني خالد الحسيني، سأله:

- من أين لك هذا؟ هل بإمكانك استعارته منك، يبدو من العنوان بأن الرواية مشوقة جداً.

- خذ يا رجل اشترته وأنا في طريقي إلى الجامعة، من الجيد أن صفحاته لم تتلف وأنا في عراكي مع ذاك الوغد.

تناول الكتاب منه بشغف مقلباً في أوراقه ثم نهض وقال:

- هيا إلى الداخل ستبدأ المحاضرة.



(6)

موسيقى هادئة تنبعث من مذياع صغير على الطاولة، حفيف الأوراق التي تقلبها نور لكتاب أمامها، كأس الشاي الذي برد بانتظارها لما تمسه بعد، مشاعر متداخلة تجتاحها، تتنهد من أعماقها محدثة فوضى في الهواء منتهية بالتأفف.

الرسالة التي استلمتها من وليد، قلبت استقرارها النفسي رأسًا على عقب. وليد المعجب السري الذي كسر صمته واعترف بحبه لنور بكلمات سطرها من أعماق قلبه بجبر شوقه ولهفته برسالة سلمها لنور، والتي قابلتها بالصمت رغم تلك المشاعر التي تكنها له وتخبئها في دواخلها.

لهفة البدايات تجتاحها ومع ذلك فهي تحاول كبح جماحها ولم تتجرأ بعد أن تضع قدمها على سلم الحب الذي لا تعرف نهايته ولا ماهية وجوده في هذا الوقت، وإن تزوجت أختها مريم فهناك سنوات كثيرة ما تزال تقف أمامها حتى يحين دخولها إلى قفص الزوجية، وأن تعيش قصة حب، هذا ما يثير شهيتها للتجربة وخوفها من المستقبل في آن واحد.

القلب لا سلطة لنا عليه، ولا قرار لنا به، يقود بنا نحو هاوية الحب دون إدراك، فنجد أنفسنا في القاع، فلا مهرب ولا نجاة سوى صدق المحب ووفائه الذي يحول القاع إلى قمة، الخيال إلى حقيقة والحلم إلى واقع.



وليد شاب خلوق حسن الوجه طويل القامة، عيناه لوزيتان سوداوان، في السنة الرابعة من كلية الآداب اختصاص لغة عربية، يجيد الكتابة بكلمات منمقة، فنان في رسم مشاعره بحروف أدهشت نور.

رسالته التي تشقت ورقتها لكثرة ما تقرأها نور ثم تحيلها إلى قطعة صغيرة بعد أن تطويها مرات عدة ليسهل إخفاءها في جيبها وتبقى مرافقةً لها طوال الوقت.

مجد ينتظر لقاءها بعدما أصرّ على راما لإقناعها بحبه والموافقة على رؤيته ولكنها وفي كل مرة بعد أن توافق على الحديث معه، تتراجع في اللحظة الأخيرة.

هي لا تحبه ولا ترغب في أن تفتح له مجالاً للدخول إلى عالمها حتى ولو من باب الصداقة، ولكنها أرادت أن تجعله يصحو من هذيانه وأنها بعيدة المنال وليست كالأخريات اللواتي وقعن في شباكه ثم تكبر عليهن ليتركنهن جريحات القلب والروح ثم يلقي اللوم عليهن بأنه لم يعدهن بشيء ولم يجبرهن على حبه.

كل مغامراته تتناقلها الفتيات في الكلية ولا تخفى هذه الأشياء على أحد، ولكن راما لها وجهة نظر أخرى، تعتقد بأن مجد هذه المرة قد وقع في حب نور وهو جاد في مشاعره ولن يسمح أن تضيع من يده، وباعتقاده أن الحياة ميزته عن أقرانه من الشباب ولا شيء ينقصه لا جاه ولا مال ولا علم، وأن



مكانة والده في الدولة تتيح له الحصول على كل ما يريد مهما كان صعباً وأن ترفضه فتاة هذا ما لم يعتد عليه ولا تقبل به نرجسيته.

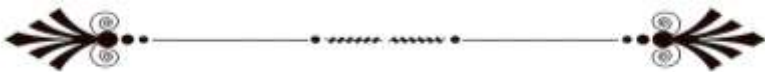
في ذلك اليوم حينما كان بانتظار نور ظاناً بأنها تنازلت عن كبريائها أخيراً وستأتي إليه طوعاً، كان ينظر إليها وهي تمشي أمامه ثم تجاوزته دون أن تلتفت، لحقت بها راما دون أن تدركها، توقفت عند مجد الذي رمى بالوردة من يده ودهسها تحت قدميه، مخبراً إياها بأن نور لن تفلت من يده مهما فعلت، وبأنه لن يسمح لأحد الاقتراب منها وإلا ثكلته أمه.

راما خشيت كثيراً على نور، نصحتها أن تتنازل قليلاً عن كبريائها غير المبرر، وتعطي فرصة لتستمع إلى مجد، علّها تراه عن قرب أكثر ولئلا يؤذيها أو يؤذي أي شخص لربما وقعت في حبه.

الخوف على وليد من مجد أحد الأسباب التي جعلتها تقابل رسالته بالصمت. وليد الذي نشأ في المخيم الفلسطيني ذاك الحي المحاذي لجامعة البعث والذي تم وضع حاجزين عسكريين في مدخله ومخرجه لمحاولة ضبط الحي ولتحجيمه عن أحداث الشارع وعدم انخراط اللاجئين الفلسطينيين في المظاهرات القائمة ولأجل منع تسلل الفارين والمطلوبين إليه، على الرغم من الهدوء الأمني الذي مازال مسيطراً على المخيم تلك الأثناء إلا أنه لم يخل من بعض الحالات الفردية التي يقوم بها بعض الشباب الفلسطيني الذي تجمعته وحدة الحلم بالحرية والديمقراطية والخلاص مع الشعب السوري آنذاك، فقد تولوا مهمة إسعاف الجرحى ونقل الشهداء إلى المشافي الميدانية



التي كانت حديثة الإنشاء في البيوت، بعيدًا عن أعين الأمن الذي لا يتوانى
عن اعتقال أي متظاهر يقع تحت يديه، حتى ولو كان جريحًا ويتلقى العلاج
في المشافي الحكومية.



(7)

وليد يبعثر كتبه الجامعية على الطاولة، يُخرج مجموعة من الأوراق البيضاء من الجارور السفلي لمكتبته، ويضعها بجانب الكتب، نسمات ربيعية تداعب الستائر التي تعلو نافذة غرفته الصغيرة والتي تطل على شرفة مليئة بأقاصيص الزهر المختلفة.

تقع غرفته في الطابق الثالث من بناء مؤلف من ثلاث طوابق، مساحة كل واحد منها لا يتجاوز الخمس وسبعون مترًا مع غرفة أخرى لأخوته الأصغر سنًا، وغرفة صغيرة محاذية لغرفته لأخته الصغيرة، بينما تتوسط غرفة المعيشة الطابق الثاني بأثاث بسيط مكون من ديوانيتين تتوسطهما طاولة خشبية في وسطها فازة زجاجية تحوي باقة ورد بلاستيكية ملونة وفي الجدار المقابل للباب صورة لخارطة فلسطين ومفتاح العودة، الحلم الذي يتوارثه الفلسطينيون من جيل لآخر، وغرفة أخرى صغيرة لمبيت الوالدين ومطبخ صغير وبيت خلاء تعلوه سقيفة، حيث يضم الصالون جميع الأبواب الأخرى دون وجود مداخل أو ممرات، أما الطابق الأرضي فقد كان يحوي مستودعًا ودكانًا يضع فيها والده صناديق الخضار والفواكه التي يأتي بها كل صباح من سوق الهال الواقع شمال مدينة حمص.

يصل بين الطوابق الثلاث درج رخامي عتيق ضيق المساحة، بالكاد يستع لشخص واحد.



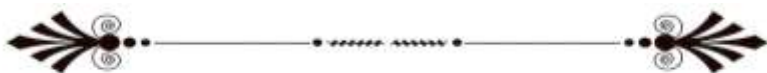
أمسك وليد بقلم حبرٍ أزرق وبدأ يخط به على الأوراق أمامه ما يفيض داخله من كلام يود قوله لنور، ثم ما لبث أن كَوَّر الورقة بيده ورمها أرضاً، حتى باتت أرض الغرفة مرتعاً للورق الأبيض المكور.

رسالته التي استلمتها نور ولم يرده جواب عليها، حفظت رسم أحرفها لكثرة ما قرأتها، وهو باعتقاده أنها مزقتها فور وصولها ليدها، ما جعله محبّطاً متردداً في أن يخط لها رسالته الثانية.

طرقاً على الباب جعلته يهم واقفاً، ينظر حوله ليرى الأوراق المكومة أسفل السرير وقرب الباب، أسرع في جمعها وجعلها تختبئ خلف الباب، ما ساعده حجم غرفته وضيق مساحه أرضيتها في إنجاز مهمته قبل أن يُطرق الباب للمرة الثانية.

أطلّت من خلف الباب ابتسامة تعلو وجه ليلي ذات الخمسة عشر ربيعاً، الأخت الوحيدة و الصغرى لوليد والأكثر قرباً منه، تحتضن بيديها كتباً مدرسية تشدها إلى صدرها، شعرها الخرنوبي ينسدل ناعماً على كتفيها، وعيناها اللوزيتان تنظران بود إلى وليد الذي بات دائم الانعزال في غرفته في الأيام الأخيرة لا يخرج منها إلا لتناول الطعام مع عائلته أو للجامعة، يمضي وقته في قراءة الكتب والروايات أو في الكتابة بالإضافة لدراسته لكتب المنهج المقرر في الجامعة.

الأمر الذي يميزه عن أخوته الأصغر سنّاً ماجد وأحمد الذين فضلوا العمل الحر اليومي على الدراسة، دأبهم كأغلبية الشباب الفلسطيني في المخيم، فيما



وليد يخرج كل صباح بتياب نظيفة وشعر مرتب إلى الجامعة، كان أخوته يسابقون أشعة الشمس في تسلق الأبنية وتشبيدها وخطط الاسمنت الذي اتحد بجلدهم الخشن، ما جعل أجسادهم أشد بنية وصلابة.
-أهلاً ليلى..

-هل سأنتظر طويلاً هكذا على الباب.
-هل أفهم منك أنك تريدني أن تدرسي في غرفتي؟
أزاحته بكتفها ودلفت إلى الداخل وهي تقول له:
-أولاً، أريد منك أن تساعدني في حل مسألة الرياضيات، وثانياً اشتقت لأخي وأريد أن أبادل معه بعض الأحاديث، هل لديك مانع؟
-لم يعد بإمكانني أن أمانع ها قد أصبحت في قعر غرفتي ومن المعيب عدم استقبالك يا صغيرتي.

ضحكاً معاً ثم صمتت فجأة بعدما راعها منظر الورق المكور والمكوم خلف الباب وفي مناطق متفرقة من الغرفة.

-ما هذا يا وليد، هل ستطلب مني تنظيف كل هذا؟
انحنى للأسفل وهي تضم كتبها إلى صدرها ثم التقطت ورقة من على الأرض، كادت أن تفتحها لولا أن وليد اختطفها من يدها ورمها أرضاً.
-اتركيها أنا سأتولى مهمة تنظيف غرفتي غداً، الآن اجلسي.
-ما هذه الأوراق يا وليد؟ ولماذا نالت عقابها منك هكذا؟ ما الإثم الذي فعلته حتى جعلتها تتكور باكية على الأرض.



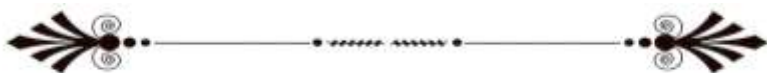
ضحك وليد ثم قال: مشروع رواية فاشل لا عليكِ دعينا منها وهاتِ ما عندك، لأنني كنت سأنام لولا أن جئتِ، لكن لأجلك سأسهر قليلاً. رmqته بنظراتها غير مقتنعة بكلامه، وليد الذي يسهر لوقت متأخر من الليل سينام مبكراً وفي ليلة العطلة؟ تمتت في نفسها بينما اكتفت بالصمت وعدم سؤاله مرة أخرى، متأكدة بأن خطب ما يشغل تفكيره.

في الجانب الآخر، كانت سهرة عائلة مريم تلك الليلة أكثر صمتاً عن ذي قبل.

على شاشة التلفاز وعلى إحدى القنوات المحلية كانت المذيعة تتحدث عن المؤامرة التي تتعرض لها البلاد، وعن حكمة الدولة في التعامل معها، وبأن الشعب برمته يقف وجهاً لوجه أمامها للحفاظ على البلد وأمنه، مع لقاءات تلفزيونية مع بعض المارة في الشوارع للتعبير عن رأيهم بحرية، تلك الحرية المزعومة والتي كانوا يلقنوها للناس ليتحدثوا بها على العلن بعفوية مصطنعة.

نهض جهاد وأطفأ التلفاز وعاد إلى مكانه يقلب صفحات كتاب بين يديه، نظر إليه والده ثم قال: خيرٌ ما فعلت.

ثم ساد الصمت في المكان برهة من الزمن حتى كسرت مريم بصوتها وهي قادمة من المطبخ تحمل صينية عليها أكواب الشاي:
-لقد أعددت لكم كيكة الشكولاتة ستعجبكم كثيراً.



ابتسمت والدتها التي كانت مشغولة بالتطريز على قطعة قماش بيضاء مشدودة بإطار خشبي بواسطة إبرة ناعمة وألوان زاهية تقول بأنها تجهز العديد منها من أجل زفاف مريم، شيء من التراث لا بد أن يكون حاضراً في بيت كل عروس تتباهى به أمام الزائرات لتلبسه للوسائد ومنه ما يوضع على الطاولات.

وضعت الصينية على الطاولة وعادت إلى المطبخ لتحضر الكيكة، تنهدت أم جهاد وقالت:

-أرجو من الله أن تهدأ أوضاع البلد وأفرح بعرس ابنتي، اللهم لا تحرمها فرحتها.

-آمين، آمين..

ارتفع صوت الأب ومع ابتسامة حاول جاهداً أن تكون طبيعية ليخرج عائلته من هذا الجو الذي فرضته عليهم أحداث الشارع.

توزعت الأكواب على أفراد الأسرة وقطع الكيك الذي جاءت به مريم، قليل من المزاح بادرت به نور، ليضحك الجميع عدا جهاد.

نكرته نور بيدها لينتبه لها ثم قالت:

-منذ متى لم نتبادل الضحكات سوياً ولم تحل معي الألغاز، هل تعتقد إن أصبحت جامعياً يعني كبرت وبات قضاء الوقت معي ليس من دواعي سرورك.



ابتسم لما تقوله أخته ثم قال:

-من دواعي سروري أن تتناولى الكيك وفمك مغلق كي لا تظهر أسنانك المليئة بالشكولاتة وكأنها مصابة بالتسوس.
-شرير.

ضربته على ركبته واستدارت عنه وبدأت بشرب الشاي وهي ترمقه بطرف عينها وهو كان يزعم شفتيه لمنع نفسه عن الضحك.
-ما أجهل أن تعود البهجة إلى أحاديثنا ونبعد عن قلوبنا شبح الخوف والترقب.

قالتها مريم وجلست بالقرب من والدها.

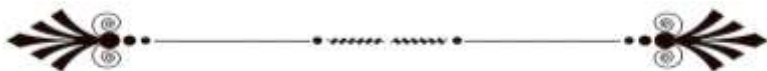
-ربما لستم معتادون على ما يحدث.

-وهل أنتم معتادون يا أبي؟

-ليس اعتياداً، لكنه ليس بالجديد علينا، ولا يخفى على من في عمرنا ما الذي يمكنه أن يحدث إذا تطورت الأمور، والفرق أن في هذه الأيام يصل الحدث بسرعة البرق بواسطة الإنترنت، أما على زماننا لم يكن عامة الناس يعلمون شيئاً، إلا ما يمكن أن ينقله أحدهم حتى أنه لم يكن الحديث عن تلك الأحداث بتلك الحرية كما يحدث الآن.

-وما يحدث الآن لا يتم الحديث عنه بمصادقية مع الأسف.

قال جهاد وهو يضع كأس الشاي على الطاولة وتبادل النظرات مع أخته مريم.



- وكيف تعلم أنت؟ سألته.
- لا عليك، كما قال والدي، الإنترنت يوصل الأخبار بسرعة البرق، لكن للأسف لا يتم التصريح بها على قنوات الأخبار، من سيصدق؟
- وماذا يحدث أخبرنا؟ سألته نور:
- لا شيء، أخبركم فيما بعد، حتى نتأكد تمامًا مما يجري.
- ومن ينقل لك الأخبار يا جهاد، إياك والتورط يا ولدي، لا تكتب شيئاً على مواقع التواصل كلها مراقبة.
- سأله والده بقلق.
- لا تقلق يا أبي، أنا حذرٌ بمثل هذه الأمور، صديقي حدثني قليلاً عما يدور في حارتهم، شبان طائشون يقومون ببث الرعب في قلوب الأهالي يخبروهم بأن إرهابيين من بلدان بعيدة قد جاءوا إلى هنا وهدفهم القتل، ستتألف القصص والحكايات كثيراً، لا عليكم الحديث يطول، أستأذن منكم أنا ذاهب إلى غرفتي لأدرس.
- رمى بكلماته هذه أمام الجميع وانسل إلى غرفته ليعفي نفسه من إكمال الحديث.
- التوتر بدا جلياً على جميع الوجوه، وأم جهاد قد وضعت من يدها طارة التطريز وكوب الشاي لم تمسه بعد، وحينما لاحظ الأب قلقهم أراد أن يفتح حديثاً آخر، موجهاً سؤاله لمريم التي كانت تجلس بجانبه وتنظر إليه وكأنها ترجو من ملامحه الأمان.



- ما أخبار صهرنا الغالي؟
تورد خدي مريم حينما جاء ذكر خطيبها ثم ابتسمت وقالت:
- بخير، يسلم عليك.
- وعليه السلام، كيف تجري الأمور في حارته؟
- هادئة نوعًا ما، لم أكلمه اليوم بعد.
- وماذا تنتظرين؟
ارتبكت خجلًا لما تسمعه من والدها وقالت:
- أنا الآن أمضي الوقت معكم، أحدثه فيما بعد.
ضحك والدها حتى بانت نواذجه، ربت على كتفها وقال:
- رضي الله عنك يا ابنتي وأسعدك في الدارين.
قبلت يده ووضعتها على جبينها ثم أخفضتها وما زالت تمسك بأصابعه
وكفه بكلتا يديها، كأنها تستمد منه الدفء والطمأنينة، فلا شيء يبعث
في نفس الفتاة أمانًا وقوة كما يفعله وجود أبيها بالقرب منها.

الإثنين 18 نيسان 2011

تمضي النساء في السوق وقتاً طويلاً وهنّ يتنقلن بين المحلات يساو من على الأسعار ويبحثن عن أجمل الموديلات وربما عن قطعة نادرة لم ترها إحداهن في خزانة عروس قد عرضت محتوياتها للمرة العاشرة أمام الجارات والقريبات، يتباهين بالفساتين الملونة والمزركشة، وملابس النوم المصنوعة من الساتان والحرير.

الأحذية المختلفة ذات الكعب العالي والتي غالباً لا ترتديه العروس إلا بضعة أيام ثم ترميه في خزانة الأحذية وتستبدله بجذاء رياضي خفيف لسهولة المشي، ولتستطيع السباق مع الحياة ومشاغلهما بين البيت والعمل أو السوق وزيارة الجارات، حيث يدعين بعضهن منذ ساعات الصباح الأولى على فنجان قهوة وبعض الحلويات، يتبادلن فيها الأحاديث الصباحية التي تُغني عن سماع نشرة الاخبار، وكأنها إذاعة محلية للحي بأكمله، من أخبار الزواج والطلاق والحمل، المشاكل الزوجية والعائلية، وحديثاً بات حديث الشارع الأكثر تداولاً، مع الحرص على عدم تسمية الأشياء بمسمياتها أو الحديث بشكل صريح عما يحدث، لأن الناس يعلمون أن للجدران آذان كبيرة تلتقط أحاديثهم وتزجهم في غفلة منهم في "بيت



خالتهم"، إن ما تعثر أحدهم بلسانه وانزلت من فمه الأحاديث المحرمة سياسيًا، ولا يعلمون من هو صاحب الخط "الحلو" من بينهم.

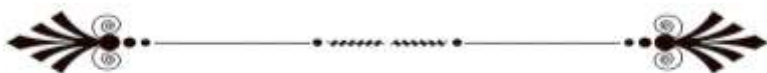
الباعة المتجولون وأصحاب العربات التي يجرونها في السوق، بائع غزل البنات وبائع كاسات الفول المدمس، ومن ينادي الناس لي تجربوا السحلب الساخن.

الميزان الالكتروني الذي غالبًا ما يكون معطلًا يستعطفهم مالكة الجالس بجوار الحائط على الرصيف ليروا وزنهم زاد أو نقص، لا يهم طالما أن وزنهم الأمني ثابت ودمهم خالي من الثورية، وتحاليل سيرتهم الذاتية نظيفة.

لا أحد يعلم أي رجل منهم يجر عربته ساعيًا للرزق الحلال أم للرزق المسيس المدسوس من قبل المخابرات، وما أكثرهم تعرف سيماهم في وجوههم عيونهم كعيون البومة وأعناقهم كذلك تمتاز بالتفافها في جميع الجهات والتقاط أقل الاشارات.

لذا عليك أن تكون حذرًا من أن يزلق لسانك بكلمة وأنت تعبر الطريق كي لا تتعثر وتسقط على وجهك في أحد الأقبية المظلمة.

أنهت مريم ووالدتها التجوال في سوق "المقبي"، مرورًا بشارع الدبلان ومحلاته الراقية، تناولن البوظة من محل اليافي الشهير، وتابعن طريقتهم حتى حديقة الدبلان ومن ثم إلى مطعم كريدش ليختمن مشوارهن بوجبة شاورما.



كانت الحركة في الشوارع طبيعية نوعًا ما، مع بعض التحركات لعربات الحيش، وهدوء غير مسبوق قبل صلاة الظهر، رن هاتف مريم لتتلقى اتصالًا من أخيها جهاد يحثهن على الإسراع في العودة إلى البيت قبل إقامة الصلاة، دون أن يتحدث صراحةً عما سيحدث.

- أين جهاد؟

- أوصلني إلى البيت وغادر، لم يخبرني إلى أين.

- محنون هذا الولد.

سألت مريم أختها نور عن جهاد، بعد عودتهن من السوق الذي بدأ بإغلاق أبوابه تزامنًا مع صلاة الظهر، واستعدادًا للصلاة على الشهداء الذين سقطوا برصاص الأمن بعد خروجهم في مظاهرة يوم الجمعة منذ أيام، وقد تقرر الصلاة عليهم في جامع حمص الكبير، الذي شهد احتشادًا كبيرًا للشباب على غير العادة، لم يكونوا من أبناء المدينة وحسب، بل تجمع الكثير من أبناء الريف أيضًا للمشاركة في التشييع.

وقف جهاد بين صفوف المشيعين برفقة فراس وعامر، وتجمعوا في ساحة الساعة الجديدة بعد العودة من دفن الجثامين، الآلاف من الشباب والأطفال والنساء، أعلنوا الاعتصام والتمرد وعدم المغادرة قبل تلبية مطالبهم التي ارتفع سقفها إلى إسقاط النظام.

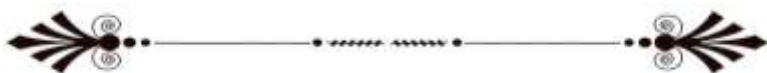
كانت الساحة كمرجل يغلي غضبًا على أرواح الشهداء الذين سقطوا في مظاهرات يوم الجمعة على يد قوات النظام الذي يعلن بدوره أن عصابات



مسلحة ومندسين هم من يطلقون النار على المدنيين والعسكريين لأجل الفتنة.

ساحة الساعة تقع وسط مدينة حمص في شارع القوتلي الذي يصل بين الساعتين القديمة والجديدة التي كانت عبارة عن برج طويل بزوايا أربع تعلوه ساعة على كل وجه، يتميز البرج باللونين الأسود والأبيض، والذي شيد عام 1958 بمساهمة مغتربة سورية من المدينة تدعى (كرجية حداد)، وقد كانت الساحة مسرحًا قبل الثورة لمسيرات المبايعة والتأييد، وخلال الاعتصام أعلن الأهالي اسم الساحة (ساحة الحرية) ولاحقًا أصبحت أكثر شيوعًا من الاسم القديم.

حجبت الغيوم شمس ذلك اليوم، وكأنها تستعد لحدث عظيم، لأول مرة تشهد المدينة اعتصامًا بهذا الحجم، صفوف متراسة وهتافات، أقاموا صلاة العصر في مشهد مهيب، يجمعهم حلم واحد، حلم لطالما كان يزور خيالاتهم سرًا، لا يتجرأون حتى أن يجعلوه يتمادى أكثر في تفكيرهم، ولكن في هذا اليوم كسروا حاجز الخوف ووقفوا حاملين آمالهم يتطلعون بها نحو السماء، صفوف المصلين تحيط بها أرتال من باقي الطوائف، تتشابك الأيدي وتتكاثر ليصنعوا جدارًا بشريًا يسترهم عن أعين قوات الأمن التي تترصد بهم بالقرب من الساعة القديمة، هل كان يقينًا بأن حلمهم سيتحقق أم أن السماء تستعد للاحتفال بهم على طريقتهما؟.



أغاني ثورية وهتافات، أعلام تخفق فوق رؤوسهم، عرس وطني ولكن هذه المرة لم يكونوا مجبرين عليه، ولا يهتفون بما يملى عليهم، يطالبون بالحرية التي مكثوا أكثر من نصف قرن يخشون حتى التفكير بها، الحرية المحرمة في بلادنا العربية.

أن تكون مواطنًا يعني أن ترتدي فوق رأسك قناع يحدد رؤيتك ووجهتك وحتى هدفك، تمامًا كذاك الذي يوضع على وجه الحصان ليرى أمامه فقط ويمشي كما يوجهه صاحبه لا كما يحب هو أن يسير.

جهاد يتلقى اتصالًا يغلق هاتفه ويهمس في أذن فراس، يتقدم فراس بين الجموع يتحدث مع أحدهم ثم يعود إلى مكانه.

- الشباب أغلقوا كل المداخل، ويراقبون الطرقات، ما أجملهم لقد صنعوا طوقًا بشريًا لحماية المتظاهرين، وما أجملنا حينما نتوحد ونقف جنبًا إلى جنب في وجه الظلم.

نادى جهاد بصوته معلنًا عن فرحه بما قام به أصدقاء فراس وأبناء حي الحميدية:

- حرية، حرية، إسلام ومسيحية.

فرددت الجموع خلفه بكل فرح وحماس، لكز عامر جهاد وأشار له بيده نحو فتاة تتوسط الجموع:

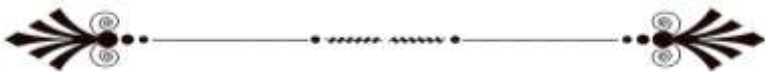
- انظر إنها الفنانة فدوى سليمان تشارك في الاعتصام.
صرخ جهاد متحمسًا:



- الله أكبر، فنانة تخرج وتطالب بالحرية ولم تخش من ابن طائفتها.
-الاعتصام يشارك به جميع الطوائف، والكثير من الشخصيات المعروفة،
انظروا هناك على المنصة حارس فريق الكرامة الساروت يغني بحنجرة
ذهبية، هكذا يجب أن يكون الاعتصام، وهذا مانريده، لأنها ثورة شعب
واحد ضد الفساد. صرح فراس

- واحد واحد واحد الشعب السوري واحد.
بدأت الهتافات تعلو أكثر فأكثر، والأغاني الثورية بلغ عنانها السماء،
تتراقص الأعلام فوق الرؤوس، الأيادي تحمل الورود رمزًا لسلمية
الاعتصام، شباب ينظمون التجمع ويحرصون على توفير كل ما يحتاجوه،
نُصبت بعض الخيم ليقيم فيها النساء والأطفال وكبار السن، شاركت
النساء في تأمين الطعام والشراب، ووقفن جنبًا إلى جنب مع أبنائهن
وأزواجهن لدعمهم، دون علمهنّ بأنهنّ مشروع خنساوات قادم.
الأحياء البعيدة عن مركز المدينة ساد فيها الهدوء والخوف والترقب لما هو
قادم، هل سينجح الاعتصام وتخضع الحكومة لمطالبهم كما حدث في مصر
وتونس بعد خروج الشعب بأكمله في اعتصام سلمي لم يفضّوه حتى
تحققت مطالبهم، أم في هذا الوطن سنشهد سيناريوهات مغايرة؟
- مالذي يفعله ذاك الشيخ، وما الذي يريد أن يقوله للناس؟ قالها جهاد
لفراس.

-ربما يريد أن يلقي فيهم خطابًا، ويحثهم على الاستمرار والصمود.



- لا أعتقد انظر إليه كيف يتحدث مع الشباب، لا تبدو ملامح وجهه مبشرة بالخير، يبدو خائفاً ومضطرباً.

- سأقدم قليلاً للأمام لأعرف ما يحدث وما يتحدثون به.

تقدم جهاد باتجاه منصة الساعة ليعرف ما يدور هناك، الشيخ ومجموعة من منظمي الاعتصام يتحدثون بأمر ما، سمع من أحدهم يقول:

- هناك تهديدات بإطلاق النار إذا لم نغادر المكان، وإلا جعلونا نغادره أمواتاً أو معتقلين.

سمع آخر يقول: لن نغادر وإن لم يتبق إلا رجل واحد هنا، دماء الشهداء لن يذهب سداً، ولن نسكت على هذا الظلم، يواجهون أيدينا التي تلوح بالسلام بسلاحهم القاتل، إلى متى سنبقى تحت مقصلة حكمهم التي تقص أحلامنا وحريتنا صبح مساء.

همسات وأحاديث كثيرة، البعض بدأ بالانسحاب، تركوا الجموع وغادروا المكان.

- ما الذي يحدث، لماذا تذهب الناس، أين الشباب، أين الحماس الذي كان منذ ساعات، علينا الصمود حتى يلبوا مطالبنا، متى ما شاهدوا أعدادنا قليلة سيسهل عليهم طردنا من هنا، أما إن خرجنا جميعاً واحتشدنا في كل الشوارع سنصبح حديث العالم وسيتحركون لأجلنا.

- لن يتحرك أحد وإن خرجت حمص بكل طوائفها، وإن خرجت سورية بكل سكانها.



- وإن متنا، لن يأبه لموتنا أحد.

- لن نتحرك من هنا، الموت ولا المذلة.

صدحت الحناجر بصوت واحد، الموت ولا المذلة، الموت ولا المذلة.

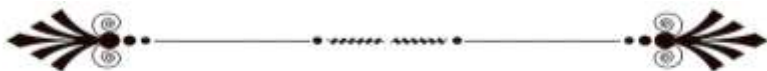
قفز أحدهم واعتلا منصة الساعة وبدأ بالهتاف (الي ما بشارك، ما فيه ناموس) وبدأت الجموع بالترديد خلفه.

- ما الذي يهذي به هذا الرجل، خرجنا لأجل الحرية وهو غير مدرك لمعناها، بهتافه هذا يثبت أن التغيير يجب أن يبدأ من عقولنا، نطالب بالحرية ونتهم من لا يشارك بقلّة النخوة، الحرية يجب أن تبدأ من هنا، سأغادر المكان ولا يجب أن يتهمني أحدهم بانعدام الضمير، أنا حر ولا أعتقد أن مثل هذه العقول ستحكمنا بأفضل مما كنا عليه.

-الأمر هنا مختلف، واجب على الجميع أن يهبوا في وجه الظلم، الساكت عن الحق شيطان أخرس.

- الأمر ليس كما تتخيلون، نحن في بلد ديكتاتوري، جميعنا يعلم جيدًا ما يمكن للنظام أن يقوم به دون أن يرف له جفن، تاريخنا يتحدث عن ذلك ورأينا كيف وقف العالم صامتًا فوق جثث آبائنا، ما أسهل أن يُخرس صوتنا بضربة رصاص واحدة وإلى الأبد..

-جبناء، أنتم جبناء، هذه فرصتنا، إلى متى سنبقى صامتين خائعين راضين بالذل والإهانة، دعونا نقف وقفة رجل واحد أمام الظلم، إذا اتحدنا جميعًا لن نستطع أحد كسرنا، يجب أن نجتث الخوف من قلوبنا، من حقنا أن



نعيش في بلدنا أحرار، نختار مصيرنا بأنفسنا لا هم يختاروه لنا، إلى متى سنبقى تحت رحمتهم، إن لم نحقق مرادنا في العيش بكرامة، يا مرحبا بالموت.

كثر الجدل وانسحب قسم كبير من المعتصمين، وخاصة بعدما وردتهم تهديدات بإطلاق الرصاص إن لم يُفك الاعتصام، تدخل أحد مشايخ المدينة محذراً الناس، مؤكداً لهم بأنه لا يخشى على نفسه بقدر خشيته على أرواحهم.

أغلق جهاد هاتفه لكثرة ما وردته اتصالات من أهله، بعدما أرسل لهم برسالة بأنه صحبة فراس في إحدى المكتبات، لكن أهله بعدما علموا بالاعتصام لم يصدقوا حجة جهاد وألحوا عليه بالعودة إلى المنزل.



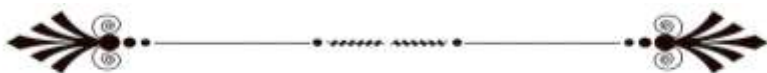
(9)

نور تقلب في هاتفها المحمول الجديد الذي اشتراه لها والدها منذ أيام، تصور كل ما يأتي أمامها، تقف أمام المرأة تلتقط صوراً لنفسها، تصور والدتها التي تجلس في غرفة الجلوس وهي تسبح بسبحتها الألفية التي جاءت بها جدتها من الحج، القلق على جهاد وعلى ما يحدث في المدينة مرسوم على وجهها، تصور زهور الشرفة التي تتميز بألوانها الجذابة، تتوجه نحو غرفتها لتصور رسوماتها، تقف أمام النافذة تلتقط صوراً للشارع الخالي من المارة، “هذا الهدوء الغريب في هذه الساعة يستحق أن يخلد في صورة” تحدث نفسها...

من اخترع هذا الجهاز الصغير قدم لنا خدمة كبيرة، اختصر علينا الكثير من الوقت، وجعلنا نخلد كل لحظتنا بكبسة زر، لم نعد ننتظر تضيئ من اسطوانة سلبات الصور التي نخرجها من كاميرا التصوير بعدما تمتلئ، ولم نعد ننتظر المناسبات أو الرحلات حتى نلتقط صوراً لنا، بجهاز صغير يوضع في الجيب، بتنا نحمل مئات الصور والذكريات.

هذا الاختراع الصغير ترتفع به الأيدي في ساحة الساعة الجديدة وتصور الجموع التي تصدح بالحرية، جهاد ينقل بثاً مباشراً إلى إحدى القنوات، وينقل تفاصيل الاعتصام لحظة بلحظة.

تسلل الليل إلى المدينة كما تسلل الخوف إلى بعض النفوس، وعيون ذئاب المخابرات تترصد بهم تنتظر الفرصة الحاسمة للانقضاض عليهم، ارتفعت



أصواتهم مهددة في مكبرات الصوت لإفراغ المكان، لكن الرد عليهم كان بارتفاع الهتافات مطالبة بإسقاط النظام.

على الرغم من انسحاب الكثير من الناس حتى حلول المساء، إلا أن الساحة ما زالت تعج بالمحتجين من كافة الأطياف والأحزاب الذي يقارب عددهم الثلاثة آلاف أو ما يزيد.

الآمال المعلقة في سماء طموحاتهم، وحلمهم بالحرية والتخلص من القيود التي فرضت عليهم منذ أكثر من نصف قرن، اعتقد البعض بأنها قاب قوسين أو أدنى من أن تتحقق إن هم عزموا على التمسك بها وعدم التراجع، لكن في وطن تسوده الديكتاتورية خروجك يؤدي بك إلى أحد الطريقين، إما موت مباشر أو موت مؤجل، وعلى جميع الأحوال أنت ميت وإن بقيت في قعر دارك تتلمس الأمان من الجدران التي باتت تسقط فوق رؤوس ساكنيها بسبب قذيفة أو صاروخ.

تتطاير الأحلام مع الأرواح محلقةً إلى باريها، الحلم في الذاكرة لم يكتمل بعد، تم وأده قبل أن يبصر النور، الأحلام الوردية بنيل الحرية والكرامة باتت حمراء قانية تسيل على الأرض تتفجر من العروق التي مزقتها رصاص الأمن بعدما بدأت تنهال عليهم بغزارة ووحشية.

أزيز الرصاص يمزق صمت الليل، ويُسكت الحناجر التي كانت تصدح منذ ساعات، ينطفئ النور في الأعين التي كانت تتطلع بشغف إلى مستقبل مشرق، لكنهم أطفأوا حتى الشمس ولم يطلع الصبح عليهم إلا وهم جثث



مزقها الرصاص تسبح في بركة من الدماء التي حولت ساحة الحرية إلى ساحة حمراء تبكي معتصميها.

الشوارع التي تتفرع من الساحة امتلأت بالهاربين، أحدهم يجر جسد أخيه الذي يئن ويترك وراءه على الأرض خطوطًا من دماء تكتب على اسفلتها حكايات شعب أنهكه الصمت والخوف.

وآخر يسقط شهيدًا برصاص أحد القناصة الذين اعتلوا أسطح المباني المجاورة.

تكبيرات ترتفع من المآذن تحت على الجهاد، وتلاوة من القرآن الكريم بصوت عذب يخرج من مئذنة جامع خالد بن الوليد، تم اسكاته مع عدم معرفة مصير قارئه وما حل به.

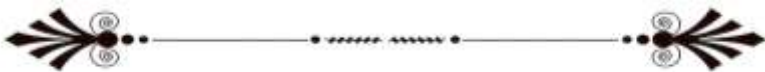
يترك وليد غرفته راكضًا نحو غرفة والديه الذين يراهما مستيقظين، يفتح خزانة والده باحثًا عن المسدس، يمسكه والده من الخلف رادعًا إياه.

- أرجوك يا والدي دعني أخرج إلى الجهاد، أخوتنا في الخارج يذبحون.

- ما الذي سيفعله مسدس يا بني أمام رشاشاتهم ومدافعهم.

-أنسيت يا والدي بأن أطفالنا في فلسطين تواجه رصاص الاحتلال بالحجارة، على الأقل هذا سلاح ويأمكنني أن أقتل به ولو رجل واحد.

- الأمر هنا مختلف، في بلدنا احتلال، أما هنا ثورة شعبية، القاتل والمقتول من أرض واحدة، الأجدر بنا أن نقف على الحياد، وندعو الله بأن تمر هذه الفتنة على خير.



خلال دقائق فرغ المكان إلا من عناصر الأمن والجنود الذين يدوسون الجثث بأقدامهم، اعتلوا منصة الساعة والتقطوا صورًا تذكارية يخلدون فيها جرمهم الذي يحسبوه انتصارًا.

جاء الصباح حزينًا لا يشبه أي صباح، سيارات البلدية تقوم بغسل الدماء التي بدت كنهر جاري، الجثث تكدست في عربات كبيرة لدفنها في قبور جماعية دون تحديد هوية أصحابها أو إبلاغ ذويهم، والجرحى يئنون على باب المشفى العسكري الذي كان مسلخًا لا أكثر.

أم جهاد تبكي بصمت، تخشى أن يرتفع صوتها ويسمع الجيران مأساتها، دموعها تحفر على خديها خطوطًا تضيف على خطوط الزمن حكاية جديدة، كدأب الأمهات الأخريات اللوات يبكين أبناءهن الذين لم يعودوا من الاعتصام ولم يعرف بعد إن كانوا أمواتًا أم أحياء، هارين أو جرحى..

كانت حمص تبكي أبناءها ذلك اليوم، ترتدي الحزن رداءً طويلًا، كرداء الجذات تضم تحتها أحفادها، تسدل على وجهها خمارًا تخفي خلفه جمالها وحزنها، ولم يبقَ ظاهرًا سوى سواد الظلم والقسوة.



(10)

باتت الأيام تمضي على وقع الرصاص، وتناثر الحواجز العسكرية في الطرقات، في كل شارع وعلى مداخل المدن، استنفار عام يشل الحركة، ويزرع الخوف في الأفئدة.

-أشعر بالاختناق.

-لماذا يا حبيبتى ما الأمر؟

-لا أعلم يا أسامة لا أعلم من كل شيء.

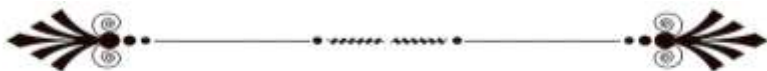
-أخبريني ما الذي يضايقك قولي، ألم نتفق بأن تخبريني بكل شيء ولا تتردى لحظة في الاتصال علي.

-صحيح ولكن....

لم تستطع أن تكمل ما تقوله وأجهشت في البكاء، هي عاداتها لا تقوى على حبس دموعها كلما اجتاحت العواصف نفسها سواء إن كان أمراً يخصها أو لا، كشجرة ندية أوراقها هشة سرعان ما تتمايل مع الريح.

-حسنًا، أرجوك لا تبكي، أنا لا أتحمل دموعك أشعر بها تحرق جوفي، لأجلى أمسحي دموعك وسآتيك في الحال.

-لا ليس الآن، أقصد لا أريد أن نلتقي في البيت، أشعر بأن جدرانها تطبق على صدري.



لم يدعها تكمل قولها فقال لها:

-اتفقنا إذن جهزي نفسك سآتي في الحال لاصطحبك في جولة صغيرة
وبعدها نتناول الغداء في أحد المطاعم، لن أتركك حتى تكوني في أحسن
حال وابتسامتك لا تفارق وجهك.

-ولكن..

-لكن ماذا؟ ما الأمر؟

-الوضع في الشارع، كيف سنتجول؟

-وماذا علينا نحن؟ مواطنان يتجولان بسيارتهما في مدينتهما هل هذا
محظور أيضًا؟ الوضع ليس خطيرًا كما تتصورين، هيا جهزي نفسك
سأخرج في الحال.

كان ذلك اليوم قد استيقظت فيه مريم متعبة، أخبرت المحامي الذي تعمل
عنده بأنها تلازم السرير ولن تأتي إلى المكتب، مضت نهارها بين فناجين
القهوة تكتب في كراستها بعض المذكرات، تنظر من النافذة نحو الشارع
شبه الخالي، تلمح جنودًا يحملون البنادق يتجولون ذهابًا وإيابًا، المظاهر
العسكرية الجديدة على البلاد يضطرب له الهدوء، وباتت الحياة مثقلةً
بالتوتر.

بعد اتصالها بأسامة جهزت نفسها، وانتظرت قدومه، على بساط البحث عن
الطمأنينة غادرت معه في سيارته، اقتربت منه حتى التصقت به، شبك
أصابعه بأصابعها وكان الصمت هو الحاضر بينهما.



جابت السيارة التي تحملهما شوارع المدينة، أوقفتها الحواجز في رأس كل شارع، الهويات الشخصية تنتقل من يد لأخرى، عسكري يلتف حول السيارة، يفتش جيبها والمقاعد الخلفية، ثم يضرب بيده على جسد السيارة أمراً إياهما بمتابعة طريقهما.

كان يخفق قلبها عند كل نقطة تفتيش، لتلتصق بأسامة أكثر، مستمدة منه بعض الأمان، يضحك لهما أحدهم:

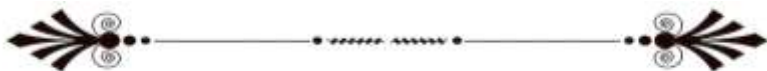
-أنتم حبيبان أم ماذا؟

يرد أسامة بهدوء نافياً ما قد يجول في ذهن الآخر.

-زوجتي، وهذا دفتر العائلة.

شعرت مريم بالضيق أكثر، متمنية لو أنهما بقيا في المنزل، لكن أسامة طمأنها بأن الإجراءات روتينية ولا بد منها للحفاظ على أمن البلد، وطالما أنهما لم يفعلوا شيئاً فلن يضايقهما أحد.

الخوف في قلب مريم جعلها ترمي بنظراتها من نافذة السيارة بعشوائية، كانت السماء تتجمع فيها بعض الغيوم المتناثرة، طردت بعضها الريح لتغطي الشمس، بهت الألوان وتبددت الأشياء فلم تعد ترى شيئاً، أسندت رأسها على كتف أسامة وأغمضت عينيها، السيارة تسير بسرعة هائلة وكأنه نبت لها جناحان، الظلام يلف حولها والهواء البارد يخترق النوافذ ويحطمها، صراخ تحتنق به حنجرتها، حاولت أن ترفع يدها لتمسك أسامة فوجدتها مقيدة، لهيب النار يتصاعد من مقدمة السيارة ودماء لطخت الزجاج.



-أسامة، أسامة...

صرخت بأعلى صوتها بعد أن استطاعت أن تتحرر من قيد حبالها الصوتية، ويدها المقيدة بدأ يسري فيها دفء عجيب، يد تحط على جبينها تارةً وتربت على خدها تارةً أخرى، صوت من بعيد ينادي باسمها، وجه أخيها جهاد يمثل أمامها يبتسم ثم يغيب في بركة من دماء.

تصرخ، لتجد نفسها في حضن والدتها، تقرأ عليها المعوذات وتسمي بالله، وتمسح على رأسها، بجانبها أسامة يمسك بيدها وحينما وقعت عيناها في عينيه، تركت والدتها واختبأت في حضنه.

-حمداً لله على سلامتك، لقد خفت عليك كثيراً.

فقدت مريم الوعي وهي في السيارة بعد تعرضها لانخفاض في الضغط بسبب خوفها الشديد حينما أوقفهما الحاجز، وحالتها النفسية المتعبة منذ أيام بعدما غاب جهاد عن البيت ليومين متتاليين دون أن يعرفوا عنه شيئاً، وعودته مصاباً في قدمه.

استشهد فراس برصاص القناص أثناء هربهما من الساحة في تلك الليلة التي لا تُنسى، أدخل جهاد في حزن وقهر وتوعد له بالانتقام.

أثناء هربهم من الساحة بعد إطلاق الرصاص على المدنيين المعتصمين في الساعة الثانية إلا عشر دقائق بعد منتصف الليل، كانوا برفقة عدد من الشباب المتوجهين إلى حي الحميدية محاولة لإسعاف جهاد وإخفائه عن أعين الأمن بعد إصابته في قدمه، لكن الرصاص كان كالطر من كل جانب



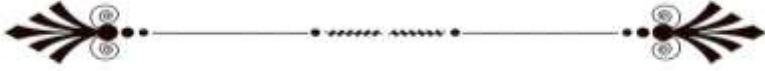
فسقط فراس مضرًا بدمه، فحملة الشباب مع جهاد وعامر محاولين الركض في الحارات والتستر بجانب الجدران وتحت مظلات المحلات، دخلوا مدخل بناء وبقوا هناك حتى هدأ إطلاق النار الذي استمر أكثر من ساعة، كان جهاد قد استنزف الكثير من الدماء وفراس قد أسلم الروح.

فُرض على المدينة بعدها منعًا للتجول لمدة ثلاثة أيام، ارتدت فيها المدينة ثوب الحداد، لكنها لم تُكسر، ولم تتراجع عن صمودها ووقوفها في الصفوف الأولى للثورة، على العكس كان ذلك اليوم تاريخًا غير مجرى الأحداث ونقطة اللاعودة في المطالبة بالحرية.

نور تحاول جاهدةً ان يخرج جهاد من حزنه وصمته، هو الذي لم يعد يغادر غرفته وقد غادرته الابتسامة.

فراس صديقه وشقيقه الروحي، والكثير من الأصدقاء الذين فقدوا في تلك الليلة لا يعلم عنهم إن كانوا أحياء أم أموات، دأبهم كالكثيرين من الذين تواروا خلف ظلام تلك الليلة.

“لن أراجع عن الطريق الذي بدأنا به يا صديقي، وأعدك أن أثار لدمك من أولئك الأوغاد، ستبقى في قلبي حيًا ما دمتُ أتنفس هواء هذا الوطن، كم تمنيت أن نبقي معًا في نضالنا هذا، إما أن نموت معًا أو نحتفل بنصرنا معًا، لكنك سبقتني إلى الشهادة يا صديقي، وعطرت بدمائك الزكية أرض حمص”



تلك الكلمات كتبها جهاد على الصفحة الأخيرة من الرواية التي استعارها
ذلك اليوم من فراس، فتح جهاز الحاسب وكتب مقالاً ينعي فيه شهداء
الاعتصام ويحث الناس على الاستمرار فيما خرجوا إليه حتى نيل مطالبهم.

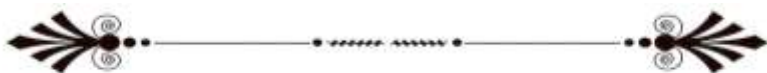


الفصل الثالث

(1)

باتت صباحات العائلة أكثر صمتًا وتوجسًا من المجهول القادم، شجرة “الايكيا دنيا” تلوح بأغصانها المثقلة بالثمر بصمت، ترقبها مريم شاردةً قبل أن تغادر غرفتها وتذهب إلى عملها بعد انقطاعها عنه لعدة أيام. أزهار الخبيزة على الشرفة في غرفة نور تتفجر بألوان الربيع الصاخب، الأحمر والبرتقالي والزهر والأبيض، ترش نور عليها الماء فجراً بعدما تركت فراشها الذي سئم تقلباتها طول الليل محاولة استدعاء النوم الذي لم يعرف طريقه إلى عينيها، تغني بصوتٍ خافت وهي تداعب أوراق الورد، “يا فجر لما تطل ملون بلون الفل، صحي عيون الكون محبوبي قبل الكل، محبوبي قبل الكل”

لاشك أنها كانت تفكر بوليد الذي لم تره منذ عدة أيام، وتشتاق لابتسامته التي يرسلها لها من بعيد كلما التقت أعينهما. ما زالت الرسالة التي يريد بها وليد أن تلامس أنامل نور وتقرأها عيناها لم تكتب بعد، يرفض وجدانه أن يختزل كل مشاعر الحب في كلمات، لأنها أعظم من أن تحال إلى حروف على الورق. لذا قرر رؤيتها والحديث إليها وجهًا لوجه، لعله يستطيع أن يعبر لها عما يدور في مكنون نفسه وقلبه.



يرتب هندامه أمام المراة المكسورة والمثبتة فوق المغسلة على الحائط، يمسح بقايا معجون الحلاقة من جانب أذنيه، يرش عطر أماريج الرجالي حول عنقه وعلى معصميه، يلتفت لصوت أمه التي تلقي عليه تحية الصباح، ويبيدها صينية الفطور تضعها على الطاولة وتنظر إليه بابتسامة.

-اسم الله حولك، الله يحفظ هالشبوية يا ابني، عريس طالع عريس.

قبلها على جبينها وربت على كتفها خارجاً وهو يقول:

-اعذريني يا أمي أنا في عجلة من أمري لن أتناول الفطور، سلمت يداك.

-لا تنس أن تتناول شيئاً في الجامعة، يا بني، قلة الأكل ستضر بك.

نور تتمشى في مدخل الكلية بين الشجيرات، تضم كتبها إلى صدرها، تجول بعينها كل الأماكن علّها تلمح وليد، هل ستتجراً وتكسر حاجز الخجل وتستمع إليه أم ستبقى هكذا تهرب من كل فرصة تجمعها به.

كل المحاولات التي قام بها مجد لامتلاك قلب نور باءت بالفشل، تعيينه رئيساً للهيئة الطلابية التي تقوم بمهام تشبيحية جعلته منبوذاً أكثر من قبلها وأكثر قرباً من غيرها من الفتيات.

الحب ليس بالإجبار، القلوب لا تفرض نفسها على أحد، ولا أحد يستطيع فرض نفسه عليها، نحن محكومون من قبل مشاعرنا ليس بإمكاننا فرض حكمنا عليها، ولو استطعنا بالعقل عدم الانصياع إليها، إلا أن قوانينها تسري علينا دون إدراك.



التقت الأعين، ومن ثم تجاذبت الابتسامات ملامحها وتعانقت في لحظة لقاء منتظر، سارا معاً والصمت كان سيد الموقف، رائحة عطره كانت تعانق نور من كل جانب، لأول مرة يكونان بذاك القرب ويلتقيان دون اتفاق وتخطيط، دون خوف من الآخرين أو من انتقادهم.

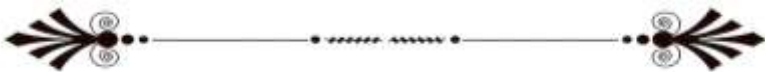
جلسا على مقعد خشبي تحت شجرة كينا تظلمهم بفيئها كما يظلمهم حبهما، أحاديث كهمس العصافير تدور بينهما، نظرات الأعين تحدثت بما لم يستطيعا التعبير عنه بالكلام، لحظة التقت أعينهما كانت أشبه بالتقاء قوس قزح بالأرض بعد يوم ماطر، كأول نفحة عطر لزهر الليلك المتفتح بعد شتاء قاسٍ، وكما ترسو السفينة حينما تنجو من ليلة عاصفة، رست سفينتها على شاطئه.

تأمل عينيها اللتين كانتا تهربان من عينيه، ويدها التي كانت ترتجف أسقطت دفترًا كانت تحمله، التقطه لها ووضعها جانبًا، كانا يسترقا الدقائق التي جمعتهما، متأملًا أحدهما الآخر غير مصدقٍ ما يراه.

لم تعد ترى سواه في تلك البقعة من الأرض، ولم تعد تشعر بوجود أحد ولا حتى بالزمن، أخذت نفسًا عميقًا من رائحة عطره التي سافرت بها إلى حدائق من زهرٍ اسطوري.

- أحبك..

ولأول مرة تسمعها منه، وبذاك القرب، يهمس لها كل مشاعر الحب التي يكنها لها، فاستحالت غيمة تمطر فرحًا وابتسامات.



كان لقاءً كما الخيال، جعلها ترسم لوحةً كلها ألوان، تحاول أن ترسم فرحها الصاخب، تستمع لفيروز تغني ”أنا لحبيبي وحبيبي إلي“ خمرة الحب أذهلتها عن كل ما يدور في الخارج، أصوات الرصاص التي باتت روتيناً يومياً، لم يعكر صفو سعادتها وخلوتها بها مع ألوانها وصوت فيروز.

كان وجه وليد مشرقاً حينما عاد إلى البيت، لكن الشباب لا يعبرون عن فرحهم كما تفعل الفتيات، فهو يكتفي بالصمت والابتسام، شاردٌ في سقف غرفته يسترجع ملامح نور ولحظاتها معاً، يشعر براحة كبيرة وكأنهما انزاح عن قلبه، استطاع أخيراً أن يلتقي بها ويحدثها ويوصل لها رسالته التي لم يستطع كتابتها كما يريد قلبه، وتلقى منها جواباً كان بانتظاره، الأوراق التي سقطت صريعةً في سلة المهملات لم تعد تستقبل ضحايا جدد، فقد اختصر كلامه كله بنظرة واحدة، وعرف ما تكنّه له نور من نظراتها وابتساماتها الخجولة.

رنات الجرس الملحة جعلته يستيقظ من أحلامه الوردية، صراخ وجلبة في الخارج، هرع مسرعاً ليعرف ما الخطب، زوجة عمه تبكي وتضرب على فخذيها، وجه أبيه المصفر وعيناه الجاحظتان تنبئان بأن كارثة قد حلت.

-عمر يا بني الله يفك أسرك من أيدي الظالمين.

-اعتقلوا عمر؟ سأل وليد والده.

-للأسف، أحدهم قد وشى عنه.



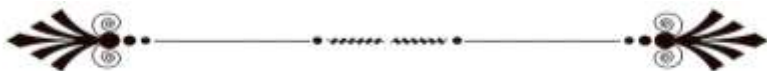
عمر أحد الشباب الفلسطينيين الذين وضعوا أنفسهم لمساعدة الثوار بتقديم الدعم والملجأ والعلاج في المشافي الميدانية، وقد قام مؤخرًا بمساعدة أحد المصابين بعد مجزرة الساعة، وأخفاه في منزلهم لعدة أيام، قبل فتح طريق آمنة له للنجاة ومغادرة المدينة.

لقد اختفى على حاجر المخيم وهو في طريقه إلى الجامعة صباحًا، على الرغم من حذره الشديد في عمله، لكن الوشاة في زمن الأزمات لا يكونون خارج دائرة الضحية، بل من المحيطين المقربين منه.

عمر الابن الوحيد لوالدته ووالده المتوفي منذ أن كان طفلًا بسبب مرض أصابه، تربى بين أبناء عمه وكان بمثابة الأخ الثالث لوليد.

يأتي الفرح محتالًا كطيف عابر يهزمه الحزن في لحظة، يغتاله في أشد أوقاته زهوًا، يدهسه بعجلاته وهو يمر مسرعًا مباغتًا النفوس، يتركه جثة على قارعة الأيام، شتان ما بين الشعورين، أحدهما يخلق بك في سماء ملونة دون أجنحة والآخر يُسقطك في أعرق بئر مظلم.

نور تحتفل بسعادتها على طريقته، أنهت رسم لوحتها، وضعت دفتر الرسم الكبير بالقرب من النافذة لتجف الألوان، اقتحمت غرفة جهاد علّها تقاسمه الفرح، أو تسبب له عدوى منه، وقد آلمها صمته وحزنه على رحيل صديقه المقرب فراس، تجلس بقربه على السرير، تفتح هاتفها المحمول وترى الصور التي التقطتها، يرمي لها ابتسامة عابرة حينما يرى صور له بأوقات مختلفة التقطتها له دون علمه.



-امسحها يا مجنونة.

- لا ستبقى ذكرى.

تحاول أن تلتقط له صورة وهو في سريريه مع قدمه المصابة، لكنه يمنعها من ذلك واضعاً يده على الكاميرا، يتعاركان ضاحكين، تهرب منه وتصوره قبل أن تخرج من غرفته، مستغلةً عدم قدرته على اللحاق بها ومنعها من تصويره. يفتح هاتفه المليء بصور فراس في الساعات الأخيرة لهما معاً، في ساحة الحرية يحمل علم الوطن ويشرق وجهه بابتسامته التي بقيت مرسومة على وجهه حتى بعد استشهاد.

صور كثيرة لهما في الجامعة، في ملعب كرة القدم وهما يشجعان فريق الكرامة، وأخرى أمام جامع خالد بن الوليد، في حديقة الدبابير يأكلان حلوى المدلوقة.

لم تبقَ سوى الصور ذكرى لتلك الأرواح التي غادرت الدنيا، لو يعلم برحيله لالتقط له كل حركة وسكون، تماماً كما تفعل الآن نور مع جهاد وكل أفراد الأسرة، على الرغم من أنها لا تلتقط الصور لأجل الذكرى بل لهوسها بالتصوير، لكنها لا تعلم بأن ما تحفظه في هاتفها سيبقى ذكرى تراها بعين أخرى وشعور مختلف حينما تمر عليها الأيام وتتوالى عليها السنون. آباؤنا يتمنون لو أن هذا الاختراع كان على زمنهم لاحتفظوا بصور أكثر لأحبائهم الراحلين وبصوتهم الذي انقطع عن هذا الدنيا، ليس في جعبتهم سوى بضعة صور بالأبيض الأسود يظهر فيها صاحبها بملامحه الثابتة التي



التقطها له مصور لأجل الهوية الشخصية أو لإخراج أوراق رسمية، وإن حالفه الحظ تكون له صور من حفل زفافه وغالبًا ما تكون غير واضحة الملامح لكنها تكفي أنها تحمل أطيافهم.

منهم من رحل وليس له في هذه الدنيا ولو صورة واحدة، لكنهم يعيشون في ذاكرة أحبائهم حاضرين لا يغادرون، أو في أحلامهم حينما يسكن الكون ويحيا الحنين.

(2)

أبو شادي الذي يعيش وحيداً مع حنينه لعائلته، لزوجته التي رحلت إثر مرض أصابها بعد حزنها على ابنها الذي قتل في ثمانينات القرن الماضي أثناء تواجده في حماة، بعدما كان قلبها قد انفطر حزناً بعد وفاة ابنها البكر في حادث سير قبله بعامين فقط، وابنته التي سافرت مع زوجها إلى بلاد “برا” كما يقول دون أن يعلم ما اسم تلك البلاد أو أين تقع، وانقطعت أخبارها منذ ذلك اليوم.

يقلب في أوراق ذاكرته، يستحضر ملامح كل فرد منهم، يمسح دموعه التي لا تكف عن النزول، تقف مريم أمام دكانه تبحث عنه، لم يكن يومها جالساً على كرسيه القش كما هي عادته دائماً، نادته بصوتها مرات عدة، حتى خرج بهامته المحنية، بيده منديل القماش يمسح به وجهه، تقرأ في ملامحه حكايا الحزن المعتق، التي حفرت تفاصيلها على جلده شاهدة على نكبات الزمن، يبتسم لها مُرحباً، ابتسامة المنسي حينما يذكره أحد، ينظر إليها نظرة المحتاج، وهي التي كانت أكثر احتياجاً لحديثه، رجلٌ بمثل سنه هو تاريخ كامل لحقبة مضت، لم تدوّن في الكتب بل حُفرت في أعماق ذاكرته بكل تفاصيلها، لكن الحديث عن الماضي جريمة يحاسب عليها القانون، فكان يُدفن مع أصحابه وشاهديه، ويُروى لنا عكس الحقيقة.

كانت قد قرأت يوماً في كتاب بعنوان أحجار على رقعة الشطرنج للكاتب الكندي وليام جاي كار (إن دراسة التاريخ تتيح لنا إمكانية التنبؤ



بالمستقبل، فالتاريخ يعيد نفسه..)، لذلك لأجل معرفة ما سيحدث على الأرض علينا أن ننظر إلى الخلف لأن النظام الحاكم واحد وإن تغيرت الوجوه.

اطمأنت عن صحته التي لا تبدو بأحسن حال، ارتعاش يديه وهو يناولها قطعة الحلوى، رغم صلابتها كجذع شجرة زيتون معمرة، تمتد جذورها عميقاً في الأرض، تتشبث بكل ذرة تراب، تستظل مريم بفيئها منتظرة أن تجود عليها.

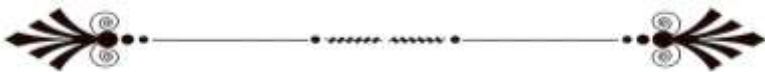
- لا يمكنني الحديث هنا يا ابنتي، إن أحببت تفضلي إلى بيتي أنتِ والوالد، أعترف بتقصيري معكم، كان لابد لي أن أطمأن عن جهاد، لكن تعلمين لا أستطيع صعود الأدراج.

- لا تقلق يا عمي، نحن مقصرون معك، وبالنسبة لجهاد هو بخير، لم تخرق الرصاصة العظم، وسيشفى قريباً ويعاود الذهاب إلى جامعته، وكما تعلم نحن حريصون على عدم لفت الأنظار إلى إصابته، ويتابع حالته أسامة.

- ما أخبار أسامة، ومتى سنفرح بزفافكما.

صمتت مريم لبرهة، تهرب بنظراتها إلى البضاعة المصفوفة في الدكان، ثم تستقر على الأرض.

تنهدت وكأن هذا الموضوع لم يعد يفرحها كما السابق، أو أن الفرح هرب واختبأ في مغاور بعيدة، بعدما اقتحم الحزن بيوت المدينة.



- ربما نأجل الزفاف حتى تهدأ الأحوال قليلاً، كيف أفرح والحزن يأكل القلوب ودماء الشهداء في ساحة الساعة لما يجف بعد، جهاد الذي يتألم لفقدان صاحبه أكثر من جرحه، القلوب انفطرت ياعمي لا وقت للفرح الآن.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، لا أعلم ما أقوله لك يا ابنتي، نأمل من الله خيراً، وأن تنطفئ هذه النار التي اشتعلت وبدأت تأكل البلاد. استأذنت مريم منه ووعدته أن تقوم بزيارته في أقرب فرصة ممكنة، والاستماع لذكرياته وماضي البلد بحرية دون خوف، أوصته بنفسه فهي تخشى عليه حقاً، من وحدته التي لم تكن تنتبه لها كما الآن، ومن صحته التي أتلّفها الزمن.

سارت في شوارع المدينة التي كست ملامحها الحزن، شاردة الذهن وكأنها خارج هذا العالم، تقودها قدمها إلى المبنى الذي يحوي على عدة مكاتب وعيادات، كبست زر المصعد ليسحبها ثابتة الأرجل إلى الطابق الرابع حيث مكتب المحاماة الذي تدرب فيه.

بعض الزهور في فازة زجاجية على الطاولة قد بان عليها الذبول، وبهتت ألوانها معلنةً انتهاء حياتها، تتناثر أوراق منها بين الملفات التي تنتظر من مريم دراستها والنظر فيها، ترتب مصنفات القضايا على الرفوف، تمسح الغبار، وترفع الستائر البنية لترحب بأشعة الشمس كزائر صباحي محب يمنح المكان سطوعاً وحياة.



تعمل كرجل آلي بروتين اعتادت أن تفعله كل صباح، تجهز المكتب حتى قدوم المحامي ويبدأ العمل معاً.

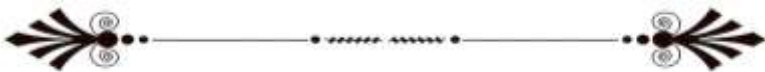
لفت نظرها مصنف يحوي في داخله دعوة قضائية موضوع في داخلها قصاصة ورقية فيها بعض الملاحظات، وبين قوسين “قضية شرف” قلبت في أوراق الدعوة وراعتها أنه مكتوب فيها “ يستفيد الجاني من الحكم المخفف ” وعليه سيتم الحكم بالسجن سنتين على القاتل ثم يتم إخلاء سبيله.

- كم أكره مثل هذه القضايا. حدثت نفسها ووضعت المصنف جانباً. كان قد صدر مؤخراً عفواً عاماً عن السجناء وتخفيف بعض العقوبات، الهدف منها تهدئة الشارع وخفض حدة الاحتجاجات، ولكن على أرض الواقع لم يتم سوى إخلاء سبيل اللصوص والقتلة، ليلتحقوا بالجيش الشعبي الذي انتشر مؤخراً في الشوارع لحفظ الأمن كما يدعون وللبطش بالمتظاهرين.

-القانون شيء والواقع شيء آخر، لا أعتقد بأني أستطيع ممارسة هذه المهنة كما يجب.

- ما الذي تقولينه.

لم تنتبه لدخول المحامي وهي تحدث نفسها وترتب المصنفات، تلعثت وارتكبت ووقفت جانباً لتتيح له الجلوس خلف مكتبه.



- أهلاً صباح الخير أستاذي، لا شيء كنت أرتب مصنفات الدعاوي التي سنعمل عليها.

-حسناً، لدينا عمل كثير، يجب أن نغلق هذه الدعاوي اليوم وننتهي منها، يجب أن نذهب إلى المحكمة أيضاً، لا أريد تأخيراً.

- حاضر أستاذ.

مر اليوم بسلام، بتساؤلات كثيرة تغزو عقلها، عادت إلى البيت لتكتب مذكرات يومها، لترتاح من ثقل ما مر على ذاكرتها بين أحداث الشارع وما حدث في المحكمة، الكل في البيت مشغول بنفسه، الصمت هو الحديث السائد بينهم، شاشة التلفاز وحدها من يثرثر بصخب، كلُّ في عالمه الذي لا يشارك فيه الآخر، يجمعهم انتظار للغد وما سيحل فيه.

تقلب نور في هاتفها بانتظار رسالة من وليد، منذ أن تبادلا الأرقام لم يتحدثا بعد، تضع له الأعذار بأن خجله يمنعه كما تعلم تماماً بأنه يتردد في الكتابة لها، فأرادت أن تقتحم هاتفه برسالة منها، مع خفقات قلبها التي تسارعت كتبت له وضغطت على زر الإرسال..

الحزن يخيم على بيت وليد بعد اعتقال ابن عمه، محاولاتهم الحثيثة في اطلاق سراحه باءت بالفشل، حتى معرفة مكان سجنه لم يكن معروفاً، فالمعلومات تضارب من شرطي لآخر، وعلى حسب المال المدفوع تأتي الأخبار ولكن باقتضاب.

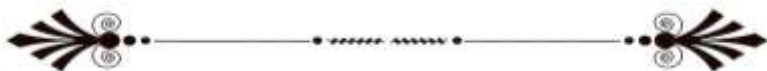


طنين الهاتف يخترق صمت البيت كله، يسارع وليد ويفتح هاتفه ليرى اسم نور وكلمة ”كيفك“ تتوسط الشاشة وحيدة لكنها تحمل الكثير من مشاعر الشوق والعتاب، خفق قلبه كجناحي عصفور ينتعش لقطرات المطر في يوم حار، نظرات أهله تخترقه تنتظر منه أن يتفوه بكلمة، هل وصلته رسالة من أحد يخبره بمكان عمر؟ عليها تثليج قلب أمه الذي يخترق، لكن دفء الرسالة لا يثلج سوى قلب وليد العاشق، فصمت دون أن ينبس ببنت شفة، فأدرك الحاضرون بأن لا شيء مهم قد وصل، وهو كل الأهمية لديه.

ترك الهاتف قليلاً ثم عاود فتحه، وكتب لها بسرعة ثم أعاده إلى جيبه، ناهضاً يقيس الغرفة ذهاباً وإياباً، ثم غادر المكان وصعد إلى غرفته.

أشرق وجهها حينما وصلتها رسالته المختصرة، حقول الزهر في وجنتيها تزداد تلوناً، أجنحة الفرحة تحلق بها عالياً، تعيش أجمل المشاعر وأنقاها، تعيد قراءة الرسالة مرات ومرات، وفي كل مرة تتفتح حقول جديدة في روحها، “اشتقت إليك” كم تحمل حروفها من معانٍ، رددت بصوت خافت ”وأنا، .. وأنا”.

لم تنم نور ليلتها، وأصوات الرصاص تمزق صمت الليل، باتت تلك السمفونية أمر معتاد، تعزفها كل شوارع المدينة، الخوف في قلبها طفلاً تهدده حتى ينام، ليبقى طفل الحب مستيقظاً تسامرته حتى الصباح.

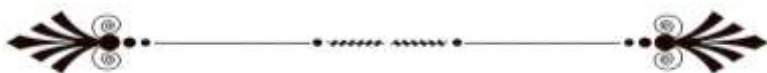


(3)

- لن يجو من يدي كل من يقترب من نور، سأجعل أمه تبكيه ليل نهار.
- ما الذي ستفعله؟
- أنت فقط راقبي ما سيحدث.
- مجد في مكتب الهيئة والغضب قد علا وجهه، بعدما أخبرته راما بسر نور وحديثها الودي مع وليد.
- هل تعتقدين بأنها تحبه؟
- ليس اعتقاداً بل أمراً مؤكداً.
- دارت حول مجد وأردفت وهي تتهاذى حوله بدلال.
- نور لا تتحدث مع أي شاب ولا تقبل حتى بمثل هذا الأمر، إلا إذا قد شغفها حباً، لو أنك رأيته ذلك اليوم كيف جلست معه وتحدثا وقد استغلت غياب أخيها جهاد عن الكلية، فهي لا تأبه لأحد سواه.
- وأين جهاد؟ ولماذا يتغيب عن الكلية؟
- لا أعلم لم تخبرني شيئاً، قالت أنه مريض فقط.
- مريض؟
- جلس خلف الطاولة يتلمس عنقه ويلويه، يدخل أصابعه في شعره، شاردً بنظراته العشوائية.
- ما الذي تفكر فيه يا مجد.
- ها، لا شيء اذهبي الآن ولا تضيعي دروسك.



- ودروسك أنت، ألا تريد الذهاب لحضور المحاضرة.
- ليس من شأنك، أسئلة الامتحان تصلني إلى البيت.
- ثم أطلق ضحكة رددت صداها الجدران، نهض متوجهاً نحوها ودفعها بيده ليحثها على الخروج، مالت نحوه متمعدة لتوحي له بأنها كادت تسقط، مسكها من خصرها وجذبها نحوه، ثم همس لها:
- أوصلي سلامي للعاشقة نور، وأمنياتي بالشفاء العاجل لأخيها جهاد.
- أفلتها وتركها تذهب مذهولة، واضعةً يدها على صدرها، خرجت مسرعةً من عنده، تتلفت حولها، تبتسم نشوة من رائحة عطره التي وخزت أنفها والتي لاحقتها حتى ابتعدت.
- يسحرنى هذا الشاب، لماذا لا يحبني ويترك نور المتعجرفة، فهي غير مناسبة له، تميل لوليد الذي يشبهها ويناسب بيئتها، أما مجد تناسبه فتاة مثلي، فالطيور على أشكالها تقع.
- تمشي محتالة تتلمس جسدها وتشم رائحة عطره التي علقّت بجيدها، فكت ربطة شعرها المعقود إلى الخلف وجعلته يتناثر على كتفيها، لا يهتمها إن كان مجد ينظر لغيرها، لا بد له أن ينتبه لوجودها حينما يشعر باهتمامها، وتزيح نور من أمامها.
- أصوات الرصاص تتردد في أنحاء الجامعة، تلاشى الهدوء واستحال صخباً من فزع، أصوات الأقدام التي بدأت تهرب وتتبعثر هنا وهناك وصرخات الفتيات ملأت الأجواء، تدافع عند الأدراج ومداخل الكليات، أحدهم



أمسك بيدها وسحبها وركض بها بجانب الجدار حتى دخلا إلى المبنى أفلت يدها وتلاشى، المبنى من الداخل مظلم لم تتضح الرؤية إلا بعد بضع دقائق، الفتيات تجتمعن على أنفسهن، والشبان ينظرون من النوافذ بحذر، أسندت نور نفسها على الحائط ووضعت يدها على قلبها، تلتقط أنفاسها المتسارعة. الأصوات خرجت من خلف مبنى كلية الطب، من الحي الذي تحول إلى ساحة حرب من اشتباكات واعتقالات ومدهامات، لطالما بددت السكون وزرعت القلق بين الطلاب.

لمحت راما نور فتقدمت نحوها واحتضنتها، أمسكت بيدها وسارتا في الممر الطويل تطمئن عن أحوالها، وتحاول سؤالها عن أخبارها العاطفية واستدراجها لتفضي لها سرها.

ببراءة عاشقة سردت لها ما حدث، وشكت لها قلقها على غياب وليد وخوفها من أن يكون مكروهاً ما قد حل به أو بأحد أسرته، رسالته المؤلفة من كلمة واحدة، بمشاعر جمّة، وحدها ما يطمئنها، ويعيد السلام إلى روحها، ويمنحها أملاً بوصول رسالة أخرى أو حتى عودته إلى الكلية.



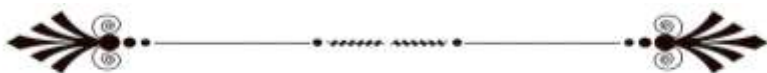
(4)

يوم آخر وحلم بالهدوء يتبدد، غضب الشارع في ازدياد، و ممارسة العنف على المحتجين تتصاعد، الحواجز تملأ الحارات والآليات الثقيلة تتوزع هنا وهناك، وعناصر الجيش يقفون عند آلياتهم في حراسة دائمة ليلاً نهاراً و كأن البلاد في مواجهة عدوٍ خارجي، أضواء الشوارع تُطفأ في الليل ليحل الظلام المخيف، نداءات بعدم الاقتراب من النوافذ ولا حتى النظر منها، الأغاني الوطنية تصدح من مكبرات الصوت التي علقوها على الآليات لتكسر صمت الليل وتمجد القائد الخالد.

تشرق الشمس فيستيقظ آخر جندي مناوب ليبدأ حراسته، يضع كرسيه خلف الآلية العسكرية ليستظل بها، يغني بصوته الأَجَشِ أغانٍ شعبية، يدخل السجائر بشراة مع كأس شاي واضعاً سلاحه بالقرب منه، يقترب منه رجل في منتصف العمر يناوله رغيف خبز وقارورة ماء ويدعو له بالحماية والنصر.

ترقبهم سيدرا الفتاة العشرينية من نافذة غرفتها المنخفضة والتي تطل على الشارع مباشرة، لا يفصل جدار بيتها عنهم سوى بضع مترات، تستطيع سماع أحاديثهم ورؤية ملامحهم بكل وضوح.

كانوا يقضون النهار في تبادل الأحاديث مع شبان الحي، والذين تبرعوا بدورهم في حماية الحي ومساعدة عناصر الجيش للقضاء على الفتنة.



على كرسيها المتحرك تمضي الساعات أمام النافذة، وقد تبدل المشهد من شارع مزدحم بالناس والأطفال الذين يلعبون الحجلة على الرصيف، السيارات المختلفة التي تعبر الشارع ذهاباً وإياباً، المحلات تصطف في الشارع المقابل والتي تتكدس فيها مختلف البضائع، بائع غزل البنات الذي كان يقف على الرصيف عصر كل يوم، يلتف الأطفال من حوله، يصنعون على وجهه ابتسامه تعلقو ملامحه المتعبة.

حدثته سيدرا يوماً من نافذتها، بعدما نادته لتشتري منه حلواها المفضلة، ليروي لها قصته المقتضبة والتي يختصرها بأنه موظف عادي يمارس عمله صباحاً، ليتحول إلى بائع حلوة بعد عودته من العمل حتى حلول المساء، ليستطيع تأمين حياة كريمة لأطفاله الأربعة وأهمهم، كي ينتهي الشهر بسلام دون ديون قدر الإمكان.

افتقدت لوجوده ولصوته الذي ينادي به الأطفال منذ عدة أيام، كما أخفت هذه الآلية وجنودها مشهد الحياة في الحي، فلم تعد ترى من النافذة سواهم.

- ألن تكفي عن مراقبة الشارع يا سيدرا.

- تعلم أني لا أبرح هذا المكان، مذ أجبرت على ملازمة هذا الكرسي اللعين.

- لكن الوضع الآن مختلف، ماذا ترين أمامك سوى هذا الحاجز بجنوده وأسلحتهم، أعتقد بأنه منظرٌ يغمُّ القلب، أكثر مما يسره.

أغلق عامر الستائر وقاد الكرسي نحو الصالة، ثم جلس قبالة سيدرا.



عامر صديق جهاد يقيم في حي كرم الزيتون مع شقيقته سيدرا بعد وفاة والديهما في حادث سير منذ سنوات، نجت سيدرا ولكنها فقدت قدرتها على المشي، تركت دراستها الثانوية ولازمت البيت على كرسيها، تقوم على خدمتها امرأة من الحي ذاته، مقابل مبلغ من المال، وهي أم لخمس أطفال يتامى، كان يكفيها خمس ساعات معها ثم تعود إلى منزلها، لتبقى سيدرا وحيدة باقي اليوم، مع انشغال عامر في دراسته، وإدارته لمحل الأدوات المنزلية الذي تركه له والده والمتواجد في البناء نفسه، حدود حركتها بين غرفتها والصالة والمطبخ، تطل على العالم الخارجي من نافذة غرفتها التي كانت تغنيها عن الخروج، لكنها الآن لم تعد كما كانت، باتت تطل على مشهد عسكري ونافذة تتسرب منها الأسرار من العساكر والشباب المنضمين للدفاع الوطني، إذ أنهم كانوا يسترسلون في الأحاديث دون انتباه بأن خلف النافذة من يدون كل كلمة يقولونها.

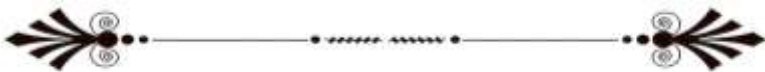
- عامر أريد أن أخبرك بشيء.

- ها.. قولي يا سيدرا.

- لا أعلم ما سأقوله لك، ولا أعلم إن كان الذي سمعته حقيقياً أم مجرد هراء يقال.

- ما الأمر، ماذا سمعت.

جذبت رأس أخيها نحوها وهمست في أذنه.



- هؤلاء في الخارج يخططون لأشياء فظيعة، لن يقتصر الأمر على استخدام السلاح والقتل في قمع المتظاهرين وردع الناس عن مطالبهم، لأنهم وجدوا بأن الناس تقابلهم بصدور عارية دون خوف، يتهافتون إلى الموت دون تردد وفزع، اختلاق الأكاذيب والسيناريوهات الملفقة لم تعد تجدي نفعًا، لذلك..

ابتلعت ريقها بصعوبة وتلعثمت بكلماتها، ثم صمتت وهي تنظر في عيني عامر تتوسل منهما الأمان.

- أكمل سيديرا، ما الذي ينوي فعله هؤلاء الأوغاد.

- سمعته يقولون بأنهم ينوون اقتحام البيوت وتفتيشها إن لم يتم المطلوبون بتسليم أنفسهم، حتى أنهم كانوا يتلفظون بكلمات بذيئة جدًا. -تبًا.

كزّ على أسنانه غضبًا، وأطبق بقبضته على جانب الكرسي، مغمضًا عينيه وكأنه يتعرض للساعات سوط يجلد به ويكاد يصرخ من الألم. - عامر.

هزته بكلتا يديها ثم دفنت نفسها في صدره لف ذراعيه حولها بقوة وكأنه يريد أن يخبئها بين ضلوعه.

بللت دموعها قميصه، فشعر بها وكأنها لساعات جمر تكويه.

مسح دموعها بكلتا يديه وابتسم في وجهها قائلاً:

- أعدك لن يصيبك أي مكروه.

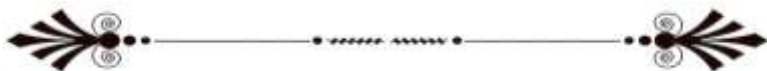


-لا أخشى على نفسي بقدر خشيتي عليك، صحيح بأني لا أستطيع الدفاع عن نفسي ولا حتى الركض أو الركل حتى، “ضحكت ساخرةً وفي عينها دمعة، ثم أكملت” لم يتبق لي في هذه الدنيا سواك، أرجوك عامر ابتعد عن كل ما يمت لهذه الثورة بصلة وعن كل من يشارك فيها، كن حياديًا ما استطعت، اهتم بدراستك فقط.

-لن يستطع هؤلاء الأوغاد فعل أي شيء، جنباء لا يستخدمون عقلهم البتة، لو أنهم يفكرون قليلًا لأدركوا أنها ثورة شعب ضد حكم جائر، وليست ضد بعضنا البعض.

عامر صديق جهاد وفراس، وزميلهما في الكلية، يعمل في الشبكة الإعلامية التي يرأسها جهاد، قليل المشاركة في المظاهرات عدا عن اعتصام الساعة الذي كان حاضرًا فيه، ونجا دون إصابات.

وجود الحاجز الآن أمام منزلهم جعله يلتزم الحذر في التحرك، لا يغادر إلا لأجل الذهاب إلى الجامعة، ويمارس دوره كناشط من خلف شاشة هاتفه المحمول.



(5)

حداد يرسم ملامحه على المخيم الفلسطيني، ويلف بوشاحه الأسود كل البيوت، غضبٌ يتأجج في القلوب، صرخات مدوية تحتلج الصدور تكاد أن تخرج معلنةً عن احتجاجها لما حدث.

دموع ألهبت العيون، بات قلب أم عمر خاوياً بعدما وصلهم نبأ استشهاد ابنها تحت التعذيب، دون أن تكحل عينيها برؤيته عريساً، يملأ البيت حولها بأولاده، معوضاً إياها عن وحدتها التي عاشتها معه بعد وفاة والده. فسلبت منها الأقبية فرحتها الوحيدة وأملها في هذه الحياة، لتكفن أعوامه العشرين جدران متعفنة، بأيادي ظالمة.

- عارٌ على أهل هذه المدينة إن لم يحملوا السلاح، ما زالوا ينادون بها سلمية وهاهم يذبحون الواحد تلو الآخر، دم ابن عمي لن يذهب سدىً، وسأكون أول من يخرج بسلاحه في وجه المجرمين.

قالها وليد في نفسه، ثم وجه كلامه لزوجته عمه المكومة:

- كلنا أبنائك يا خالتي، كلنا عمر، وأعدك لن يذهب دمه سدىً.

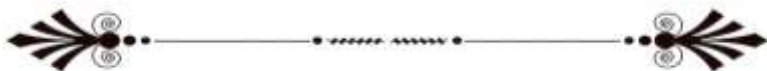
لم يكن عمر أول من تغيب بين طيات الظلام، ولا آخرهم، لكنه كان من أوائل الفلسطينيين الذين شاطروا السوريين مأساتهم في هذه الثورة، من اعتقال وتعذيب لم يتغيب عنه أبناء بلده في سجن أبو غريب في العراق، بكل ما يعرفه العالم عن وحشية الممارسات فيه، والجرائم التي تندى لها الجبين.



لم يغب الفلسطينيون عن المشهد الدامي الذي حدث في كل البلاد العربية، في رحلة نزوحهم الأطول عبر التاريخ، مجزرة صبرا وشاتيلا في لبنان كانت الأعنف لكنها لم تكن الأخيرة، فالحروب في بلاد اللجوء قد أملت بهم ما أملت من قتل وتهجير فوق هجرتهم، وهامهم الآن في سوريا لن يقفوا تحت المظلة التي تقيهم من غيوم تنبئ بالخراب، دأبهم دأب أي سوري ستسقط عليه أمطار الحرب بكل الفصول، وإن اختار أحدهم بكل ما يملكه من واسطات الاحتماء بعيدًا عما يحدث، فلن تخلوا مظلتهم من الثقوب.

باتت المدينة تشهد حملات الاعتقال بين حينٍ وآخر، وبات المرور على الحواجز كاتمًا للأنفاس حتى ولو كنت تعلم بأنك لم تشارك بأي مظاهرة كانت، يكفي أن تكون من إحدى الحارات المتمردة، أو قريب لأحد المنشقين، أو حتى اسمك مشابهاً لأحد المطلوبين، وبات الشباب يحملون دفتر الخدمة العسكرية في جيوبهم ويسارعون لشعبة التجنيد لأجل التأجيل على الدراسة لئلا يقادوا إلى الخدمة مرغمين، وينتهي بهم المطاف على أحد الحواجز حاملين السلاح مكرهين، لأجل محاربة المندسين والمخربين الذين يتحدث عنهم قادة الجيش ويعطون الأوامر لإطلاق النار على كل من يشبهه بأمره.

في المقابل تم إطلاق سراح الكثيرين بعد إعلان عفو عن المساجين والذي لم يشمل سوى اللصوص والقَتلة والمدمنين لينضموا لصفوف الدفاع الوطني



على فورهم بصفتهم حماءاً للوطن من أيدي العابثين الذين يصدحون بالحق بعدما أطلقوا العنان لحناجرهم التي كانت تطالب بالعدل والمواطنة. الخارج على الحكومات أشد إجراماً من لصٍ اقتحم بنكاً ونهب منه أموالاً تقدر بالملايين آنذاك، ومن قاتل هشم رأس زوجته بزجاجة نبيذ بعدما رفضت إعطائه المال الذي تقاضته مقابل بيع جسدها. هؤلاء باتوا الآن حماءاً للوطن من شعب خرج مطالباً بالعدالة، منادياً بالحق. تدون سيدرا في مذكرتها أحداث ذلك اليوم واحتفال جيرانهم بخروج أبنائهم من السجن بعدما اعتقدت أنها تخلصت من أصواتهم التي تلوث هدوء الليل، ومن صراخهم ومشاكلهم التي لا تنتهي.

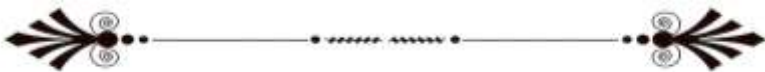


الفصل الرابع

(1)

الأيام تمضي، وامتحانات الجامعة على الأبواب.
يوظب أسامة حقيبته استعداداً للسفر إلى دمشق، يُخرج صورة مريم يتأملها طويلاً، يتأمل ملامحها الجميلة وعينيها البريئتين، ابتسامتها الساحرة.

كان بوده لو يستطيع اصطحابها معه لتبقى أمام عينيه، وأن لا يبقى مشغول البال عليها في غيابه، لكن الأحداث حالت دون إتمام مراسم الزواج، وإلا فهي الآن توظب حقيبتها معه، تضع فيها ملابسها الجديدة التي اشترتها، تخيلها أمامه ضاحكةً تنثر شعرها الطويل على ظهرها وكتفيتها، وكأسين من شراب الورد على الطاولة قرب النافذة بانتظارهما، تضع دفتر مذكراتها في جيب الحقيبة العلوي، يسحبها من يدها، يقبلها، يضمها طويلاً ثم يتوجهان نحو الطاولة المغطاة بغطاء مصنوع من خيط حريري نسجته والدته بسنارة واحدة بطريقة فنية رائعة، يصحو من خيالاته على رنات هاتفه فيسمع صوتها هامساً، ليبدأ حديثهم الليلي المعتاد، لكن هذه المرة لا يخلو من نبرة الحزن، أم كلثوم تغني بقربه بصوت خافت “أغداً ألقاك، يا خوف فؤادي من غدي”



بات الغد يأتي محملاً بالكثير من الغموض، ولم تعد الأيام تشبه بعضها البعض، فكل صباح تستيقظ البلاد على خبر جديد، تتغير ملامح الشوارع، تتبعثر الحجارة هنا وهناك، تملأ الزوايا ومنتصف الطريق، بقع سوداء كبيرة في مدخل كل حي، رسمتها العجلات المحروقة وتركت أثرها على الإسفلت، جدران مثقوبة شوهدت معالمها الرصاص، حتى أصص الورد على الشرفات قد نالت نصيبها من تلك النيران وثقبتها وسال ترابها وذبل زهرها.

“أغداً ألقاك” أي غدٍ هذا الذي يودي بالوطن إلى المجهول، وينبئ بالشتات.

- أتؤمنين بالتخاطر؟

- وهل لهذا وجود في علم النفس؟

- تجيبين على سؤالي بسؤال، هل تؤمنين به؟

- ربما.

- تصدقين؟ لا أستحضرك مرة أُمامي، إلا ورن هاتفي وحضر صوتك،

وحدثيني بأشياء كنت أفكر بها، وكأنك سمعت حديث نفسي.

- قليلون من يصلون لهذا الحد من الانسجام.

- أتسمينه انسجام؟

- بل وأكثر.

جاء الصباح بأسامة إلى منزل أبي جهاد لوداع مريم، كان لابد أن يمضي

السهرة معها لكن حظر التجوال مساءً حال دون قدومه لمنزلها، فسابق



الشمس في طلوعها ليراها قبل أن يغادر، وعدها أن لا يطول الغياب، وأوصاها بنفسها كثيراً، جاءت أغنية فيروز التي تشاركهم روتين الصباح من مذياع في المطبخ” لما ع الباب يا حبيبي منتودع، بكون الضو بعدو شي عم يطلع، أوقف طلع فيك ما بقدر احكيك، خاف تودعني تروح وما ترجع”

- راجع يا فيروز.

ابتسمت مريم ودموع تلاًلأت في عينيها.

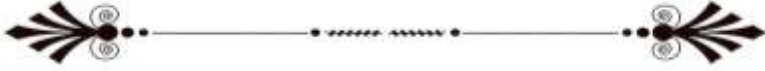
- هل هي صدفة أن تغني فيروز هذه الأغنية في هذه اللحظة، أم هي رسالة تريد أن توصلها لنا؟

لطالما كانت حياتنا رهينة الصدف، نلتقي صدفة، نفترق بأخرى، وإن كان البعض يؤمن بمحتمية الصدف، إلا أن عبثيتها أحياناً تغير منحى حياتنا إلى الأبد.

- لا تهذي يا مريم، مجرد أغنية ولا علاقة بالصدف بهذا الأمر، أنا مسافر إلى الشام وليس لآخر الدنيا، ما أن أنتهي من تقديم الامتحانات ستجدينني هنا، ولن أقبل بعدها بتأجيل الزفاف.

- احمرت وجنتي مريم، ومسحت دموعها قبل أن يراها، ترك قبلة على جبينها وغادر.

توارت سيارته بين الزحام، وعينا مريم تلاحقها من النافذة حتى اختفت.



بات طريق السفر يستهلك من صاحبه وقتاً أطول عن ذي قبل، السيارات
تقف في طابور طويل، من دوار تدمر حتى شركة الانشاءات العسكرية،
تفتيش دقيق على السيارات الداخلة والخارجة من قبل عناصر الجيش
والأمن العسكري، شمس تلسع الجباه، وحديد السيارات يحمى يكاد أن
يكوي صاحبها، علاوة على نار الخوف التي تشتعل في النفوس.
ما إن تخرج من تلك النقطة حتى تشعر بأنك ولدت من جديد، لتموت
وتولد ألف مرة حتى تصل إلى وجهتك لكثرة انتشار الحواجز على طول
طريق حمص دمشق.



(2)

شمس ساطعة

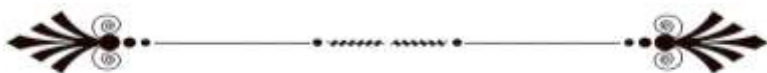
رصيف خاوي

نسمات حزينانية تتسلل من النوافذ، تحمل عبق الياسمين مع رائحة الخبز المحمص.

عصافير تمارس روتينها اليومي في التحليق والتجوال بحثًا عن بقايا الطعام، لتعود إلى صغارها في الأعشاش التي صنعتها على أغصان الأشجار، يمامة تهز برأسها وتتمختر على حرف الشرفة تتفقد المكان، تبحث عن أضيض ورد لتضع فيه بيوضها، أو حرف نافذة مغلقة، لتطمئن ألا أحد سيقلق راحتها ويعرض أبناءها للخطر.

صوت رصاص مفاجئ جفلت له اليمامة والعصافير وحلقت بعيدًا في السماء، رفرفت بأجنحتها بسرعة واختفت بلمح البصر. كل مخلوقات الله تعرف الخوف، وتأنس للأمان، هي غريزة البقاء التي خلقها الله فيها.

مازالت مريم بالقرب من النافذة تكفكف دموعها، ليست المرة الأولى التي يسافر فيها أسامة، لكنها في هذا الوقت تخشى غيابه. الغياب فاجعة الزمن التي يفاجئنا بها القدر، يأتي به في أشد الأوقات احتياجًا.



تلتزم غرفتها وتعتزل الخارج، تريد أن تبقى بعيداً عن كل ما يحدث، وحيدة مع نفسها ولا تريد أن ينشغل فكرها بشيء سوى الاطمئنان عن أسامة حتى يصل.

تحت خطاها نور مسرعةً باتجاه كليتها، افرقت عن جهاد عند المدخل بعدما استعاد صحته وعاد ليقدم امتحانات السنة الدراسية الأخيرة، حزن عميق يختلج بداخله على صديق عمره فراس، ينظر إلى كل الأماكن يتخيل طيفه، يسمع صوته يناديه يلتفت خلفه فلا يراه، تحت شجرة الكينا يلوح له بيده، عامر يقف بانتظاره، يتقدم نحوه محاولاً أن تكون مشيته طبيعية ولا يلحظ أحد اصابته، يرافقه حتى مبنى كلية الآداب، حيث يحتشد الطلاب باحثين عن أسمائهم وأرقام قاعاتهم على لوحات معلقة على الجدران أمام القاعات والمدرجات.

لا بد لهذه الساعات أن تنعم بالهدوء، وينعم الطلاب بالطمأنينة ليتجاوزوا الامتحان على خير، الطمأنينة التي باتت عملة نادرة يتم تداولها سرّاً عن أعين القلق، هذه في حال توافرها، أما عدا ذلك فبات الخوف هو الحاضر الأقوى في النفوس.

ينتهي الامتحان ويغادر الجميع قاعاتهم وينتشرون في ساحة الكلية، يجلس عامر وجهاد على مقعد خشبي يظلمهم فيء شجرة شديدة الخضرة تحمل ثماراً حمراء صغيرة، كحبات سبحة معلقة، يُخرج عامر من جيبه صفيحة حبوب فارغ معظمها، يناولها لجهاد مقترّباً نحوه هامساً في أذنه:



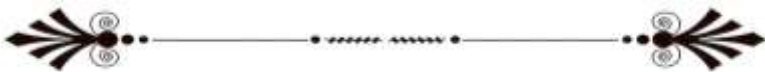
- هذا ما جعلني أبقي مستيقظًا طوال الليل حتى أنهيت دراسة المقرر، ليس هذا وحسب بل منحني شعورًا عجيبيًا وراحة افتقدتها منذ بدء الاحتجاجات، أنصحك بتجربته.

جفل جهاد من كلامه، وسحب الصفيحة منه وأخفاها بين أوراقه، تلفت حوله ثم استقرت عيناه على صديقه:

- ما الذي تهذي به، (بدك تروحنا بشرية مي)، تحمل معك المخدرات إلى الجامعة كيف نفذت بها ولم يكتشفها العنصر الذي فتشك على الباب. ضحك عامر مقهقهًا وقال:

- ليست مخدرات يا أبله، دواء مضاد للقلق ويباع في أغلب الصيدليات فقط ادفع أكثر، لقد ازداد بيع هذه الأدوية كثيرًا هذه الأيام وربما تجدها في جيب كل مواطن سوري.

- مأساة فعلاً، أين ستقودنا سفينة هذه الأيام لا نعلم، وعلى أي بر سنرسو، أعتقد بأنني أحتاج مثل هذا الدواء بالفعل، بعد استشهاد فراس وأنا لا أعرف للراحة سبيل، أشعر وكأنني مقيد بجمال من نار وجمال الدنيا كلها فوق صدري، طيف فراس لا يغادرني أبداً، لقد استعجل الرحيل، تمنى الشهادة فناها بأسرع مما تخيلنا، كم خططنا معاً للاحتفال بالنصر، لقد كنا نراه قاب قوسين أو أدنى، الشعب متخبط والحكومة تضرب بيد من حديد. هل أفهم من كلامك أنك استسلمت.



- ليس استسلامًا، لا أخفيك بأني خائف، ليت الجميع يهب ويقف وقفة رجل واحد، أؤكد لك لن يصمد النظام طويلاً، ولكن كما ترى ننظم لمظاهرة نعتقد بأن تكون ضخمة وعلى أرض الواقع لا يخرج النصف، على المدن جميعها أن تثور في آن واحد، وتحدث ضجة إعلامية على نطاق واسع، حينها لن يقف العالم متفرجاً ولا بد لهم أن يستمعوا لمطالبنا، كما حدث في تونس ومصر.

-الوضع هنا مختلف يا صديقي، هنا سوريا، سوريا التي ارتبط اسمها باسمهم ولهذا الاسم اعتبارات كثيرة لم يسموها هكذا عن عبث، أنا وأنت لا علم لنا بالسياسة ولا بمخطط الحكومات.

- سوريا الحرة، الحرية، هل فهمت.

ارتفع صوت جهاد قليلاً، ثم انتبه لنفسه بعدما لكره عامر ليلتزم الصمت، سرقهما الحديث وهما في حرم الجامعة، حيث تحرّم مثل هذه الأحاديث.

-أنت من سيورطنا ويأخذ بنا إلى بيت خالتنا، هيا انهض ودعنا نذهب.

نور وراما يتمشيان أمام كلية الطب، مجد يراقبهما من بعيد، يلوح بسلسلة بيده، يتقدم نحوهما بخطوات مسرعة، يقطع طريقهما واقفاً أمامهما، ترتبك نور تحاول أن تتجاوزه وتكمل طريقها، لكنه يمنعها من التحرك بقطع الطريق عليها، تتشبث راما بيدها وتهمس في أذنها، تقف مستسلمة لكنها تهرب بعينيها هنا وهناك.



- نور انظري إلي، لما كل هذا الخوف البادي على ملاحك، أنا مجد ولست وحشاً أو قاطع طريق.
تنظر إليه بتحدٍ.

-بالفعل أنت قاطع طريق ولا تخجل، ما الذي تريده، ابتعد من هنا قبل أن يراك أخي جهاد ويحطم رأسك.

ضحك ساخراً من كلامها، ثم اقترب منها أكثر وقال هامساً:

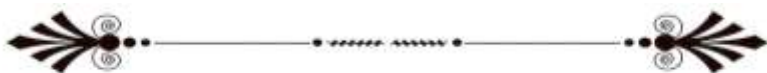
-ولو رآك ذاك اليوم مع الفلسطيني الأبله وليد لحطم رأسيكما، أم استغليت غيابه، ألم يعد يعجبك أبناء بلدك لتحيي غريباً، ثم ماذا يملك ذاك المعتوه، لاشيء، يسكن مع أهله في بيت أشبه بقن الدجاج، ماذا سيطعمك يا مسكينة، قصائد وأشعار؟
قهقه ضاحكاً ثم أكمل كلامه:

-بالمناسبة، هل شفي جهاد من إصابته؟

ارتبكت نور وتلفتت حولها، حاولت أن تفلت من يد راما لكنها سحبتها وشدت على يدها أكثر، أمسك مجد بذراعها الأخرى وقال مهدداً:

-هذه المرة نفذ منها، لكن في المرة القادمة ستصيب الرصاصة رأسه، أمره مكشوف فلا يعتقد بأننا لا نعلم شيئاً، كلها أيام ويصبح في خبر كان، ولكن بإمكانني مساعدته يا حلوتي، فماذا قلت؟

تجمدت نور في مكانها، تبتلع ريقها بصعوبة، دموعها فاضت من عينيها، شفتها السفلى ترتجف، برودة سرت في أطرافها وكأن ثلجاً بات يهطل بغزارة،



ابتعد مجد حينما رآها على هذه الحال، لكنه كان ينظر إليها نظرة المنتصر، سحبتها راما وابتعدتا عنه، جلستا على مقعد خشبي، أخرجت راما من حقيبتها منديلاً ناولته لنور، لتمسح به دموعها التي بدأت تسيل بغزارة على خديها، رن هاتفها فحاولت أن تكون طبيعية قدر الإمكان، تسحب أنفاساً عميقة لتطرد من صدرها خلجات البكاء، نظرت إلى شاشة هاتفها فاضطرب قلبها فرحاً حينما رأت اسم وليد، ارتبكت لوجود راما بجانبها فنهضت مبتعدةً عنها لترد.

سمعت صوته يتسلل إليها كشجن ناي مبحوح، يخفي حزناً تفضحه نبرة صوته، أشواقٌ يرسلها إليها بكلماته، يسألها اللقاء إن استطاعت إليه سبيلاً، لا يبعدهما عن بعضهما سوى بضع خطوات والكثير من الخوف. اعتذرت له وطلبت تأجيل الأمر، احتج على اعتذارها ضارباً به كل الأسباب، أخبرته بأنها لا تريد لقاءه أمام كل الطلاب، وبأن أخيها جهاد بانتظارها بعد انتهاء الامتحان ليرافقها إلى المنزل.

- هل ستأتين إلى كلية الآداب؟

- لا هو من سيأتي سأنتظره هنا.

- أذن إنا سآتي، أريد رؤيتك ولو من بعيد.

- لا تجن يا وليد، لا أريد أن يراك أحد هنا.

- ما الأمر يا نور، لما كل هذا الارتباك والخوف، ولما هذا التوتر في نبرة صوتك، هل حدث معك شيء؟



- لا شيء، كان الامتحان صعباً، ولم أنم جيداً ليلة البارحة، هذا كل ما في الأمر.

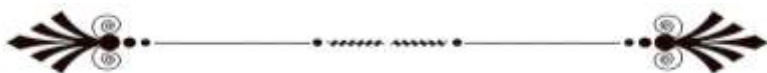
تنهيدة خرجت من صدرها ألهبت قلبه، سمع من خلالها الكثير من الكلمات، وزاد على صمتها صمتاً، وهل يجارى الصمت إلا بالصمت؟ أغلقت هاتفها على عجل حينما أقبل جهاد نحوها، استقبلته بابتسامة مصطنعة لتواري دموعها التي كانت تسقي حقول وجنتيها، مما زادها احمراراً. راما تعبت بهاتفها وكأنما تكتب شيئاً، أغلقته ونهضت متوجهة نحو نور، ألقي جهاد عليهما التحية، وساروا جميعاً نحو مخرج كلية الطب، حيث تركتهما راما مستأذنةً، وسارت وحدها مبتعدةً عنهما.

- لا أرتاح لصديقتك هذه.

- لماذا؟ فتاة طيبة وصديقتي منذ أن كنا في الثانوية.

- أنتِ ذات قلب طيب حتى ترين الناس كلها مثلك، مشكلتنا أننا نظن بالناس كما نظن بأنفسنا، سواءً في الخير أو في الشر، واني أتعجب بأنها مازال تسير معك وتحديثك، أليست موالية للنظام؟

- نحن لا نتحدث بهذه الامور إطلاقاً ولا علاقة لنا بما يحدث، منذ اليوم الأول اتفقنا بأن لا يفرق بيننا أي شيء مهما كان، وأن لا نتدخل بالسياسة، نحن صديقتان منذ سنوات، لا شأني بها إن كانت مؤيدة أم لا ثم أني لم أظهر لها معارضتي للنظام.



- لا علاقة للأمر بميولها السياسي، لكن نظراتها لا تعجبني أبداً، لا أعلم لا أرتاح لها، كوني على حذرٍ منها ما استطعت، هذه الأيام تُظهر معادن الناس على حقيقتها، كوني على حذرٍ منها ومن غيرها، علّ الامتحانات تمر على خير، وتجلسين في المنزل، لا رغبة لي في تقديم الامتحان سوى لأجل أن أرافقك فقط، حتى مريم أتمنى أن تترك التدريب في مكتب المحاماة، الشوارع مليئة بالمخربين وإني أخشى عليكما كثيراً.

-ألا تخشى على نفسك؟.

-مهما حدث لي ليس كما يحدث لكما، أنا أبقي رجلاً، أما أنتما فتيتان، أنتما عرضنا، وعلينا أن نحافظ عليكما كمحافظتنا على هذه الأرض، وهؤلاء الأوغاد مستعدون أن يفعلوا أي شيء لإسكاتنا، ربما يحاربوننا بكن، وكل شيء وارد وغير مستبعد.

- لا تخفني يا جهاد، ما هذا الكلام، لن أسمح لأحد بالاقتراب مني، وإن فعل سأفقع عينه بهذا القلم.

لوحت بقلم كان بيدها، ممسكة به كالسيف، نظر إليها جهاد وتنهد:

-طفلة، تبقيين طفلة، والكلام معك بهذه الأمور كمن يحاول وصف الشمس لأعمى.

- توقف أريد أن ألتقط لك صورة.

أخرجت هاتفها فتحت تطبيق الكاميرا واستدارت نحوه، كبست الزر وهو يمد يده نحوها ليسحب منها الهاتف، فالتقطت له صورة عفوية تظهر



الشمس خلفه بشعاعها الذي أخفى ملامحه، استدارت نور كي تهرب منه
وترى الصورة، ضحكت وأخفت الهاتف في حقيبتها.
- ليست واضحة لكني سأحتفظ بها.
- يا لك من مشاغبة، دعينا نسرع لنلحق بالسرفيس ونصل إلى البيت قبل
الزحام.

(3)

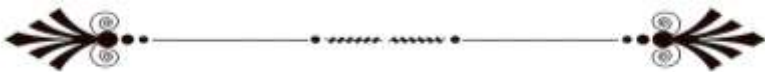
كثرة التفكير تجعل مني امرأة كثيرة الشرود، لا أستطيع متابعة عملي على أحسن وجه، ولا حتى أن أمارس الأشياء التي أحبها، كل شيء معلق حتى إشعار آخر، حتى سعادتي التي كنت بانتظارها منذ سنوات، باتت معلقة الآن حسب الظروف تأجيلاً مني لا من خطيبي، هو على استعداد بأن يتم كل شيء على أكمل وجه، وأن لا نجعل هذه الأيام تؤثر علينا، لكني لا أستطيع حتى أن أبتسم وأنا أرى وطني على حافة حرب وشيكة، بيوت قد سكنها الحزن على فقدانها لأبنائها، كيف للفرح أن يكون أناًياً ويزورني لي وحدي، لا أعلم إلى أين ستأخذنا سفينة الأيام وعلى أي بر سنرسو، كل شيء يدعو للقلق، ولا أعتقد بأن الأمور ستكون على مايرام، التاريخ يعيد نفسه والأب قد فعلها قبل الابن، أورثه تلك السياسة التي حكم بها البلاد منذ عقود، لقد أريق الدماء ولن يتراجع أو يصمت أحد، والخوف كل الخوف أن تباد مدن بأكملها على مرأى من العالم دون أن يحركوا ساكناً، كيف لأيد عارية أن تقابل نيران الدبابات، وتلك البنادق التي توجه فوهتها نحو صدورنا استعداداً لنحرقنا كلها، سيحرقون البلاد ويحكمون حجارها ليس مستبعداً وهم يرددونها على مسامعنا، (القائد أو نحرق البلد)..

بثُ أسمعهم يرددون وبكل ثقة (خلصت) والواقع يقول عكس ذلك، ما الذي انتهى بالنسبة لهم، هل انتهت الثورة؟ وباتت حرب شوارع؟



أم أنهم مُنحوا الضوء الأخضر لقتل كل من يخرج وينادي بالحرية؟، السجون امتلأت بالمتظاهرين وكأنه رد على مطالبتهم بتبويض السجون من المعتقلين السياسيين وأصحاب الكلمة، تطالبون بالإفراج عن شخص سنعتقل بدلاً منه عشرة، تنتفضون لمقتل أحدهم، سنقتل بعده مئة، هكذا أصبح الرد على المتظاهرين، لم يبق سوى أن تخرج الطائرات وتبدأ بقصف الأحياء وهدمها فوق رؤوسنا، كما حدث في حماة في تلك الحقبة من الزمن، أتأمل وجوه أهلي كأني في لقائي الأخير معهم، بعض العائلات خرجت من المدينة إلى الأرياف خوفاً من القادم، أبي ما يزال يتردد إلى دكانه يجلس بين الأواني النحاسية حاملاً مطرقة من زان يطرق بها النحاس يشكله كيفما يشاء، ربما بات حالنا كهذه الأواني حيث علقنا بين المطرقة والسندان، أخشى على أخي جهاد من الاعتقال، انغماسه في أحداث الثورة لا يطمئنني، خصوصاً بعد إصابته الأخيرة، إلى متى سيبقى أمره مخفياً عنهم والجميع يعلم بأن أجهزة الأمن لا يخفي عليها أي شيء، لا أصدق متى أسمع صوته وهو عائد من الكلية برفقة نور، أتفحصه بعيني لأتيقن بأنه عاد، هذه الأيام باتت كأحجية، لا أحد يعلم حل لغزها، فكم من شباب خرجوا من بيوتهم ولم يعودوا، حتى أن البعض منهم كان يقف على الحياد.

خوفي على أسامة لا يقل عن خوفي على شقيقي، فهو الآخر شاب ووجوده الآن في العاصمة يدعو للقلق، الأوضاع في دمشق ليست أفضل من هنا،



فالتشديد الأمني مكثف، والحواجز لا تترك أحدًا من شأنها، يكفي أن تكون من منطقة نائرة ل يتم اعتقالك، فالغضب حينما يحلّ يعمّ.
غيابه ترك فراغًا في نفسي، وجوده كان يشعري بالأمان، يده تنتشلي من الغرق في بحر الحزن، يمنحني الفرح دومًا يقدمه لي على طبقٍ من طمأنينة، حديثه يعيد إلي السكينة والهدوء، على الرغم من حديثنا اليومي على الهاتف لكنه لا يغني عن وجوده، في قربه أمان لروحي المضطربة، يكفي أن أراه لأستعيد توازني، الغرق في عينيه يسافر بي بعيدًا عن هذه الدنيا، لأعيش في دنيا ليست فيها سوانا، يكفيني قربه حتى أنسى الواقع وأسلا عن كل ما يخيفني خلف الجدران، دون حتى أن يتفوه بأي كلمة، جميلة هي الحياة بقرب من نحب، لكنها مخيفة جدًا في غيابهم).

أغلقت مريم المذكرة ووضعتها على الطاولة، الليل بهدوئه المخيف يسدل ستائره على الكون، تتأمل ظلامه خلف النافذة، يتسلل ضوء القمر الشحيح من بين أغصان شجرة الأكي دنيا، صوت بومة تقيم على أحد الأغصان تسامر الليل، البيوت في الحي تشاطر الليل ظلامه، النوافذ التي كانت من قبل ينفجر منها النور والحياة، باتت مغلقة صامتة، لمّا يغادر أهلها بعد، لكنهم فضلوا المكوث في الغرف الداخلية التي لا تطل على الشارع، بعيدًا عن إطلاق الرصاص العشوائي، فيبدو البيت خاويًا لا حياة فيه.

أسدلت مريم الستائر وأطفأت النور، ثم توجهت نحو سريرها تتلمس الجدران والأثاث لتستدل طريقها، ضوء القمر لا يكفي لينير المكان، وأنوار



الشارع مطفأة بعدما كانت تغنيها عن إنارة الغرفة، توارت تحت الغطاء وسحبته فوق رأسها، تسارعت أنفاسها وارتعدت أوصالها، شعرت لوهلة أنها في حفرة عميقة، أو في سجن مظلم، انتابتها الرهبة لمجرد الخيال وكادت أن تصرخ، رمت الغطاء ونهضت مسرعة لتشعل الإنارة، حاولت التقاط أنفاسها الهاربة من صدرها، رمت نفسها في سريرها وتدفرت بغطائها، (سأنام والغرفة مضاءة، لست خائفة لكن العتمة تخنقني).

(4)

بدأنا نخاف من كل شيء، من العتمة، الليل، الوحدة، الأصدقاء، وحتى الجدران، نخاف من السير في الشارع، من السماء، من الصمت الذي يسبق كل كارثة، من أنفسنا من جنسنا من إنسانيتنا، قلوبنا ومشاعرنا، من كل هذا الرعب الذي يحيط بنا، من تلك الأعين التي ترقبنا في كل مكان، شعور بالغربة بات يجثو فوق قلوبنا منذ بدأت الاحتجاجات، سهام اللوم تلقى علينا من أعينهم، ربما حتى سهام الحقد، لا أدري من الذي عبث بألوان هذه المدينة حتى تشوهت ملامحها، كانت متجانسة متناغمة، لطخها أحدهم بلون العنصرية الأسود، حتى باتت الألوان تنفر من بعضها البعض، تتصارع فيما بينها كلُّ يريد أن يكون هو السائد في اللوحة لا غيره، ولوحة بلون واحد ستخلو من الجمال حتمًا، باسم الوطن؟، باسم القائد؟ باسم من يصارع هؤلاء؟ باسم الوجود الذي ربطوه بوجود القائد؟

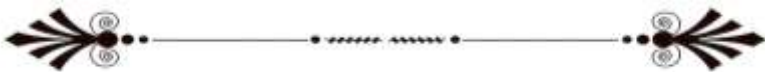
هراء لو أنهم يفكرون قليلًا فقط لعلموا أن الثورة لصالحهم أيضًا، جميعنا أبناء هذا الوطن، أبناء هذه الأرض تسري القوانين علينا جميعًا، والإصلاحات ستمسنا جميعًا، لا أعلم ربما، ربما لديهم استثناءات لا أنسى حينما شاركت في مسابقة الرسم وتفوقت على الجميع، كيف ظهرت تلك التي رُشح اسمها لتمثل رسامي المدينة فقط لأنها ابنة ضابط ذو مرتبة عالية.



هل علينا جميعاً أن نكون أبناء مسؤولين حتى ننال كل ما نحلم به، حتى
بجهدنا لا نناله، مجد لم يكن يوماً طالباً مجتهداً، إلا برتبة أبيه العسكرية
التي خولته أن يأخذ مكاناً ليس له في إدارة الهيئة الطلابية، وهو الآن يريد
أن يمتلك من تعجبه من الفتيات، بنرجسيته المقرفة، ما ذنب وليد لأن
يكون لاجئاً رغم ولادته في هذه المدينة، وكأن اللجوء يورث عبر الدماء،
هل سنكون يوماً ما مثله لاجئين، في بلاد لا نعرفها؟

هل سأستطيع يوماً أن أفصح عن حبه لأحد وأخبر الجميع بأنه من اختاره
قلبي ليكون شريك حياتي، هل سيتقبل أهلي إن طرق باب بيتنا وجاء
لخطبتي ويرحبوا به كما رحبوا بأسامه؟

لطالما سمعت والذي يحكي عن بطولات وتضحيات الفلسطينيين، لكنه في
ذات الوقت حينما يتعلق الأمر بالنصيب والارتباط، يتحدث عن عائلات
حمص المعروفة، ورغبته في التقرب منها مصاهرةً ونسباً، ولا يجذب الزواج
من أبناء بلاد أخرى ولو كانوا يقيمون على هذه الأرض، ما ذنب الذين لا
يعيشون في أوطانهم؟، جميعنا مهددون أن نغدو بلا وطن، وأن تعبث بنا
هذه الحياة جيئةً وذهاباً، لا أحد يغادر بيته إلا مكرهاً، بالأمس غادرت
جارتنا سمية مع عائلتها إلى لبنان، قبل أن يذهب أبناؤها إلى الخدمة
العسكرية حسب قولها، هم عمال بسطاء يعيشون من تعب أيديهم بعد
وفاة والدهم، دخل أبناؤها لبنان سرّاً ثم لحقت بهم، لا أعتقد بأن هذه
العائلة ستعود يوماً وسيصبح اسمهم من بعد ذاك اليوم (لاجئين).



لا نعلم نحن إن كنا سنبقى في مأمن هنا، وكل شيء يوحي بأن الأمور تسير على نحو أسوأ، الاشتباكات في حي بابا عمرو احتدت وخرج معظم أهله منه فهل ستنقل العدوى إلى باقي الأحياء؟، ليس ذلك ببعيد بل ستشتعل النار في حمص كلها، كما ستشتعل النار في قلبي إن ابتعدت عن وليد. وليد قلبي....

صحت نور من شرودها وحديثها مع نفسها، وجدت نفسها بين نوتاتها ودفاتها بعدما انتهت من دراسة المقرر لتقدم الامتحان الأخير في يوم غد، أمسكت هاتفها المحمول وتفحصت بريد الرسائل فوجدت رسالة نصية من وليد يخبرها بأنه في انتظارها للاتصال به إن استطاعت، اهتز قلبها فرحاً وتسابقت الدماء راقصةً إلى وجنتيها تلونهما، نهضت مسرعة نحو الباب فأغلقتة لئلا يسمع صوتها أحد، ثم جلست في سريرها متدثرة بالغطاء، تنهدت قليلاً لتنظم ضربات قلبها المضطربة، ثم اتصلت به.

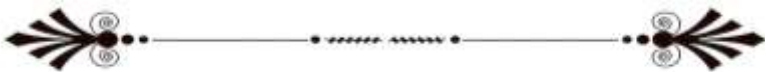


(5)

تشرق الشمس من بين جنبات الكون لتبسط بنورها على الخليقة، تصحو الخلائق مستبشرة بصباح جديد، وجه الطبيعة يبدو في كل يوم أجمل، لكن البشر هم من يشوهون جمال هذا الوجود، مذ قتل هابيل أخاه قابيل وسنة القتل تشرعت رغم عظم جريمتها وشناعتها، كيف لبشر أن ينهي حياة بشر مثله دون أن يرف له جفن، ويخلف وراءه نهراً من أحزان، ليخيم الوجوم على الأرض، فيغدو صوت البلابل على الأشجار لحناً من شجن، الياسمين بلونه الأبيض بات رمزاً للأكفان، والجلنار بلونه الأحمر رمزاً للدماء التي تُراق.

اليوم الأخير في امتحانات الجامعة، نور وجهاد يترافقان إلى الجامعة معاً كما في كل يوم، مريم تذهب إلى عملها في مكتب المحاماة، وهي تزداد حنقاً لتلك القضايا التي تظلم بموجبها حقوق النساء، فقاتل المرأة يُبرأ بطريقة ما أو تخفف عنه العقوبة، المطلقة تحصل على طلاقها بعد تنازلها عن كل حقوقها، لتخرج بأقل الخسائر بسمعتها دون أن تدنسها الإشاعات والافتراءات، لا بد أن تحظى بزيارة العم أبي شادي، فقد شغلها عنه حزنها على سفر أسامة، وانشغالها بعملها، فتتوي حين عودتها زيارته لتتحدث إليه، وتشفي قريحة تساؤلاتها.

قبل بدء ساعة الامتحان، في مكتب الهيئة الطلابية في الكلية يجلس مجد وراما يتهاامسان، تحاول راما التقرب منه وتلبية كل ما يريد علّها تكسب



ثقتة ووده، لم يعد يرغب بالتقرب من نور حبًّا بل انتقامًا من كبريائها
وصدّها له، ولا بد أن يفعل شيئًا ما في هذا اليوم قبل بدء العطلة الصيفية،
واختفاء نور من أمامه، لن يهنأ له بال وهو يعلم بأنها سعيدة بحبها مع
وليد، لن تنتصر عليه فتاة، وهو الذي اعتاد الحصول على كل شيء دون
جهد، حتى أسئلة الامتحان.

في صغره أعجب بطائر سنونو كان يتردد على شجرة حور باسقة في حديقة
منزلهم، حاول بكل الوسائل أن يلتقطه، والطائر بخفة جناحيه كان ينجو
ويحلق بعيدًا ثم يعاود الهبوط على غصن الشجرة، حتى اعتلاه الغضب وجاء
ببندقية صيد ووجها نحو الطائر، أطلق عليه نارها فخرّ صريعًا، حملة
وذهب به إلى والده الذي استهجن بدوره صيده لطائر سنونو بدل عصفور
دوري أو حمامة، فأخبره بأنه أراد التقاطه حيًّا ليتأمله عن قرب، وربما
يضعه في قفص، لكنه لم يستطع التقاطه فعمد إلى قتله.

- طائر السنونو لا يعيش في الأفقاص، وليس بذاك الجمال لتضعه في قفص
وتأمله، لو أنك أخبرتني لكنت اشتريت لك طائرًا ملونًا بقفص جميل،
ببغاء مثلاً أو كناري ذو غناءٍ خلّاب، ما الذي جنّيته الآن من قتلِكَ لهذا
السنونو القبيح؟

- أن أقتله خيرًا من أن يقتلني حسرة وهو يتراقص بين الأغصان حرًّا دون
استطاعتي لالتقاطه وترويضه، الآن ارتحت، حققت رغبتني سأطعمه
للقط.



- لهذا الولد مستقبل عظيم، لم يتجاوز العاشرة وهو بهذا الطموح والإرادة. تهللت أسارير والده لفعلته، واستبشر به، سيكون ذا عزم وصلابة و لن يقف في طريقه شيء. هكذا تحدث إلى زوجته التي كانت سعيدة هي الأخرى وفخورة بابنها البكر.

وهو الآن يريد الحصول على نور حتى ولو قام بأذيتها، فما الذي يمكنه فعله؟

- اذهبي الآن سيبدأ الامتحان، وستكون نور بانتظارك، لا تنسي أريد صوراً احترافية.

- لا تقلق سأفعل ما بوسعي، إلى اللقاء.

خرجت راما مسرعةً تتلفت يميناً وشمالاً، تحاول الاتصال بنور للقائها والدخول معاً إلى قاعة الامتحان.

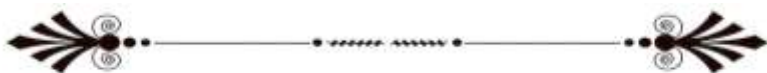
نور تتحدث مع وليد على الهاتف، تقف بالقرب من جدار بعيداً عن تجمع الطلاب، تتحدث إليه همساً، تنهي الاتصال حينما ترى راما متوجهة نحوها وهي تشير لها بهاتفها من بعيد، تستقبلها باسمّة تفتح لها ذراعيها وتضمها.

- ما كل هذا الحنان المفاجئ الذي هبط عليكِ دفعةً واحدة.

- سأراه اليوم يا راما، أريد مساعدتك.

-لم يهبط عليكِ الحنان فقط بل الجرأة أيضاً، ها... ما الجديد أخبريني.

ابتسمت في سرّها قائلةً: سهلت عليّ المهمة، هذا ما أريده.



- دعينا ندخل إلى القاعة الآن سيبدأ الامتحان لم يتبق وقتٌ كثير،
وحينما نخرج أخبرك بكل شيء، لكن عديني أولاً بأنك ستساعديني.
- بالتأكيد أعدك، أنا جاهزة لكل شيء، دعينا ندخل.
- هيا بنا.

كل إناء ينضح بما فيه، وقلب نور إناء من نقاء وصفاء لا يجعلها تشعر
بالكمين الذي ينصب لها من أقرب الناس، من منحههم الثقة، منحههم
أعناقنا عاريةً نضعها تحت سطوتهم، مغمضين الأعين مطمئنين بأنهم لن
يطعنوا ظهورنا يوماً، الثقة شيء ثمين لا تُمنح لأَيِّ كان، والسر لا يجب أن
يكون خارج دائرة مؤلفة من شخصين، حينها لن يبق السر سرّاً وسينتشر
بين القاصي والداني كالنار في الهشيم، من يملك سرّك ملك حياتك، فهل
بإمكاننا منح حياتنا بسهولةٍ لأحد؟ هي نوعٌ من العبودية، والحرية أن لا
يملك أحد مفاتيح أسرارنا.

انتهى الامتحان وخرج الجميع من القاعات جماعاتٍ جماعات يتفق البعض
منهم لقضاء وقتٍ معاً قبل أن ينصرفوا إلى بيوتهم، والذي كان يأتي من
خارج المدينة أن يعود إلى بلده سالمًا، راجين أن تنتهي العطلة على خير
ويعودون للقاء في العام الدراسي القادم.

جهد بانتظار نور ليعيدها إلى المنزل، وجدته واقفاً بالقرب من مدخل
الكلية، كانت راما برفقتها ممسكة بيدها، فضغطت عليها كإشارة منها أن
تتحدث إلى جهد ليركها معها بعض الوقت.



- أخ جهاد لن أسلمك نور الآن نريد أن نبقى قليلاً مع بعضنا، ربما نحتسي القهوة في الكافتيريا وحينما ننتهي نتصل بك.
- أرى بأن راما تتحدث بالنيابة عنك يا نور أين لسانك هل تركته في الداخل.

احمرّ وجهها وارتبكت:

- لا، لكن راما تريد أن نذهب للكافتيريا معاً ولن نتأخر، هل لديك شيء ما لتفعله حتى ننتهي؟

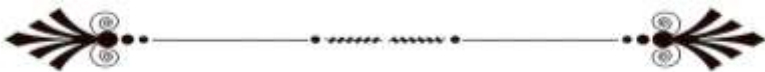
صمت قليلاً وهو ينظر إليهما، ونور ترقب رده بقلق، تخشى أن يرفض طلبها ويعود بها إلى البيت ولا تحظى بلقاء وليد، ولن تجد فرصة أخرى للقاءه حتى العام القادم.

- حسناً، وأنا سأقضي بعض الوقت مع صديقي عامر، اتصلي بي حينما تنتهيان، لا أريد أن نتأخر.

رقص قلب نور فرحاً وهمّت لتقبل جهاد، لكنه ابتعد قبل أن تقترب منه، أدار ظهره ومشى وهو يلوح لهما بيده.

لمعت عيناها ورجفت يداها وهي تُخرج هاتفها من حقيبتها لتتصل بوليد ويتفقا على اللقاء الذي خططت له مع راما.

لم تكن تعتقد بأن تنجح بكل تلك السهولة، وكأن القدر يسهل لها طريقها لرؤية محبوبها، ولكن لا تعلم ما يجبئه لها بعد ذلك.



التقت بوليد في الحديقة الخلفية لكلية الطب، كي تتواري عن أعين الطلاب وأخيها جهاد ومن يعرفه، كان لقاءً أشبه بلقاء الأرض العطشى بالمطر بعد سنوات عجاف، التقت الأعين التي غدت تحكي كل كلمات الحب والشوق، وقفت راما بعيداً عنهما وحاولت أن تتخفى عن أعينهما اللتين لم تعد ترى أحداً في الوجود إلاهما، لتستطيع أن تنفذ ما طلبه منها مجد، أخرجت هاتفها وبدأت بالتقاط الصور، حاولت أن يظهر وجهيهما جيداً، كانا يجلسان تحت الشجرة كطيور الحب، يتهاامسان، يتحادثان، يتبادلان الابتسام، أمسك بيدها في غفلة منها، وضعها ع شفتيه اللتين شعرت بحرارتهمما اللاسعة والتي لامست قلبها قبل يدها، قبلها طويلاً، ثم أخفاها بين يديه، وهي تحاول أن توارى وجهها عنه خجلاً، وقد ذاب قلبها حباً ووجدًا.

أطلقا الوعود بأن لا يتخليا عن هذا الحب مهما حدث، وأن يحافظ كل واحد منهما على قلب الآخر بعدما امتلكه، وعدها بأن يطلب يدها حال تخرجه من الجامعة، وبأنه سيفعل المستحيل كي يحظى بها، داعيان بأن تنتهي أزمة البلاد على خير، تحدثا بالسياسة وبما يجري على الأرض، لم يتركا حديثاً إلا وتطرقا له، ثم عاودا للكلام الحب والهيام.

سرقتهما الدقائق فلم يشعرا بها، كيف مرّ الوقت سريعاً وهما في جنة الحب، لم يرغبوا الخروج منها، ليت الوقت يقف حياذياً بعيداً عن العشاق، ولا يمارس دورته عليهم، أن يبقيا بعيداً عن هذا الكون وما فيه، وأن لا يعودا



للمواقع الذي يحكم عليهما بالفراق، ولو كان فراقاً مادياً، فالأرواح تبقى ملازمة بعضها مهما فرقتهما المسافة، ومهما حكم الوقت عليهما بالغياب، فلا بد من لقاء آخر مهما طال الزمن وتوالت الأيام.

(6)

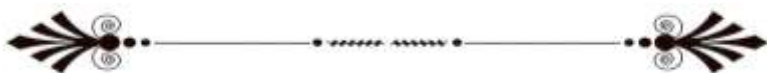
تقف مريم أمام دكان العم أبي شادي المغلق، ساورها القلق حوله، انتظرت قليلاً علّه يأتي ويفتح دكانه كما في كل صباح، لم تكن من عادته التأخير، فقد كان يسابق الشمس في شروقها ويستيقظ مع بزوغ أولى خيوط الفجر، لكبار السن طاقة لا نملكها نحن الشباب، تراهم يهجون دفء أسرهم ويسارعون إلى صلاة الفجر، يسبحون ويكبرون ويقرأون القرآن، ثم يصنعون الشاي ويحتسونه على صوت المذياع يستمعون لآخر أخبار الوطن، يتناولون فطورهم الغني بخيرات الأرض من الزيتون وزيته والزعر البليدي، الجبنة واللبننة والشنكليش، كانت البركة تحفهم في أوقاتهم وأعمالهم، والسعادة لا تفارق وجوههم.

الساعة الآن التاسعة صباحاً، وكان يجب أن يكون في دكانه منذ ساعتين، لا بد وبأن مكروهاً ما قد حلّ به، أسرع نحو باب بيته القريب من الدكان، لم يكن يبعد سوى بضعة أمتار، حائط بحجارة سوداء وبيضاء وكأنه رقعة شطرنج كبيرة، يتوسطها باب خشبي عتيق، مدت يدها لطرقه لكنها وجدته مفتوحاً، وكأنه يأبى أن يُغلق في وجه أي زائر.

دخلت بخطواتها التي قادتها إلى الإيوان، التفتت حولها لترى النافورة الصغيرة التي تتوسطه وقد جفّ مأوها، أصص الزهر قد اصطفت على حرفها، وبجانب الجدران وتحت النوافذ، أضفت على المكان جمالاً أخاذاً، على الرغم من الغبار الذي كان يستحل الأماكن والرفوف، نادت بصوتها العم أبا



شادي فما من محجب، انقبض قلبها رعباً، صعدت على درج من رخام عتيق إلى الأعلى علّها تجده في إحدى غرف العلّية، لم تطل البحث طويلاً فلا يوجد سوى غرفتين، إحداها كان بابها مفتوحاً، في صدر الغرفة جسدٌ مسجى على سرير خشبي تعلوه ناموسية بيضاء، على الجدار الشمالي كانت رفوف مليئة بالكتب، وطاولة صغيرة بجانب الجدار وكرسي، وبعض الأثاث القديم الذي يتبعثر في أرجاء المكان، منها صندوق كبير من خشب السنديان مرصع بالزينة والصدف ومسامير فضية، ودبابيس صغيرة، تمنحه بريقاً ولمعاناً، له قفل في وسطه يسمى باللهجة السورية (سَبَتْ)، وضعت أعلاه بعض الفوانيس القديمة المغطاة بصوف مزركش منسوج يدوياً على مقاسها لحمايتها من الغبار، ملاءات بيضاء مطرزة الحواف تغطي رفوف محفورة في الجدران تسمى (الكتيبة) قد وضعت عليها بعض الأواني الزجاجية والنحاسية، وكأنها كانت كما وضعتها زوجة أبي شادي ولم يتم تحريكها منذ ذلك الوقت، رائحة المكان كرائحة التراب المبلل، وعطر الصنوبر، كان كل شيء في ذاك المكان أثرياً يحكي تاريخاً من تراث حمصي عريق، على الجدار فوق السرير ثلاث صوراً معلقة، اثنان لشابين على ما يبدو أنهما ابنيه، وصورة له تجمعه بزوجته وهما في شبابهما، كانت كلها بالأبيض والأسود، خلا الحائط من صورة لابنته الوحيدة المسافرة، وكأنه لا وجود لها بينهم، أو اكتفى بتعليقها على جدران ذاكرته بعيداً عن أعين الناس.



اقتربت من ذاك الجسد الذي كان ساكنًا بلا حراك، عدا عن صدره الذي كان يعلو ويهبط، ما يدل على أنه مازال متمسك بالحياة، وضعت يدها على جبينه فكانت الحمى قد احتلت جوارحه، ركضت مسرعة وأحضرت منديلاً مبللاً بالماء وضعته على جبينه، شفق على فوره وفتح عينيه «دارت عيناه المغرورة بالدموع، نطقت شفتاه عن عبث (سلمى ابنتي) ثم علقت بمنجرتة حشرجة سعال ثقيل، رفعت له رأسه وأسندته بوسادة، دخل في نوبة سعال طويلة حتى احمر وجهه وانتفخت أوداجه، ناولته مريم كأس ماء وساعدته في شربه كطفل صغير أمامها، تركته يرتاح قليلاً وأحضرت له الزعتر البري الساخن بعدما بحثت في المطبخ الذي بدا مهجوراً منذ سنوات، تابعت وضع الكمادات على جبينه حتى انخفضت حرارته واستعاد صحوه.

- لقد أخفتني عليك كثيراً عمي.

- أنا بخير، حمى الحنين أصابتني، أبنائي وزوجتي ينادونني.

- استهدي بالله يا عمي، بعد عمر طويل إن شاء الله، ربما استهلكت الكثير من السجائر، سأحضر لك الطبيب ليصف لك الدواء المناسب، لو أن أسامة هنا جاء على فوره، لكنني سأحاول أن أجد لك طبيباً ليأتي في الحال. أخرجت هاتفها للبحث فيه لكنه ثناها عن ذلك.

- تركت التدخين منذ سنوات ولو أن لي رغبة عارمة للعودة إليه، لأحرق به أوراق الذاكرة التي تنهكني، من الصعب على الإنسان أن يتأقلم على واقعه وهو عالق في سرايب الذاكرة، واقعه الموحش الخالي من كل الأحبة، الوحدة



قاتلة يا ابنتي، أعيش على فتات الذكريات الجميلة التي كانت تجمعني بعائلي، أقتات بها لأكمل ما تبقى من عمري، أيامي المتبقية تؤلمني، لا أعلم إن كنت سأعيش لأشهد ولادة وطن جديد وأموت قرير العين، أم أن جرحه سيبقى نازفًا حتى يقضي عليّ.

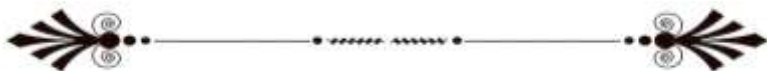
أطرت رأسها حزنًا ومسحت دمعة من عينها كادت تسيل، نظرت إليه باسمه محاولة أن تخرجه من حزنه.

- لكن لك في هذه الدنيا ابنة ماتزال على قيد الحياة، لربما اجتمعت بها يومًا، كن قويًا لأجلها، لأجلنا جميعًا يا عمي.

- لقائي بالأموات أقرب منه للقاء سلمي، لن تعود وإن عادوا، خرجت مكسورة الخاطر، ظلمناها جميعًا، خرجت مع زوجها الذي رضيت به رغمًا عنها وسافرت دون أن يأتي منها أي خبر، كيف تعيش وهل أنجبت أطفال، أهي سعيدة أم حزينة، هل يعاملها زوجها بشكل جيد، لا تغب عن بالي أبدًا وأدعوا لها دائمًا في صلواتي.

-أعتذر لأنني ذكرت بك بها، لكن انتابني الفضول، كيف لفتاة أن تقطع أهلها بهذا الشكل.

- تزوجت من قبل برجل ترغب به ويرغب بها، كانت صغيرة لم تتجاوز السابعة عشر من عمرها، لا أنسى كم كانت سعيدة حينما زفت من هذا البيت بفستانها الأبيض بدت وكأنها ملاك يمشي على الأرض، لكن سعادتها لم تشرق عليها الشمس، طلقها زوجها وعادت إلينا فجرًا بفستانها.



شهقت مريم وفتحت فاهها مذهولةً، لم تستطع حتى النطق.
نوبة سعال أوقفت العم أبا شادي عن حديثه، ارتبكت مريم لا تدري ما
تفعله، سعال ثقيل يخرج من صدره، بصق على إثره دمًا وصديدًا.

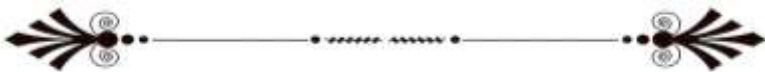
- عمي يجب أن أستدعي الطبيب لا تبدؤ على مايرام.
أشار لها بيده معلنًا عن رفضه، وتابع حديثه بعدما استعاد أنفاسه.
- لا حاجة لي للطبيب، هي الذكريات تنخز صدري، ابنتي سلمى شريفة
طاهرة وأنا متأكد من ذلك، لكنني لم أتمالك أعصابي ورميتها أرضًا بعدما
أشبعتها ضربًا وركلاً، كانت تتوسل إلي بجرقة وتقسم بأنها لم تفعل شيئًا ولم
يمسها إنسان، لم تكن عذراء أو هذا ما بدا لزوجها، وأعادها إلينا وهو يسب
شرفنا، لم يكن أخوها في البيت وإلا كانوا وضعوا السكين على نحرها، قبل
أن يتأكدوا من براءتها، سحبتها والدتها من بين يدي وأدخلتها الغرفة
وأغلقت عليها، وأقسمت لي أنها ستدبحها بيدها إن ثبت ذلك، طلبت مني
التريث حتى تأتي بالداية وتفحصها، كانت حكيمة أكثر مني رحمها الله.
ارتعدت أوصال مريم وهي تستمع لحديث أبي شادي وتغوص معه في بحر
ذكرياته.

- وما الذي حدث بعد ذلك.
- خرجت الداية مستبشرةً ضاحكة، بأن سلمى عذراء حتى بعد دخول
زوجها بها، لا أعلم كيف ذلك ولم أسمع بهذا الأمر من قبل، قالت بأنها
لن تفقد عذريتها حتى تنجب أول أطفالها، فرحت في سري لبراءتها، لكن



الشك مازال ينهش قلبي، أخبرنا طليقها بذلك لكنه رفض أن يعيدها على الرغم من توسلات سلمى وبكائها المرير، وعدنا أن يكتم سرها مقابل تنازله عن كل مستحقاتها، اختلقنا قصة لأخوتها عن سبب طلاقها حينما عادوا ووجودها في المنزل، أحدهم ضربها حينما علم بطلاقها، وبات يصفها بالعار الذي نزل علينا، بقيت سجينه غرفتها تأكلها الحسرة على حالها، حتى مرضت يوماً وأحضرنا لها الداية التي بشرت بحملها، كان الخبر صاعقة ضربت رؤوسنا، كيف تنجب طفلاً من رجل لا يريدنا، فأمرت الداية بإجهاضه مقابل مبلغ من المال، ففعلت ما أمرت، ما يزال صراخ سلمى كمطارق من نار يضرب مسامعي حتى اللحظة، أصابتها الحمى على إثرها، لم نحضر لها طبيباً، كانت الداية تعانينا برفقة والدتها فقط، وقد أخبرتنا الداية بأنها ربما لن تنجب بعد الآن، دخلت في نوبة حزن طويلة، هزل جسمها وشحب لونها، وانطفأ جمالها، حتى جاء رجل يكبرها بعشرين عاماً من خارج المدينة، يرغب بعروس صغيرة، فدلته الداية على سلمى، التي رفضت الزواج به بشدة، لكني وأخوتها فرضناه عليها، وهددها أحد أخوتها بالذبح إن لم تفعل، وصفها بالعار الذي يجب أن يدفن، فدفناها وهي على قيد الحياة، خرجت وهي تقول لنا (اعتبروني ميتة، ولا تسألوا عني، لم تعد الحياة تعني لي شيئاً، فلقد لبست كفني منذ ليلة عرسي الأولى).

نوبة سعال تخللت كلماته وهو يشير بيده إلى الصندوق الخشبي (السَّبْتُ).



- هنالك في ذاك الصندوق فستان عرسها وأشياءها، وضعتها والدتها التي بكتها طويلاً، في ذات العام مات أخيها شادي في حادث سير على طريق دمشق، ومن بعده بحوالي العامين استشهد فادي الذي كان عريساً جديداً، خسرت أبنائي جميعاً ولم أحظّ منهم بحفيد واحد، سلمى في عداد الأموات كما طلبت، فكيف لها أن تعود.

لم تعد تتمالك مريم دموعها التي باتت تسيل غزيرة على خديها، بكت سلمى والعم أبي شادي، بكت وحدته التي يعيشها منذ سنوات، بدون عائلة تؤنسه وترعاه، قطع بكاءها سعال أبي شادي الحاد، فسارعت للاتصال بصديقتها لترسل لها رقم أحد الأطباء لمعاينته، لكنه بدأ يشير لها بيده ليثنيها عن ذلك، تحدث بصوت متقطع:

- ما حاجتي للطبيب يا ابنتي، دعي هذه الروح تتحرر من هذا الجسد المتهالك، لقد سئمت الوحدة وتريد عناق أحبتها.

- لا تقل هذا أرجوك يا عمي، لا عليك سأستدعي الطبيب في الحال. دلفت خارج الغرفة وطلبت رقم الطبيب، أرسلت له العنوان وعادت إلى جوار أبي شادي، تذكرت المحامي فأرسلت له رسالة نصية بعدم مجيئها اليوم إلى المكتب.



(7)

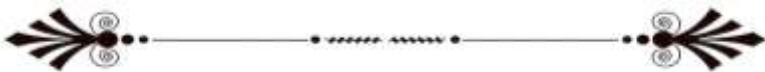
طلقات رصاص من جهة حي بابا عمرو، فزعت لها الطيور وحلقت في السماء، وطيرا الحب تحت الشجرة نهضا مذعورين، توارت نور في حضن وليد دون شعور منها، خبأها بين ذراعيه، شعرت بدفء غريب سرى في عروقها، وأمان لم تشعر بمثله من قبل، قفزت راما من مخبئها فزعة وركضت نحوهما، تنبه وليد وأفلت نور من بين يديه، ابتعدت نور عنه معتذرةً على تصرفها، ابتسم لها وليد وقلبه يرقص طرباً، ثم همس لها:

- لطالما أكره صوت الرصاص ومن يقوم بإطلاقه، لكنني ممتن الآن لهم لأنني حظيت بحضن من حبيبي.

توردت نور خجلاً، وأدارت وجهها عنه لتواري خجلها وارتباكها، لمحت راما قادمة نحوهمها، والتي كانت تسب حظها لعدم التقاطها للمشهد الأخير بهاتفها.

سحبت راما نور من يدها مودعتا وليد، وركضت بها نحو الساحة أمام المباني، كان الطلاب جميعهم قد وقفوا بجانب الجدران لحمايتهم من أي رصاص طائش، والذي كان ينبئ بحدوث معركة ما في الحي، تلقت نور اتصالاً من شقيقها جهاد، يحثها على الإسراع في القدوم إلى النفق حيث ينتظرها هناك.

- اذهبي أنت، لدي عمل في شؤون الطلاب، أنتهي منه وأغادر، لن أودعك سنلتقي حتماً، سآتي لزيارتك في المنزل.



حثت خطاها نور باتجاه مدخل الجامعة الرئيسي، وذهبت راما إلى مكتب
الهيئة حيث كان مجد بانتظارها.

- أنت الآن في قبضتي يا نور، حان وقت تنفيذ الخطوة الثانية.
قالها مجد وهو يقلب في الصور التي أرسلتها له راما، ثم قام بإجراء عدة
اتصالات هاتفية، راما تداعب خصلات من شعرها الذي نثرته على كتفيها،
وهي تنظر إلى مجد بإعجاب.

دخلت نور إلى غرفتها فور وصولها إلى المنزل برفقة جهاد، وقفت أمام المراة
تأمل هيئتها، تستعيد اللحظات التي قضتها مع وليد، وكيف مسك يدها
واختبأت في حضنه، بدلت ثيابها وتوارت تحت أعطيتها مغمضة عينيها، لا
تريد لصورة وليد المطبوعة في ذهنها أن تغيب، سعادة لم تعشها من قبل،
رائحة عطره ما زالت عالقة على مسام يديها، التي وضعتها بالقرب من أنفها
تستنشقها ذرة ذرة، لا تريد لها أن تنتهي.

أخرجت هاتفها وطلبت رقمه لتسمع صوته وتشاركه سعادتها بلقائه، لكنه
فاجأها صوت المجيبة الآلية، بأن الرقم التي تطلبه خارج نطاق التغطية،
فانقبض قلبها، وتحولت سعادتها إلى خوف جثم على قلبها.

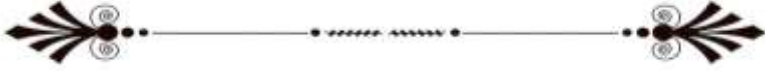


(8)

خرج الطبيب بعد معاينته للعم أبي شادي، وهو يحث مريم لأخذه إلى المستشفى بسبب سوء حالته، وبأنه لن يستطع أن يقدم له العلاج المناسب وهو في المنزل، مخبراً إياها بأن المريض يعاني من ارتفاع في الضغط الدموي، وأنه يُخشى أن يصاب على إثره بنوبة قلبية، وضع له قرص دواء صغير تحت اللسان لخفض ضغط الدم ووصف له مجموعة أدوية، وإن لم يتحسن حاله فهو بحاجة للعناية المركزة على الفور.

شكرت الطبيب وعادت مسرعة إلى الداخل، وجدت العم ينظر إليها مبتسماً، أشار لها بيده نحو رفوف المكتبة على يساره، كانت تحوي كتباً متنوعة من تاريخ وفلسفة، كتب تفسير وأخرى تخص الأدب العربي والشعر، وقفت تتأمل الكتب وتقلب في صفحات بعضها، قاطعها صوته المرتعش:

- لن تجدي ضالتك هنا، هذه الكتب جمعها ولدي فادي لحبه المفرط في القراءة والأدب، لم تسنح له الفرصة في متابعة دراسته، فانكب على القراءة التي وجد فيها العوض، كان يسافر كثيراً إلى لبنان ودمشق وفي كل مرة كان يأتي بمجموعة من الكتب، لكنه لم يكن يعرضها جميعاً في هذه المكتبة، بل وضع بعضاً منها في أسفل (السبّت)، معللاً بذلك بأنها ممنوعة، ولا يجب على أحد أن يعلم بوجودها، جلبها من لبنان وكان يحرص على إخفائها جيداً في حقيبة سفره، حتى يصل بها إلى البيت.



دُهِشت مريم لما سمعته من العم، وكادت أن تتوجه إلى الصندوق لولا أن
سعالًا حادًا خرج من صدره جعلها تهرع إليه، احمرّ وجهه وجحظت عيناه،
ولم يعد بإمكانه التقاط أنفاسه، ارتبكت ولم تعلم ما تفعل، حاولت تسوية
الوسادة تحت رأسه، لكن منظره أخافها، بحثت عن هاتفها الذي كان مرميًا
فوق السرير، وطلبت رقم الإسعاف على عجل.



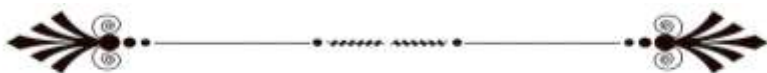
(9)

متسمة في سريرها تحاول الوصول إلى رقم وليد، ولكن عبثاً، ساورها القلق في أن مكروهاً ما قد حلّ به، رقم بدون اسم وصلها مرفق برسالة نصية، ارتعشت يداها وتسارع نبضها، فتحت الرسالة التي جمدت الدم في عروقها، (وليد في قبضتنا، دورك القادم)..

وضعت يدها على فمها وكادت تخرج من أعماقها صرخة تفجر سكون الغرفة، نهران من دموع فاضا من عينيها، كاد قلبها يقف من الصدمة، دارت الغرفة بها والجدران، وتعذر عليها رؤية الرسالة الثانية التي وردت من الرقم نفسه..

(أدلة كثيرة على علاقتك به، أنتما شريكان في الخراب)

أي خراب يتحدثون عنه، وأي أدلة، ولماذا يعتقلون وليد؟ ما الذي قام به؟ زوبعة من أسئلة عصفت بها، خلعت فرحتها بلقائه اليوم من جذورها، وذهلت عقلها عن التفكير والتركيز، نوبة هلع أصابتها جعلت سريرها يهتز تحتها، ماذا لو علم أهلها بعلاقتها به، وما الذي يمكنهم أن يفعلوه بها، إن تم اقتيادها إلى أفرع الأمن بتهمة العلاقة مع أحد المخربين، سيكون هناك فضيحة بلا شك، لماذا اتهموا وليد بالخراب، لم يخرج يوماً في مظاهرة، أو يكتب عنها، تحدثا فقط عما يجري في لقائهما الأخير، فهل سمعها أحد؟



توارت تحت أغطيتها مغمضة عينيها، تتننى أن تغفو ثم تصحو ويكون كل ما حدث مجرد كابوس عابر، باتت كعصفور صغير يرتجف أمام بندقية صياد، كورقة شجرة تداعبها الريح تكاد أن تسقط في الفراغ، صدرها يعلو ويهبط وأثّات متقطعة تخرج من جوفها، سقت وسادتها بدموعها، قفزت من سريرها عندما فُتح باب غرفتها عليها، دخلت إليها مريم بعد طرقها للباب مرات عدة ولم تستجب، راعها حال أختها ذاك، ارتمت في حضنها ونحيبها يكاد يمزق الجدران.

حرب ضروس اشتعلت في قلبها، أشد وطأة من تلك التي اشتعلت في الخارج، أصوات الرصاص يعكر صفو الليل، لم تستطع البوح لأختها عما حدث، ولا عن تلك الرسائل التي وصلتها، تذرعت بسبب فشلها في الامتحان الأخير، ووداعها لصديقاتها، على الرغم من محاولات مريم لمعرفة سبب بكاء نور وحالتها تلك إلا أنها صدقت كلامها لمعرفة بحساسية أختها المفرطة، وبكائها على أتفه الأسباب، كانت بانتظار أي خبر يرد من المستشفى لتطمئن على أبي شادي الذي يرقد على سرير في العناية المشددة، يرافقه والدها الذي أغلق دكانه وحضر على فوره، بعد اتصال مريم به، مرت الساعات ثقيلة بطيئة كسلحفاة كُسرت ساقها، نور تجلس بالقرب من والدتها كجسد لا روح فيه، ومريم تتفقد هاتفها من حينٍ إلى آخر، تتذكر كلمات أبي شادي والكتب المخبأة في الصندوق، هل يغدو الأدب جريمة يحاسب عليه القانون، ويوارى في سرايب خوفاً من الاعتقال، نعم في بلادنا



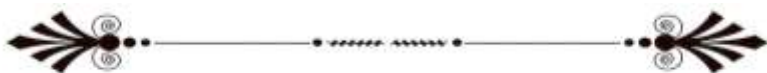
العربية حتى الفكر جريمة، المثقفون أشد خطرًا من أولئك الذين يحملون السلاح، ألا تزال السجون تعج بالمعتقلين السياسيين وأصحاب الرأي والكلمة الحرة؟.

ألم تكن أولى مطالب المتظاهرين الافراج عن معتقلي الرأي القابعين في السجون منذ سنوات طويلة؟

ما فعله هؤلاء سوى أن ارتكبوا جرم الكتابة، جريمة لا يغفرها القانون السوري، إما أن تكتب ما يمجد القائد، أو اكتب عن الحب، أمّا أن تكتب عن حب الوطن فعليك أن تمجد شخصًا بعينه، وحزبًا بذاته، أن يكون مجال إبداعك ضيقًا، ضيقًا كخرم إبرة وأكثر، كيف لمثقف وكاتب وقارئ أن يضع نفسه في ضيق كهذا؟

الكاتب هو لسان الشارع الناطق، فإن نطق الشارع فتلك كارثة تكشف زيف البطولات التي يتغنون بها، فكان لابد من لجم ذاك اللسان وإخراسه، وحينما لم يعد للشارع القدرة على الصمت، انفجر في وجه الظلم صارخًا، فقبول بأشد أنواع القمع والعنف.

تفجّر السد المنيع الذي حاول النظام تشييده بكل ما أوتي من صرامة على مدى عقود طويلة، فاجتاح سيل المظاهرات والاحتجاجات كل المدن السورية، فحاولوا زجّ المتظاهرين المسالين في حرب مسلحة، لتصبح لديهم الحجة في القتل والقصف والبطش والتهجير أمام مرأى من العالم أجمع،



الذي بات يتفرج صامتًا على الضحايا الذين يسقطون في الساحات، وعلى أولئك الذين يقادون إلى السجون دون أن يرف لهم جفن. توقف نبض أبي شادي، ذاك المسن الذي عاصر أحداثًا كثيرة عصفت في البلاد، مات قبل أن تجد مريم الأجوبة على تساؤلاتها الكثيرة، لكنها بدأت تكتشف بعضًا منها من تلك المذكرات والكتب التي وجدتتها في الصندوق الخشبي، وحملتها معها إلى البيت قبل إفراغه من قبل بعض أقربائه الذين لم يحضروا إلا في عزائه، أخذوا كل شيء إلا الكتب لأنها بنظرهم لا تعني شيئًا، في زمن بات الكل يفكر كيف يمضي وقته، ويؤمن قوت يومه، ويبقى آمنًا في بيته.

تلك المذكرات لابنه فادي الذي تبين لها انضمامه إلى الإخوان، يسطر فيها ما كان يقرأه في مجلات غربية أثناء سفره، وكتب محظورة لكتاب في المنفى، وأخرى دينية للسيد قطب، ومنها لسياسيين غربيين قدموا يومًا إلى دمشق وكتبوا عنها وعن الصراع على السلطة فيها.

(الصراع قائم منذ الأزل، لماذا بلادنا دون غيرها من البلدان، لتحول إلى غابة يقتل فيها القوي الضعيف، يبني القائد فيها عرينه فوق الكثير من الجثث، ما بني على دم لا ينتهي إلا بالدم، ستكون هناك شلالات من دم في الأيام المقبلة وربما في قادم الزمن، لن يصمت الشعب طويلًا، البلاد قنبلة موقوتة ستنفجر في أي لحظة.)



كانت هذه إحدى المذكرات التي قرأتها مريم، أصابتها بدوار في رأسها، أغلقت المذكرات وخبأتها جيداً في الرف العلوي لخزانها مع باقي الكتب التي حصلت عليها، تذكرت أخيها جهاد الذي يبقى منزوياً في غرفته مع جهاز الكمبيوتر، في هذا الفضاء الجديد لابد وأنه يقرأ كل ماهو ممنوع من على شبكة الانترنت، وربما يكتب على صفحته على الفيس بوك رأييه بالأحداث الراهنة، لم تكن تعلم بمشاركته في إدارة إحدى الصفحات المعارضة والتي يكتب فيها مراسلين من مدن عدة ما يحدث في الشوارع والأحياء وأخبار التجمعات في الساحات ونقلهم للحدث لحظة بلحظة.

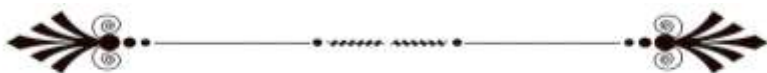
قطعت خلوته بطرقها على باب غرفته، حاول إغلاق الحاسب بسرعة قبل أن تدخل عليه دون انتظار إذنه، كانت شاشة الوجه، نظرات عينيها مخيفة، شفتاها قد انعدم فيهما اللون، راعه شكلها فنهض مسرعاً نحوها، لكنها أزاحت يدها وتوجهت نحو الحاسب.

- ما الذي تفعلينه يا مريم؟

- ما الذي تفعله أنت على هذا الحاسب؟

-ماذا دهاك وما شأنك بذلك؟

- وما شأنك انت بما يحدث في الخارج؟ ما هذا الذي تكتبه هنا يا جهاد؟ صرخت في وجهه وهي تشير له إلى شاشة الكمبيوتر التي ما إن فتحت حتى ظهرت لها صفحة الفيسبوك الخاصة بجهاد.



- أكتب باسم مستعار ألم تلاحظي ذلك؟ ثم إن لم يكن لي أي شأن بما يحدث؟ فشأن من؟ ألسنا أبناء هذا الوطن؟ ألسنا ممن يعاني دأبنا دأب الكثيرين ممن يبذلون دماءهم رخيصة في سبيل نيل حريتهم، لم نقف مكتوفي الأيدي يا مريم، صمتنا يشارك في القتل، يشارك في تعذيب أولئك القابعين في السجون، من سيتحدث عنهم؟ من سيوصل صوتهم، إن صمتُ أنا وصمت غيري من سيتحدث إذن أخبريني؟ ودم فراس من سيطالب به؟ هل نترك قاتلوه يصلون ويجولون ويقتلون غيره ونقابلهم بالصمت؟ هذا أقل ما يمكنني فعله يا مريم، أن أجاهد بالكلمة، دي يغلي لحمل السلاح والمواجهة، لست شاباً لتشعري ما أشعر به.

كان يتحدث جهاد بصوت مرتفع ومريم تنظر إليه بعينين مليئة بالدموع، لأول مرة تلاحظ بأن جهاد كبر كثيراً، لم يعد ذاك الطفل الصغير الذي يشاكسها على قطعة حلوى، ويبيكي لتشتري له والدته كرة صغيرة، حتى هذا الحاسب الذي يستخدمه الآن للتعبير عن رأيه على صفحات التواصل، كان يريده ليلعب عليه لعبة ماريو وسباق السيارات، لم يعد هذا الذي يقف أمامها يلعب في الشارع مع أطفال الحي، بل بات يخرج في مظاهرات تنادي بالحرية.

هل يدرك ما يفعله؟ هل وصل لمرحلة من التضج يعي فيها ما يقول؟ هل يدرك خطورة ما يحدث على هذه الأرض؟
أطرقت مريم رأسها وهي تمسح دموعها قائلةً:



- صدقت لست شاباً، لكن همّ الوطن ليس حكراً على الشباب.

- أنتنّ همّ مجد ذاته، يثقل كاهلنا.

نظرت إليه باستغراب:

- ولماذا؟

- الرجل يبقى رجلاً إن قُتل أو تم اعتقاله، لكن أنتنّ عرضنا كما هذا

الوطن، لا تستطعن القتال ولا حماية أنفسكنّ، وإن تم اعتقال إحداكنّ

لا تعلمي ما الذي يمكنه أن يفعلوه بكنّ، حينها سيلحق بنا العار حتى

الموت، وإن كنا نتمنى خروج أحداً حيّاً من السجن، فلا نتمنى ذلك لكنّ،

تخيلي صعوبة موقفنا؟

- أيّ عار تتحدث عنه؟ للتو كنت تقول بأننا عرضكم كما هذا الوطن،

فهل تقتلون الوطن لئلا يجلب لكم العار؟

- لن تفهمي ما أقوله، لن تفهمي، الأفضل ألا نخوض بمثل هذه الأحاديث.

كانت نور تقف خلف الباب تستمع لحديثهما، واضعةً يدها على فهما لئلا

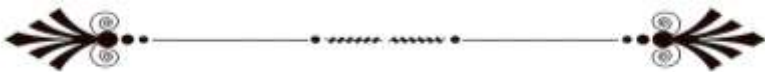
يسمعا نحيبها، هرعت إلى غرفتها وأغلقت الباب وبدأت بالبكاء بصوت

مسموع، مازالت تعيش خوفاً منذ أن وصلت تلك الرسائل من المجهول،

خوفها على نفسها يضاعف خوفها على وليد الذي لم تعد تعلم عنه شيئاً،

تعيش أيامها منذ أسبوع صامتةً منطفئةً، الكل مشغولٌ عنها لا تستطيع

البوح لأحد، على الرغم من أسئلة أمها الكثيرة، إلا أنها كانت مشغولة بعزاء



العم أبي شادي، واستقبال النساء في بيته الذي أغلق أبوابه بعد انتهاء العزاء بيومين وإلى الأبد.

رنين الهاتف يجعلها تنتفض رعباً، تنظر إلى الشاشة بخوف ليتبين له رقم المتصل والاسم القابع في الأعلى.. راما يتصل بك..

- كيف حالك يا نور، من زمان القمر ما بان، أين اختفيت؟
- لست بخير يا راما.

- ما بك يا عزيزتي صوتك لا يعجبني، هل كنت تبكين؟
- البكاء هو متنفسي الوحيد الذي يلزمني منذ آخر يوم في الجامعة.
- ها.. إذن تبكين شوقاً لوليد.

- اسكتي لا أستطيع الحديث على الهاتف، ربما أخبرك إن التقينا، ألم تعديني بزيارة؟

- نعم، نعم، وأنا على وعدي ولكن أعتقد بأننا لن نأخذ راحتنا في الحديث في بيتكم، لن تتركنا والدتك أو أختك مريم لنبقى على انفراد، لذلك من الأفضل أن تأتِ أنتِ لزيارتي ونحدث براحتنا.

صمتت نور قليلاً وقد اقتنعت لكلام راما، وافقتها وأجلّت ترتيب الزيارة في وقتٍ لاحق ثم أنهت الاتصال.

عادت مريم إلى غرفتها بعد نقاش دار بينها وبين جهاد، أخبرته بأنها تخشى عليه من الاعتقال بسبب منشوراته ومشاركته في المظاهرات، وحاولت اقناعه بالعدول عن مثل هذه الأمور، وعدها بأن يتوخى الحذر ما استطاع،

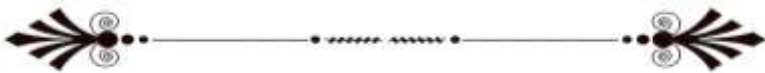


وبأنه واجب عليه كما غيره في الوقوف بجانب كل من يناادي بالحرية والعدالة.

(هل يمتلك شعبنا الوعي الكافي ليقود مثل هذه الثورة ضد نظام ديكتاتوري، وهل بإمكانه أن يصل إلى ما يصبو إليه وحيداً دون دعم من الجيش الذي يقف صفّاً مع النظام، وها هو الآن ينزل إلى الشوارع لإسكات أصواتهم وقد استعانوا بالدبابات والمدفعية الثقيلة، وكأنهم يواجهون شعباً مسلحاً بأعنى الأسلحة، إن قامت الحرب لن تكن متكافئة أبداً، شعب أعزل كيف له أن يواجه تلك النار التي تخرج من فوهات بنادقهم، لم يردعهم القتل ولا الاعتقال بل على العكس زاد من إصرارهم ومطالبهم ولن يتراجعوا حتى يسقط النظام، فهل نظام كهذا يسقط بتمرد الشعب عليه؟

الثورات التي تنجح بحاجة إلى سياسيين وعسكريين رفيعي الرتبة ليقفوا مع الشعب، بحاجة إلى تخطيط ذكي ودقيق، لكن مع دولة كهذه تم بناء حكمها عسكرياً وعين في مناصبها الأقربون والموالون، وتم اختيارهم بدقة كبيرة وتصفية كل من يشك بأمره وولائه، لن يكن بتلك السهولة، سيكون الثمن غالياً جداً، ستنزف الكثير من الدماء، ستدمر الكثير من المناطق فوق رؤوس ساكنيها، دون أن يحرك العالم ساكناً.

شعب بسيط يقوم بثورة كبيرة ضد الظلم، شعب لطالما تم إبعاده وتحييده عن الساحة السياسية، أن يكون منفذاً للأوامر لا أكثر، أن يكون



مشغولاً طوال حياته بتأمين أبسط متطلبات الحياة، لئلا يفكر خارج الصندوق، وها هو الآن يحطم باب الصندوق ويتمرد على الرغم من تلك القيود التي وضعت متينةً عليه، يطالب بتحديد مصيره لا أن يحدده له أحد، أن يمتلك الحرية في اختيار حزبه وقائده، لا أن يساق كالبهيمة إلى صناديق الاقتراع ليضع بصمته على مرشح واحد لا منافس له، لم يعد هناك انتخابات بل تجديد بيعة لوارثٍ للسلطة، انتشار الرشوة والفساد والمحسوبية في الدوائر الحكومية، ومجلس الشعب الذي ينبغي أن يتحدث عن الشعب لا يمثل سوى نفسه، والنظام الأمني الذي بات يتدخل في كل شؤونك، فالمواطن بحاجة إلى موافقة أمنية حتى ولو أراد بناء مرحاض، أليست تلك أسباباً لتجعل من شعب بسيط يتحول لمارد ويطالب بحقوقه، عدا عن الكثير من الأسباب التي لا يعملها سوى المواطن السوري.

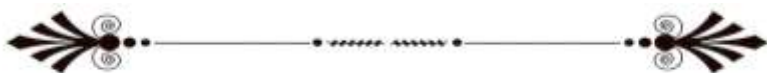
لا نستطيع أن نلوم من خرج في الشوارع، ولا يمكننا لوم من سيحمل السلاح مستقبلاً، وإن بدأت بعض المناطق في الريف الشمالي بمواجهة الأمن بالسلاح، وحماية المظاهرات برجال مسلحين يحيطون بهم، لأن نيران الأمن لا ترحم يفرقون الجموع بالرصاص الحي، حتى باتت الطائرات تخرج لتحوم فوق الساحات والجوامع في أيام الجمعة لردع المتظاهرين عن الخروج وإرسال التهديدات إليهم، لكنهم لا يأبهون للموت، ”الموت ولا المذلة“ بات هذا شعارهم، فأَيُّ قوةٍ تلك وإرادة التي يتحلى بها هذا الشعب، وأَيُّ ظلم كان يعيشه ليجعله يفضل الموت على البقاء في ظل حياةٍ كهذه، من



رضي بالذل والخنوع، ومن كان فاسدًا مستفيدًا من منصبه في أي دائرة حكومية التزم الصمت في بيته، ومنهم من كانت سلاسل الخوف تقيد حنجرته فلم ينطق، والبعض كان منتظرًا ليفوز الثائرون ويحدث التغيير في البلاد ليشاركهم الاحتفال، لا يوجد تكافؤ في هذه الثورة ولا يوجد تنظيم، إما أن يخرج الجميع أو لا يخرج أحد، المدن التي تخرج تباغًا سيتفرد بها النظام ويسكتها مدينة تلو أخرى، لا يخف على أيّ سوري ما حدث في حماة في ثمانينات القرن الماضي، كيف تم إخماد الثورة فيها وقتل الكثير من أبنائها، وتدمير أحياء بأكملها فوق أصحابها بعد حصارٍ من قبل أعنى فرق الجيش قوةً وعتادًا، كيف اقتحمت البيوت واغتصبت النساء وبقرت بطون الحوامل منهم، هل ستصبح مدن سوريا حماة ثانية ويرتكب فيها المجازر؟ ليس ذلك على النظام ببعيد، طالما أن النظام الفاعل واحد.)

أغلقت مريم دفتر مذكراتها وكان لديها الرغبة في كتابة المزيد، وضعت الدفتر برفقة مذكرات فادي التي كانت تقرأ فيها كل يوم، لتتعرف على أحداث كثيرة لم تكن تسمع بها، لأن الحديث بها كان محرّمًا، وها هي الآن تطلق العنان لقلمها لأن يمارس بعضًا من الحرية التي يطالب بها الكثيرون.

حملت هاتفها المحمول وطلبت رقم أسامة، لتمارس طقوسها الليلية في الحديث معه قبل أن تخلد إلى النوم.



في المقابل افتقدت نور للحديث مع وليد، لصوته الذي كان يمنحها السكينة، للأمان الذي كانت تشعر به في وجوده، أين هو الآن وما الذي حلّ به، ومن هم هؤلاء الذين اختطفوه وأرسلوا لها تلك الرسائل، وما الذي يجب أن تفعله لتنقذه أو ربما لتنقذ نفسها من براثنهم، أسئلة كثيرة كانت تجول في رأسها وسيناريوهات مرعبة تتراءى لها ثم تحاول عبثاً طردها، فتحت دفتر الرسم خاصتها وحاولت أن تشغل تفكيرها في العبت بالألوان، رسمت غرباناً سوداء وغيوم كثيفة في الأفق، قمرٌ شحيح الإضاءة، وأشجارٌ باسقة بأغصان مخيفة، لإحداها رأس شيطان تمتد ذراعه لتحيط بعنق فتاة تتدلى من أعلى الشجرة، قفص كبير في داخله شاب يمد يده من بين القضبان نحو الفتاة، رسمت يده طويلةً جدًا تكاد تلامس يد الفتاة المعلقة، نهر من دم قاتم يجري بالقرب منهما، يحوي الكثير من الجثث بدل الأسماك.

ينغمس الرسام في لوحاته كما يغوص النائم في الحلم، يغدو منعزلاً عن الواقع وعن كل ما يحيط به، يرسم أفكاره وما يتراءى له منها على الورق، وما إن ينتهي حتى يجد نفسه أمام لوحة تجسد ما لا يمكنه البوح به، الرسم فنٌّ صامت لكنه يحوي الكثير من الكلام.

تاقت في غياهب الحلم بعدما راودها النعاس عن نفسه، دمعة يتيمة سالت على خدها ودفنت على شفثيها، جسدها الهزيل مسجى على السرير، دفتر الرسم بالقرب منها وأقلام التلوين مبعثرة تحت قدميها، الغربان السوداء خرجت من اللوحة وباتت تحوم وتنق فوق رأسها، الفتاة المعلقة على



الشجرة تنن، يد الشاب السجين تلوح خارج اللوحة تطلب النجاة، طالت أكثر حتى وصلت إليها وبدأت تهزها من كتفها، نهضت فزعةً فوجدت نفسها في غير غرفتها، شعرت بدوار في رأسها وزاغ بصرها، أغمضت عينيها لبرهة وحاولت فتحهما، لربما كانت تحت تأثير هذا الحلم الغريب، تلفتت حولها محاولةً استيعاب ما تراه، أو أن تتذكر قدومها إلى هذا المكان، شعرت وكأنما فقدت ذاكرتها، ما تتذكره أنها كانت ترسم ما الذي جاء بها إلى هنا، نظرت إلى ثيابها فوجدتها ثياب الخروج، المانطو الذي ترتديه عادةً فوقها وجدته مرمياً بالقرب منها وحجابها منزع عن رأسها، حاولت الصراخ لولا أن يداً خشنة أغلقت فمها همس في أذنها صوتٌ تعرفه جيداً:

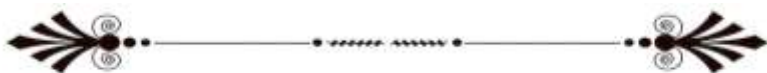
- صه، التزمي الهدوء يا عزيزتي، لكن حتى ولو صرختي لن يسمعك أحد.
التفتت إليه وكادت أن تفقد عقلها من الصدمة.

-مجد!!

نهضت مسرعةً تبحث عن حجابها، وجدته مرمياً على الأرض بالقرب منها، التقطته على عجل ووضعتة على رأسها.

-لا تقترب مني يا مجد، ما الذي جاء بي إلى هنا؟
قهقه ضاحكاً وهو يشعل سيجارة ويضع ساقاً فوق ساق، نفث الكثير من الدخان وهو يقول:

- لا داعي لأن تخفي شعرك عني يا جميلة، فلقد رأيت كل شبر فيك.



هوت على الكنبه التي كانت خلفها، لأن قدماها لم تعد تحملانها، وقد دارت الغرفة بها، دموعها سبقتها في الرد، وأعلنت عن إنكارها لما يقوله.

- لا تهذي يا حقير، أخبرني من جاء بي إلى هنا، وكيف حدث ذلك، هل أنت من اختطف وليد أيضاً أجبني..

- وليد، وليد، ألا تكفين عن الهذيان بهذا الأبله، سأفي بوعدِي لك، سيخرج اليوم لكنه لن يغدو وليد الذي تعرفينه..

تضغط على رأسها تحاول أن تتذكر شيئاً، تشعر وكأنها تحت تأثير كابوس لم تصحُ منه بعد.

كان ينظر إليها نظرة المنتصر، يعب من سيجارته بتلذذ، وينفث الدخان عاليًا.

- ما زلتِ تحت تأثير المنوم، ستذكرين كل شيء، خشيتُ عليكِ صراحةً ولم أزد لكِ في الجرعة التي شربتها في هذا العصير، عنادك هو من أوصل بكِ إلى هنا.

بدأت بالنحيب، وهي تتذكر كل شيء، كان ذلك في صباح اليوم التالي بعد ليلة مضتها وهي ترسم لوحتها الأخيرة، استيقظت على اتصال راما بها وهي تخبرها بالقدوم حالاً إلى منزلها وبأنها علمت باختطاف وليد من أحدهم، ومن ذات المصدر الذي يعلم مكانه وعليها الحضور في الحال لإنقاذه، استطاعت بمكرها إقناع أهل نور بعدما أكدت لهم بأنها ستأتي بنفسها و تصحبها إلى منزلهم الواقع في حي كرم الشامي القريب من الجامعة، لكن



جهاد أصرّ على أن يوصلهما، وحينما غادر أخبرتها بأنها ستأخذها إلى منزل
مجد الواقع في ذات الحي، لأنه هو من يملك المعلومات عنه، وباستطاعته
الوصول إليه والمساعدة في إخلاء سبيله، حاولت الرفض ولكن رغبتها في
مساعدة وليد جعلتها تتصرف بعاطفتها دون أن تحسب عواقب ما تفعله.
- لماذا غدرت بي يا راما، ما الذي فعلته لكِ حتى تنتقمين مني هذا الانتقام.
كانت تبكي وتشهق وقد بللت بدموعها طرفي حجابها.

-ألن تكفي عن البكاء؟

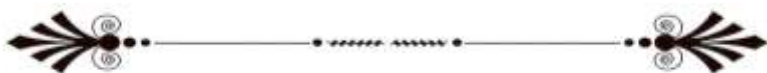
نهض مجد من مكانه واقترب منها، نهضت فزعةً مبتعدةً عنه، تتلفت حولها
للبحث عن أي شيء تجعل منه سلاحًا تضربه فيه لئلا يقترب منها.
- لا تخافي، سأجلس هنا.

جلس على مقعد قريب من النافذة، أخرج سيجارة أخرى من العلبة التي
كانت في جيبه، وبدأ ينفث بدخانها وهو ينظر إليها:

-راما خدمتني خدمة العمر، مسكينة لقد وعدتها بالزواج إن نفذت ما
أمرها به. أخرج هاتفه من جيبه وفتح على الاستديو فيه وبدأ يقلب في
الصور.

-هذه صورك أنتِ والغبي وليد، انظري.

كانت صورتها وهما جالسين معًا ويدها في يده.



استخدمت هذه الصور لأعرف أصدقائي في الدفاع الوطني عليه ليقوموا باختطافه حينما يخرج من الجامعة، أخبرتهم أن يحسنوا ضيافته بضعة أيام، قليل من الضرب لن يؤذيه يا جميلة، ثمة شيء كفيف بتعذيبه طوال حياته. جلست على الأرض غير مصدقة ما تسمعه، حاولت أن تتمالك بعضاً من القوة، فسألته:

- لماذا قمت بتنويمي إذن؟

نظر إليها مبتسماً، وهو ينفث بدخانه من فمه.

- لأجل أن آخذ منك ما أريده.

خبأت رأسها بين يديها، وقربت فخذيها من جسدها، تكورت على نفسها وقد تجمدت الدموع في عينيها، وكأنما بذلتها كلها حتى نضبت.

- لا علم لراما بما حدث، ولا حتى بقصة المنوم، تركتك هنا وخرجت بعدما طلبت منها ذلك، تظن بأننا سنتحدث ونتساوم لأجل الإفراج عن وليد، ستأتي بعد قليل وتأخذك، من الأفضل ألا تطلع عليها على شيء، أظن بأنك لن تستطيعي الحديث لأحد عما حدث، ولا لوليد نفسه، لكنه سيعلم بأنك خنتيه معي لا أكثر، ألبستك ثيابك بعدما تذوقت كل خلية في جسدك، كم أنت شهية يا بنت.

أغلقت أذناها لئلا تسمع صوته النشز، كانت كلماته كمطارق تدق في رأسها، قلبها ينبض بقوة يكاد أن ينفجر ويتمزق، أنفاسها باتت ثقيلة لا

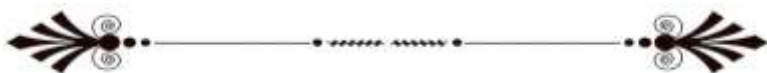


تستطيع سحبها، ليتها تصحو من هذا الكابوس وتجد نفسها في سريرها ملوثة بألوانها لا بهذا القدر الذي سلبها أغلى ما تملك.

كيف لإنسان أن يحمل في قلبه كل هذا الحقد، كيف يتجرد من إنسانيته وتسول له نفسه أن يقترب جرمًا بحق أحدهم دون أن يرف له جفن، ينبغي أن يكون الحب من أسمى وأطهر المشاعر، لا أن يقود صاحبه إلى الأذى، لكنه حينما يحل في قلوب سوداء، يصبح الحب أشد خطرًا من الكره والضغينة، وأبعد ما يكون عن تلك المشاعر السامية التي يعرفها بنو البشر، لأنه حينما لا يتجرد عن حب النفس والأنانية، يغدو حبًا للتسلط والامتلاك، دون الالتفات لمشاعر الآخر ورغبته وراحته.

رنات هاتفها جعلتها ترفع رأسها، جالت بنظراتها الغرفة للبحث عنه، فشاهدته على الطاولة، نهضت متناقلة الخطى باتجاهه، التقطته لترى مكالمات فائتة من أختها مريم وعشرات الرسائل تحثها على العودة إلى المنزل قبل أذان العصر، وبأن جهاد بانتظارها ليعيدها إلى البيت، أرسلت برسالة لأختها بأنها نسيت هاتفها صامتًا، وبأنها انشغلت في الحديث مع صديقاتها اللوات اجتمعن في بيت راما.

سحبت أنفاسًا عميقة ونفثتها بقوة، سألته عن مكان دورة المياه فأشار لها بيده، توجهت نحوها وهي تجر قدميها وكأن حبلاً قيدتها، وقفت أمام المرأة تتأمل هيئتها، شاهدت بعض التصبغات على رقبتها وصدرها، ولونًا بنفسجيًا بالقرب من شفتيها، رأت قطرات من الدماء على لباسها الداخلي،



شعرت وكأن خنجرًا قد غرز في قلبها، وآخر في ظهرها، و بأن حياتها قد توقفت، بات الموت هو رغبتها الوحيدة، لكنها لا تريد أن تنكس رأس أهلها إن عرفوا بما جرى لها، ولن يسامحوها أو يصدقوا أن ما حدث كان رغبةً عنها ودون علمها، سيحكمون عليها بالموت وسيوارون الفضيحة تحت التراب، لا بد أن تتظاهر بالقوة، وبأن شيئًا لم يكن، المهم الآن أن يكون وليد حرًا، ستعود إلى البيت ولا تريد لأحد أن يلحظ شيئًا، تلك الندوب ستخفيها بألوانها، غسلت وجهها ثم جففته، ارتدت حجابها ورداءها الطويل، تأملت هيئتها في المرأة بعدما انتهت، تحدثت إلى انعكاس صورتها في المرأة:

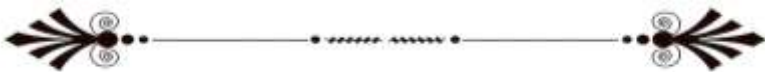
- لا ذنب لكِ بما حدث، كوني قوية لأجل نفسك ولأجل أهلك، يريد هذا الوغد تدميرك لكنه سيدفع الثمن غاليًا.

خرجت من دورة المياه ووجدت راما بانتظارها، ابتسمت لها متصنعةً، نظرت إليها راما باستغراب، وكذلك مجد الذي شاهد ابتسامتها ونظرتها الواثقة، طلبت من راما أن تسبقها إلى الباب لأنها تود الحديث إلى مجد، وقفت نور أمام مجد وكأنها فتاة أخرى غير تلك التي كانت عليها قبل قليل، نظرت إليه بتحدٍ ثم بصقت في وجهه، وخرجت.



(10)

تدور مريم في أرجاء غرفتها، تشعر وكأنه نبت لها جناحان من فرح، بعدما تلقت اتصالاً من أسامة يُنبئها بعودته، تقف أمام مرآتها التي هجرتها منذ سفره، لاحظت شحوباً واصفراراً في وجهها، وهالات سوداء تحت عينيها، ابتسمت لنفسها، وبدأت تضع بعض الكريمات المرطبة، لا تريد له أن يراها ذابلاً، وهي التي وعدته أن تهتم بنفسها، الفرح كفى لأن يعيد إليها بريق عينيها، وتورد وجنتيها، شغلها في غيابه تلك الكتب والمذكرات، وحزنها على وفاة أبي شادي الذي غادر الحياة بعدما سئم وحدته، وأثقلت كاهله ذكريات عائلته، ليتها تستطيع الوصول لابنته سلمى، لكن ما جدوى العثور عليها بعد وفاته، لكنها أرادت أن تحدثها عن أبيها، وكيف مضى سنواتٍ عدة وحيداً لا يؤنسه سوى دكانه والجلوس فيه، لولاه لما رأى الناس وحادثهم، ولما خرج من بيته وغرفته، افتقدت لحبات السكاكر التي كان يمنحها إياها كل صباح، لعبق رائحة البن المطحون وحب الهال، لحبال الخضار والفواكه المجففة المعلقة بجانب الباب، لرائحة التوابل والأعشاب الطبية العطرية، لدكانه مزيجٌ من روائح مختلفة وبضائع عدة، فكل ما تحتاجه تجده فيه، حتى يكاد أن يكون صيدلية شعبية عدا عن كونه مخزناً للمواد الغذائية والمنظفات، ومأكولات الأطفال المحببة والألعاب.



أغلق أحد أبواب الماضي مصراعيه، أغلق على أحد ذكريات الطفولة، والجمال والبساطة، بات الحي موحشاً بدونه، تتساءل: كيف لأمرئ أن يغادر بيت طفولته وذكرياته، يدير ظهره لكل شيء ويمضي، دون أن يلتفت. هل ما تعرضت له سلمى كان كفيلاً لجعلها تهجر مكرهه بيت طفولتها وأهلها، دون أن تسأل عنهم أو حتى تعرف أخبارهم؟ هل الظلم الذي نتعرض له في أحب الأماكن يجعلنا نغادره دون رجعة؟ وهل المكان الجديد سيكون أفضل حالاً من كل تلك الأماكن؟ ربما يكون ذلك، تماماً كحال الذين يهجرون أوطانهم مكرهين، فلا أحد يغادر عبثاً.

نور تلازم غرفتها أغلب الوقت، باتت منطفئة، وردة ذابلة أعيائها ما حلّ بها، لوحاتها يغلب عليها السواد، صامتة لا تنطق إلا للضرورة، عدا عن تلك الكوابيس التي تراودها كل ليلة، فتنهض فزعة وتبيت ليلتها مستيقظة حتى الصباح، أغلقت هاتفها حتى لا تردّها أي رسالة حتى من وليد نفسه، رغم شوقها له ورغبتها في معرفة أخباره، محاولات أهلها لمعرفة ما بها كلها باءت بالفشل، رغم أحاديث مريم المطولة معها إلا أنها لم تعلمها بشيء، حتى أنها اضطرت للاستعانة بأسامة للحديث معها لكن دون جدوى.

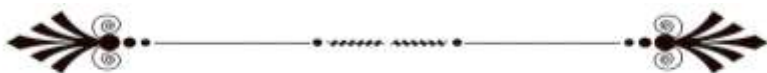
شخص حالتها بأنها مصابة باكتئاب حاد، أو ربما تعرضت لصدمة أدخلتها في حالة الكآبة تلك، لكنه كان بحاجة لمعرفة الأسباب وراء ذلك، ليصف لها دواءً يساعدها على النوم على الأقل، لكنها كانت ترفض الحديث وترفض تناول أي دواء، وغالباً ما كانت تقابل تساؤلاتهم بابتسامة صفراء، وتخبرهم



بأنها فترة مستمر وبأن كل إنسان يحتاج بعض الوقت للخلوة بنفسه، وبأنها ستعاود نشاطها وحيويتها كما كانت في السابق.

في ذلك اليوم المشؤوم، نال وليد حريته، لكن لم ينل حريةً بالمجان فقد وضعت على عنقه أغلاً أشد أَلَمًا من تلك التي كانت تقيدته في الأيام التي أمضاها في أحد البيوت المهجورة، لم يستطع التعرف على خاطفيه لأنهم كانوا يخفون وجوههم بأقنعة سوداء، ولم يعلم ما هي التهمة الموجهة إليه، كانوا يكتفون بالضرب والركل ويخرجون، يطعمونه بقايا طعام ويسكبون الماء فوق رأسه، فإذا ما كان عطشًا يلحق الماء المنساب على وجهه بلسانه، فيمضي خاطفوه ضحكًا وسخريَّةً على مظهره، وحينما أُنْتَهَم الأوامر بإخلاء سبيله، أعادوا إليه هاتفه، الذي ما إن فتحه حال خروجه ليتصل بنور وأهله، حتى صعد بما شاهده من صور أرسلت إليه، كانت محبوبته نور في أحضان رجلٍ آخر، تمنى لو أنه مات قبل أن يرى ما رآه، وكأنما صبو فوق رأسه كل وقود العالم فأحرقته.

شاردٌ في غرفته، تحيط به أوراقٌ ممزقة لأشعارٍ كان قد كتبها لنور، ويرغب في أن يهديها إياها في عيد ميلادها القريب، يحاول أن يتخلص من أي ذكرى قد جمعتهما، حتى الصور التي التقطها في لقائهما الأخير، قام بحذفها من هاتفه، أما الصور التي غدت لعنة على حبهما، بقي محتفظًا بها، ليجلد بها قلبه كلما راوده الشوق إليها، لا يوجد أصعب من الخيانة فهي تسقطك من



ذروة الحب حتى قاعه، سهامٌ مسمومة تنغرس في ظهرك، فينزف قلبك حتى الموت حيًّا..

تدخل إليه أخته ليل تبشره بنجاحها في الصف التاسع بتفوق، لكنه يقابل بشارتها ببرود، يتأمل تلك الفتاة الصغيرة التي تقفز فرحًا أمامه، جديلتاها تتراقصان، وعيناها تلمعان فرحًا، تحاول سحبه بيده إلى الصالة لشاركتهم جلستهم، لكنه كان كتمثال من شمع ينصهر كمدًا.

تجلس أمامه على السرير بعدما فشلت في كسر صمته، تتأمل هيئته التي آل إليها بعد عودته، طالت ذقنه، وشعر رأسه مبعثر وقد ظهر فيه بعض الشيب، عيناه حمراوان وقد شحب لونه، دائم التفكير والشرود.

- الحمد لله أنك بيننا يا أخي، عشرة أيام على غيابك، مرت وكأنها عشرة أعوام، ليتك تعلم الحزن الذي حلّ في هذا البيت، وبكاء أُمي المتواصل، وصلاة أبي في جوف الليل ودعائه، فرحتنا في عودتك تفوق فرحي في نجاحي الآن، لكن ما سبب هذه العزلة التي تعيشها منذ خروجك، حبًّا بالله ألا تبقى هكذا، نحن بحاجة يا أخي.

كادت شفتاه أن تنطقان، لكنه عاود صمته، اكتفى بابتسامة صغيرة ألقاها في وجهها، كانت بادرة أمل ليستجيب لحديثها.

- ألا تريد من أختك أن تصبح طبيبة، ها أنا الآن على مشارف مرحلة دراسية جديدة، ستكون حاسمة، سأبقى على تفوقي هذا أعدك في ذلك، كلها

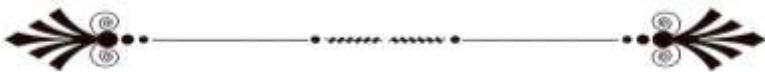


ثلاث سنوات والتحق بكلية الطب، لكن هذا لا يمنع في أن أمارس المهنة منذ اللحظة، وأقوم بفحص مريض القابح أمامي.
اقتربت منه أكثر والتقطت قلماً كان فوق الطاولة بالقرب من السرير، وأشارت به نحو صدره، ووضعت يداً أخرى على أذنها، نيابةً عن سماعة الطبيب لتستمع إلى دقات قلبه.

- قلبك يخفق بغرابة يا عزيزي، دعنا نفحص التنفس، قل آآآ.
ابتسم إليها ثانيةً وهو يزيج بالقلم عن صدره، وبلا شعور خرج من صدره تأوهاً، جفلت له ليلي حينما سمعته.
- يبدو أن مهنة الطب صعبة، هذه الآه لا تفسر لها، لا تخرج إلا من صدرٍ مذبوح.

رن هاتفه الذي التقطه على عجل، كان رقماً غريباً بدون اسم يتصل به، تردد بدايةً في الرد، خرجت ليلي لظنها أنه لا يريد الرد في وجودها، أغلقت الباب خلفها، توقف الهاتف عن الرنين ثم عاود الضجيج.
- ألو...

فتح الاتصال ووضع الهاتف على أذنه دون أن يجيب، لكن المتصل كان ملحاً في الحصول على جواب.
- ألو، هل من مجيب؟



كان صوت فتاةٍ لم يتعرف عليه وليد، وأثار استغرابه وحنقه، ظنّ بأنها إحدى صديقات نور تحاول الوصول إليه بالنيابة عنها، وبأن نور من أرسلتها، كاد أن يغلق الخط لولا أن الفتاة تحدثت.

-ألو هل تسمعي، أنت وليد أليس كذلك، هناك شيء مهم أريد إخبارك به، ومن الضروري جدًّا أن تعلمه، حاولت الوصول لنور لكن هاتفها مغلقًا، استطعت الوصول لرقمك من أحد أصدقائك، المهم الآن أن تسمعي ولا تغلق الخط أرجوك.

أجابها فضوله في السماع لإلحاحها، تحدثت الفتاة بنبرة يتخللها البكاء، وهو قد ارتسمت على وجهه علامات الدهشة والغضب، كسر القلم الذي كان بيده وحاول تمالك نفسه لئلا يصرخ، اصطكت أسنانه ببعضها حتى كادت أن تتحطم، انتفخت أوداجه غضبًا واحمر وجهه، أغلق الاتصال بعدما أنهت الفتاة حديثها ثم رمى بالهاتف أمامه وهو يتلفظ بالشتائم ويتوعد بالانتقام.



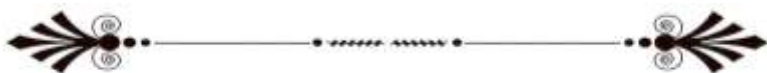
(11)

لا بد لليل أن ينجلي وتشرق الشمس بنورها على الخلائق، ولا بد للفرح أن يأتي كنسمات علية في قيظ الصيف، تمسح على قلب مكلوم أثقله الكمد، وأن تكون إرادة الإنسان أقوى من أي ظرف، هل يستطيع الإنسان أن يتجاوز ما حلّ به بسهولة؟ بالطبع لا، فالألم حينما يصل إلى ذروته يحال المرء إلى كتلة من جماد، لا يؤله بعدها شيء، وبعدها يخسر أغلى ما يملك، لا يعد هناك ما يخشى على خسارته، ولا تعد حياته بتلك الأهمية مهما استمرت، ومهما يحدث فيها فالحزن والفرح سواء.

ليس كل من ضحك سعيدًا، على العكس لربما دائم الضحك والمزاح أكثر الناس حزنًا، فكما قال المتنبي (لا تحسبوا رقصي بينكم طربًا، فالطائر يرقص مذبوحًا من الألم).

من يخفي أحزانه خلف ابتساماته هو أشد الناس حزنًا، يمارس طقوسه بعيدًا عن أعين الناس، يحل الوجوم عليه في وحدته، وما إن يخرج حتى يقابل العالم بفرح يفترقه، وحينما يستهلك كل منافذ الصبر، يعد العدة له بكل ما أوتي من صمت.

يوم كباقي الأيام بصباحاته المعتادة، أم جهاد على الشرفة تسقي الزهور التي تفتحت عن آخرها، لفت انتباهها شابًا يضعون الحجارة في آخر الطريق، وكأنما ينصبون حاجزًا، أحدهم يحمل سلاحًا على كتفه، يوقفون المارة ويطلبون منهم الهويات ثم يسمحون لهم في إكمال طريقهم، هرعت إلى



الداخل مصفرة الوجه، قابلهما جهاد وهي في طريقها إلى الصلاة، يمسح بقايا الماء عن وجهه.

- صباح الخير يا ست الكل.

قبل يدها التي كانت مرتجفة، وهي تنظر إليه، ثم ما لبثت أن سحبتة من يده نحو الشرفة في المطبخ، وأشارت له نحو الشبان. ابتسم لما رآه وكأنه على علم بما يحدث، تثائب حتى دمعت عيناه وربت على كتفها قائلاً:

- لا تقلقي، هؤلاء من أبناء الحي لحراسته ومنع أي غريب من الدخول.

طبع قبلة على جبينها ودخل يتساءل إن كان الفطور قد جهز.

- ألا يأتي الأمن ويعتقلهم، وتصيح حجة لديهم في مداهمة الحي، ثم من أين أتوا بهذا السلاح؟

عبرت أم جهاد عن قلقها وهي تسكب الشاي في الكاسات.

- لقد انشق العديد من المجندين الشرفاء بأسلحتهم، بعدما رفضوا إطلاق النار على المتظاهرين، ألم تشاهدي في الأخبار عن إعلان الملازم الأول في الرستن عن انشقاكه ودعمه للثورة، سيحث الكثيرين على الانشقاق، ليس كل من نراه في الجيش ضدنا، لكنهم ينتظرون الفرصة لإعلان انشقاقهم، لن يبق الحال على ما هو، لن يسكت أحد على هذه الدماء التي تهدر.

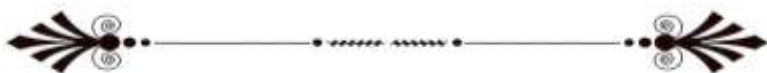
- أراك على علم بكل ما يجري، ألم أخبرك مسبقاً أن لا تتدخل بهذا الأمر وتبقى على الحياد، أرجوك ولدي لا أريد أن أخسرك.



- من العار أن نقف على الحياء يا أمي، ولا أريد منك سوى الدعاء، هذا القلق ارميه من النافذة، أنا جائع الآن، أين الجميع؟ هل أنتظرهم أم أنقض على الطعام كذئب مفترس.

- انتظرنا أيها الذئب، فطور اليوم مسبحة حمص وفلافل ولن أسمح لك بالقضاء عليه وحدك.

أجابته نور وهي تسحب كرسيًا وتجلس بجانبه، انضمت إليها مريم ووالدها، وبدأ الجميع بتناول فطورهم، كانت نور تنظر إليهم فردًا فردًا وكأنها لم ترهم منذ مدة، أسعدهم نشاطها اليوم ومشاركتهم في الفطور، بعدما كانت تتأخر في النهوض صباحًا من سريرها، مضت أيامها الفاتئة وهي غارقة في جلد ذاتها، وندمها على الذهاب إلى بيت مجد، وتفكيرها في مصيرها إن علم أهلها بما حلّ لها، لن تستطع إخبار أحد أو حتى التفكير بذلك، لأنها ستكون المذنبة وحدها، لطالما كانت تسمع قصصًا من والدتها بأن البنت تُعاب والشاب لا يحدث له شيء، وعليها أن تحافظ على نفسها وحشمتها ما استطاعت، وإن البنت إن عابت فإن زوجها سيعيدها إلى بيت أهلها على الحال، وسيلحق العار بهم حتى يغسلوه بقتلها، حتى أنها كانت تحذرهم من ركوب الدراجات أو حتى القفز عاليًا خشية السقوط، وتمنعهم من اللعب مع الأولاد، وما إن تصاب إحداهن بحكة في المنطقة الحساسة حتى تسارع أمها لفحصها، وتحذرها تحذيرًا شديدًا من أن تمد يدها وتخيفها بشتى أنواع



الوسائل إن فعلت ذلك، كل هذا دون أن تفهم الفتاة حقيقة الأمر، وما الذي تحويه تلك المنطقة دون غيرها من الصبيان.

تتساءل في نفسها لماذا شرف العائلة ينحصر بهذا الأمر، ولماذا لا يكون للرجال غشاء بكاراة أيضًا يكون دليلاً على عذريتهم حتى لا يرتكبوا مثل تلك الجرائم بحق الفتيات البريئات، الله عادل في حكمه والعقوبة للجميع على حد سواء، لماذا البشر يلقون بسخطهم على الأنثى فقط حتى ولو كانت بريئة وترك الفاعل يعيش كما يحلو له؟

لطالما سمعت قصصاً من أختها مريم أيضاً، تحدثها عن القضايا التي يدرسونها في مكتبهم، ويقومون بالدفاع عن الجاني وترك المجني عليها تلقى مصيرها من أهلها في القتل ومن ثم تبرئة قاتلها بحجة غسل العار. ضحكات العائلة تتعالى وهم على طاولة الفطور، تنظر إلى وجوههم المشرقة، تشعر بألم في داخلها بأن تكون سبباً في تعاستهم يوماً ما، لن تغفر لذاتها ما حصل، ليتها خلقت ذكراً كجهاد، لافتخر بها أهلها لا أن تكون أنثى تنكس رؤوسهم مجرمة أرتكبها شاب مجرم بحقها، فكانت هي الضحية والجلاد في آن.

ألهذا السبب كان العرب قديماً يئدون البنات، وكانوا يعتبرونها عاراً منذ ولادتها؟ قد قرأت يوماً في كتاب تاريخي، بأن القبائل قديماً كانوا يئدون البنات خشية من جنود الفرس الذين يغزونهم من وقت لآخر لجمع النساء



كعبيد وخدم وللمتعة الجنسية، والأنثى بطبعها ضعيفة لا يمكنها الدفاع عن نفسها، لذلك تدفن لتخفيف العبء على القبيلة.

حتى جاء الإسلام وحرم هذا الفعل عليهم وأمرهم بتكريم البنات، لكن هذا الفكر الجاهلي ما زال مسيطرًا على عقولهم، ويظهرونه بطريقة أو بأخرى.

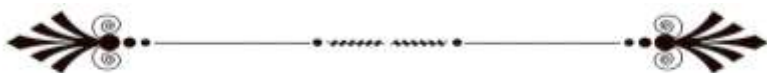
أنهت نور فطورها قبل الجميع ونهضت، لكن مريم أمسكتها من يدها قبل أن تذهب.

- لا تهربي، ترتيب الطاولة وجلي الصحون عليك، يكفيك دلاً هيا.
ما إن سمع جهاد ذلك حتى نهض وأحضر صحنًا نظيفة من الخزانة في المطبخ، وقام بوضع حبات زيتون في كل صحن ورش الزيت على البعض الآخر ثم قام بأكل ما فيها.

- نظرت إليه والدته باستغراب وتساءلت عما يفعله، فأجابها وهو يمسح فمه بالمنديل.

- ألم تسمعي، الجلي اليوم على نور، وأردت أن أزيد لها الصحون كي تتسلى.
هجمت عليه ونور ووضعت يديها على عنقه من الخلف وقامت بهزه.
- سأقتلك يا شرير..

ضحك جهاد كثيرًا وهو يسحب يديها القابضتين على عنقه، ثم خرج هاربًا من المطبخ، بادله الضحك والده وانتقلت عدوى الضحك إلى مريم ووالدتها، حتى نور لم تتمالك نفسها وضحكت على منظر جهاد وهو يركض هاربًا.



- الله يعطينا خير هذا الضحك، ليس غريباً فالיום هو الأربعاء.
قالها أبو جهاد وهو يشرب الشاي بعدما أزاح بكرسيه نحو النافذة وأشعل
سيجارة وبدأ ينفث بدخانها نحو الخارج.

- نعم اليوم عيد الحماصنة.
تحدثت مريم وهي تساعد نور في ترتيب الطاولة ونقل الصحن، تساءلت
نور:

- ما سر تسمية هذا اليوم بهذا الاسم يا أبي؟
ضحك أبو جهاد واعتدل في جلسته وقال:

- تقول إحدى الروايات الشعبية بأن تيمورلنك المغولي حينما اجتاحت بلاد
الشام كانت حمص المدينة الوحيدة التي سلمت من أذاه، لأن سكانها تظاهروا
بالجنون في الشوارع، علقوا على رؤوسهم القباقيب، وأخذوا يقرعون على
الصحن النحاسية، وأشاعوا أن مياه العاصي تصيب كل من يشربها
بالجنون، وهذا ما جعل الجيش الجرار الذي يرافق تيمورلنك يمر مروراً
سريعاً بحمص، وقد حدث ذلك في يوم الأربعاء فاعتبر هذا اليوم هو عيد
الحماصنة أو عيد الجنون الحمصي.

- شعب ذكي يعرف كيف يتعامل مع الأزمات، ولا يجب أن يوصف
بالجنون بل بالذكاء، على كل حال لا يهم، المهم أننا نجونا.

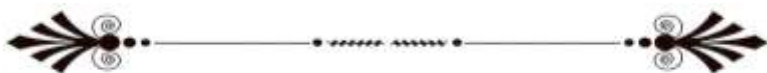
عقبت مريم على كلام والدها، ثم استأذنت منهم للذهاب إلى مكتب
المحامية، أنهت نور جلي الصحن وترتيب المطبخ، وتوجهت نحو الصالة



لتكمل ترتيب البيت، جلست أم جهاد على كرسي بالقرب من زوجها، وهي تتذمر من رائحة دخانه التي فاحت في المطبخ، أخبرها بأنه ذنب تلك الرياح التي تدخل إلى المطبخ وتدفع بالدخان إلى الداخل، وعلل ذلك بسبب وقوع حصص أمام فتحة البحر المتوسط، ما يجعل جو المدينة معتدلاً طوال العام، ويسبب في هبوب الرياح المستمر طوال الصيف.

- أعتبر بكلامك هذا أنك أقنعتني، ذنب الرياح لا ذنبك أنت، من يشعل هذه السجائر ويدخنها ويضر بصحته ويخنقنا؟
- لا تناقشي، كلامي قاموس يجب أن يؤخذ به.

نظر إلى ساعته التي يحملها في جيب جاكيتة العلوي، وهي من الساعات القديمة التي كانت متداولة قبل ظهور ساعات اليد، ساعة نحاسية مدورة، بسنسال نحاسي تنتهي بمشبك صغير يعلق بأحد عروات الجاكيت لتمنعها من السقوط، كانت تلك الساعات حكرًا على الأغنياء والبكوات، وكانت تورث كغيرها من الممتلكات، حافظ أبو جهاد على حمل تلك الساعة التي ورثها عن أجداده، والتي ما زالت تعمل بحركة ديناميكية بمساعدة (زنبرك) في داخلها، حيث يقوم أبو جهاد بلف الزنبرك بواسطة مفتاح دائري صغير على جانب الساعة، لتدور عقارب الساعة بعد انفلات الزنبرك بشكل تدريجي محرّكًا بذلك عجلات صغيرة ومسننات بشكل منظم طوال اليوم، وكانوا يسمونها (تعشية) لأنهم يمنحون الطاقة للنابض كل مساء كناية عن إطعام الساعة طعام العشاء.



- يجب أن أذهب إلى جارنا عبد الفتاح قبل ذهابي إلى الدكان، سأقوم بتحويل بعض الأموال إلى الدولار، حال السوق لا يطمئن، هناك أنباء بأن الليرة ستندهور كثيرًا.

-خيرٌ ما تفعل ولكن كن على حذر.

-بالتأكيد سأعود إلى البيت وأترك المال هنا، لن أخذه معي إلى السوق. أوصته زوجته أن يشتري بعض المواد الغذائية وتخزينها في البيت قبل حلول شهر رمضان، لأن أسعار البضائع في ارتفاع، والوضع في الخارج لا يطمئن، وبات الالتزام في البيوت هو الخيار الأفضل، حتى ولو بدت الحركة طبيعية نهارًا، فإنها تكاد تنعدم حين حلول المساء.

تقف مريم على الحاجز الذي أقامه بعض شبان الحي مؤخرًا، عرفوا بأنها محامية متدربة، وطلب منها أحدهم مساعدته في استلام قضية أخيه الذي اعتقلوه عقب الأحداث الأخيرة، وأن تكلف أحد المحامين المتمرسين في التقصي عن مكانه، ومحاولة إخلاء سبيله مهما كلف الأمر، حتى ولو طلبوا المال للإفراج عنه.

وعدت بمساعدتهم ما استطاعت، بعدما دونت اسم الشاب المعتقل على مفكرتها، وقبل أن تستدير وتتابع طريقها، خاطبها أحدهم:

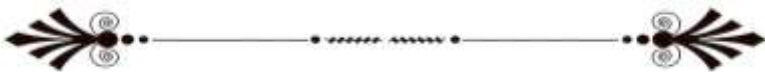
- أختي نصيحتي لكِ ولكل الأخوات في الحي أن تلتزم البيوت ما استطعن، نحن هنا لحمايتكن ومنع أي غريب من الدخول، ولكن خارج الحي لا نستطيع فعل أي شيء، الشبيحة منتشرون في أغلب الأحياء،



ويقومون باختطاف النساء والرجال على حد سواء، ليقوموا بالضغط علينا بهم، فترة وستمر إن شاء الله ونحرر حمص منهم.

لم تنبس ببنت شفة وتابعت طريقها مذهولة، شعرت وكأنها في بلد محتل بالفعل لا في مدينتها التي اعتادت العيش فيها بكل تنوعها السكاني، من يعني بالغرباء؟ هل يقصد أولئك الذي قدموا من لبنان وغيرها لمشاركة الجيش في قمع المظاهرات، أم يقصد به الجيش نفسه، أم عناصر الأمن، أم أبناء الأحياء الأخرى؟

وصلت إلى موقف الحافلات، وانتظرت السرفيس الذي يقلها إلى وسط المدينة، صعدت فيه واختارت مكاناً بالقرب من النافذة في آخر مقعد على يمين السائق، وسمحت لفتاتين بالعبور والجلوس بجانبها على المقعد الذي يتسع لثلاث ركاب، لطالما كانت تختار هذا المكان لئلا يجلس بجانبها شاب، وإن صدف وجلس أحدهم، لن يستطع مضايقتها في المقعد، لأن البعض منهم لا يراعون خصوصية الفتاة ولا حيائها، يلصقون أجسادهم بها حتى أنهم كانوا يقومون بالتحرش بأيديهم ويتظاهرون بأنهم لم يتقصّدوا فعل ذلك، يفترشون المقعد بأجسادهم وجلساتهم الذكورية ويباعدون أقدامهم عن بعضها البعض، حتى لا يتركون مكاناً للفتاة، فتلتصق بكلّها في النافذة، لا تصدق متى تمر تلك الدقائق عليها حتى تلقي بنفسها خارجاً وتتنفس الصعداء، لا يقتصر هذا الأمر على الحافلات الصغيرة بل حتى الكبيرة منها، المطبات لعنة والضغط على الفرامل كارثة بالنسبة للفتيات،



لا تشعر إلا وقد التصق أحدهم بجسدها، وخاصةً حينما لا تجد مقعدًا فارغًا، بسبب ازدحام الركاب، وتمضي الوقت واقفةً مشدودة الأعصاب حتى تصل إلى وجهتها، لتشعر وكأنها كانت في كابوس لا في وسيلة نقل. أما الآن ومع اندلاع الثورة، زاد الأمر سوءًا، باتت الحافلات تقف على الحواجز وتفتش من قبل عناصر الأمن، ويتم اعتقال المطلوبين من الركاب أو حتى المشتبه بهم، وسائل النقل باتت وسيلة رعب، أو الآلة التي تؤدي بك إلى الهلاك.

الجميع ما زال يدخل ويخرج من البيت ما عدا نور التي لم تر عتبة الباب منذ ذلك اليوم، ولا حتى تواصلت مع صديقاتها، أو حتى تحدثت مع إحداهن على الهاتف، صديقتها المقربة غدرت بها، وسلمتها لأنياب الذئب المكّار، وكانت سببًا في اختطاف وليد، وفي فراقها عنه بهذه الطريقة المؤلمة، وخسارتها لأغلى ما تملك الفتيات، لقد تدمرت حياتها حرفيًا، ومستقبلها أيضًا، وباتت ممارستها للأيام مجرد تعاقب أرقام لا معنى لها، لا تدري أين تذهب بها سفينة الأيام، وعلى أي بر سترسو.

تحاول أن تخفي ألمها بداخلها وتمارس حياتها بشكل طبيعي، تحاول أن تنسى ما أصابها، ليتها تملك ممحاة سحرية تمحو بها كل ذاك الماضي الأسود، ليتها ترسم بفرشاتها أيامًا على هواها، ليتها تفقد ذاكرتها وتنسى، النسيان نعمة كبيرة نحن بحاجة لها، محظوظون أولئك الذين يفقدون الذاكرة أو يصابون

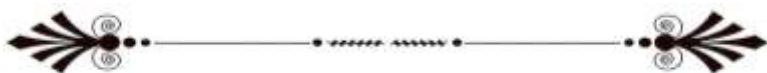


بالزهايمر، البسمة لا تفارق وجوههم، وكأنهم ولدوا للتو من أرحام أمهاتهم، بريئون جدًا حد البكاء.

الأحلام التي كانت ترسمها في مخيلتها مع وليد، باتت كوابيسًا لمستقبل مجهول، تحاول أن تطرد طيفه من خيالها، حبه في قلبها ثابت لا يتزعزع، لكنه بات ناريًا يشوي قلبها، والذكريات الجميلة غدت ألمًا يعذبها، لا مفر من الذكريات ولا مهرب من القدر، يخيل إليها أن يكون وليد على علم بما جرى، كيف يفكر بها الآن، وماهي نظرته لها، السم الذي دسه مجد لهما يكاد يقضي عليها، فهل قضى على حب وليد لها؟

مشوشة الذهن تنام على وجع وتصحو والدموع في عينيها، تمسح وجهها ببعض القوة وتخرج لتقابل أهلها، لا تريد لهم أن يشعروا بمعاناتها، ولا تريد لدفع العائلة التي تعيشه أن يتبدد، مستقبلًا ستفرض الزواج من أي طارق لبابها، وكذلك الحب، إن كان قد تأجل زواج أختها بسبب الأحداث، كذلك ارتباطها سيكون بعيدًا جدًا وهذا ما يجعلها تلتقط أنفاسها وتهدأ.

جرس الباب الخارجي ينبئ بقدوم ضيوف، يخفق قلبها خوفًا وترتعد أوصالها، باتت تخاف من رنات الجرس وطنين الهواتف، تقف خلف باب غرفتها لتسترق السمع، خطوات وعبارات ترحيب، صوت جهاد ووالدتها يحتفون بالقدامين، ونداء أمها باسمها جعلها تنتفض من مكانها، شعرت بدوار في رأسها فجلست على السرير، طُرق باب غرفتها وفتح قبل أن تأذن للطارق بالدخول، كانت والدتها تحثها على الخروج لاستقبال ضيفة قادمة



دون أن تعلمها من تكون، ارتدت ثياباً طويلة ووضعت حجاباً على رأسها وخرجت، رأت عجلات كرسي معدني قبل أن تصل إلى الصالة وتتحقق جيداً من الأمر، حقائب سفرية بالقرب من الكرسي، وصوت شاب يتحدث مع جهاد، كادت أن تعود إلى غرفتها لولا أن سمعت صوت فتاة.

حاولت استراق النظر قبل أن تتقدم نحوهم، فبدت لها فتاة في مقتبل العمر تجلس على الكرسي ذي عجلات معدنية كبيرة، جميلة بوجه حنطي مدور وعينين واسعتين، بجسدٍ ممتلئ بدا هشاً في جلستها، ما إن تقدمت بخطواتها نحوهم حتى استقبلتها الفتاة بابتسامة تحفر غماسة في خدها الأيمن.

- رحي بسيدرا يا نور، ستكون ضيفتنا في هذا البيت حتى تهدأ الأمور في حارتهم.

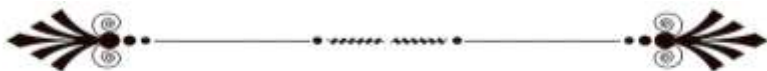
انطلقت سيدرا في الحديث مع نور تعرّف عن نفسها، وتخبرها بأنها ستكون ضيفة خفيفة الظل، وبدأت تتحدث عن الأوضاع في حارتهم وسبب مجيئها إلى هنا، لقد خففت العبء على نور في انتقاء كلمات ترحيب، وفي الحديث حيث شعرت نور بأن لسانها معقود ولا تستطيع التعبير.

لم تكن مرتاحة لوجود عامر معهم في الجلسة، فنهضت وقادت الكرسي التي تجلس عليه سيدرا، ولحققتها والدتهم بالحقائب إلى غرفتها، بدت أكثر رحابة مما كانت عليه في الخارج بوجود عامر، وبدأت تعرّف سيدرا على لوحاتها وكتبها، وأخبرتها بوجود سرير اضافي في المخزن وستضعه لها بالقرب من سريرها وستكون صديقتها التي تتسلى معها وتبادلها الأحاديث قبل



النوم، بدت أكثر اشراقاً بوجود سيدرا، وكأنها جاءت لتخرجها من وحدتها التي تعيشها مع نفسها.

استأذن عامر بعدما شرب الشاي مع جهاد، وذهب إلى منزله في حي كرم الزيتون، بعدما أخبره بأن أبناء الأحياء المجاورة كانوا قد أبلغوهم بضرورة إخلاء المنزل وإلا قاموا بإخلائه بالقوة، والمرأة التي كانت تساعد سيدرا انتقلت مع عائلتها إلى الريف، خوف عامر على سيدرا جعله يستودعها أمانة عندهم، ورفض أن يترك البيت خاوياً حتى ولو قاموا باقتحامه عليه.



الفصل الخامس

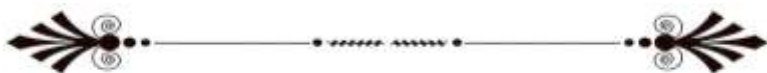
(1)

الأوضاع في حمص باتت تأخذ منحى آخر، وبات عزل الأحياء وتصنيفها على أسس طائفية، أبناء الحي من الأغلبية باتوا يطلبون من الأقلية بضرورة الخروج من منازلهم، لأنهم يريدون حياً صافياً من أي تنوع ديني آخر، دون النظر لميولهم السياسي، وقد انطبق الأمر على أغلب الأحياء بتنوعها الطائفي على حد سواء، هنا بات الأمر أكثر خطورة، أكثر من ثورة ضد حكم، حينما تبدأ حبات السبحة بالانفلات حسب ألوانها، يسهل ضياعها وحينما يبدأ هذا التفكك في النسيج الحمصي، يغدو من السهل القضاء على انتفاضة الشعب والتفرد بالأحياء وانتشار الضغينة بين النفوس. سياسة تهجير طبقت في ذاك العام، لتغيير المكون الاجتماعي للمدينة متذرعين بالثورة التي كانت حجة لهم في تطبيق العنف بشتى أنواعه. العنف الذي تتعرض له حمص، له جذور تمتد منذ سنوات طويلة، فقد كانت تحت وطأة العنف (السلمي) أو العنف البطيء الذي تم اصطلاحه من قبل روب نيكسون الباحث الأدبي والمناصر للبيئة من جامعة برينستون في كتابه حول هذا الموضوع، حيث قال (هذا العنف الذي يمارس تدريجياً وبعيداً عن الأنظار، له قوة تدميرية مؤجلة، ومشتتة على نطاق زمني



ومكاني واسع، وهذا العنف المنهك للضحايا، قد لا يدرك أحد عادة أنه نوع من العنف)

التهجير المنهج قد طبق على 1500 شخص من سكان منطقة بساتين حمص الغربية التي تقع بين الغوطة وحي القراييص، بهدف إقامة ما يسمى حديقة الشعب، وإقامة المجازر بحق مئات الأشجار التي يبلغ عمرها أكثر من 200 عام، فرغت حديقة الشعب المزعم إنشاءها من سكانها ومازالت تنتظر أن تصبح حديقة حتى يومنا هذا، لم يقتصر التهجير على السكان فحسب، بل طبق على الأشجار أيضًا، ففي حي الغوطة وفي شارعها الرئيسي بالتحديد، تم اقتلاع أشجار الكينا والأكاسيا والصفصاف، وفي حي الملعب، هُجرت أشجار النخيل إلى مدخل حمص الغربي خارج المدينة بالقرب من مصفاة حمص، عدا عن تشويه الذاكرة الحمصية، وطمس معالمها الأثرية، فقد قامت الجرافات في ثمانينات القرن الماضي بهدم جزء كبير من القسم الشمالي الغربي للمدينة المسورة، لأجل بناء مجموعة من الأبنية الضخمة، والتي تدعى اليوم بمجمع الأربعين، نسبة إلى جامع الأربعين الذي ما زال صامدًا إلى اليوم بمئذنته التي كانت برجًا دفاعيًا ضمن كتلة جدار السور، وأمام الجامع على بعد أمتار قليلة، خمس قناطر من الحجر الأسود، هي ما تبقى من المئذنة مع سور حمص الأثري في هذا الجزء من المدينة القديمة، فبدلاً من الحفاظ على تراث هذه المدينة وترميمه، تم تشويه معالمها ونسيجها الثقافي والعمراني والاجتماعي، عامًا بعد آخر تم استبدال عدد



كبير من بيوتها القديمة بعد تهجير أصحابها منها، بأبنية تجارية حديثة، ودوائر حكومية ومآرب للسيارات.

ما إن بدأت أرشفة ذكرى مجازر الأشجار والاستملاكات التي شغلت السكان على مدى سنوات طويلة منذ صدور القرار عام 1992 وطرده الأهالي منها عبر سنوات لاحقة، حتى أعلن عن مشروع آخر، مشروع رآه البعض اللجنة القادمة لحمص، وكثيرون يرونه عقدة من عقد سلسلة العنف البطيء الطويلة ضد المدينة. (نقلًا عن موقع الجمهورية نت، تدمير ذاكرة حمص)

حلم حمص، كما أسموه، بات كابوسًا يجثم على صدور الأهالي، لأنه لا يستهدف البساتين المتبقية في حي الغوطة بعد مشروع حديقة الشعب، وبناء الأبراج فيها والتي تم تشييد برج الغاردينيا بالفعل ضمن هذه البساتين وكانت إحدى المشاريع المعلن عنها، بل كان يستهدف وسط المدينة التي كانت إرثًا لأجيال الأهالي (منها سوق الناعورة)

خلال طرح مشروع بناء برج الغاردينيا للذين حازا على مساحة كبيرة من البساتين آنذاك، أعلن على أنه موجه بشكل خاص للاستثمار وللمغتربين وليس لأهالي حمص القاطنين فيها، ومع بدء الثورة السورية تحول هذين البرجين للذين لم يكتمل بناؤهما إلى أهم معاقل القناصة، كونهما الأعلى في حمص، وقرييين على مركز المدينة، ما يجعلهما يكشفان



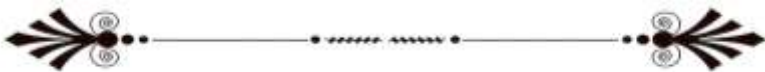
مساحات كبيرة من أحياء حمص، ليحملا بعد ذاك عند الأهالي اسم أبراج الموت.

أحببت المظاهرات التي خرجت في العام التالي كابوس حمص، بعد خروج المتظاهرين في الأيام الأولى للثورة يطالبون بإقالة محافظ حمص إياد غزال، ويعلنون عن رفضهم لهذا المشروع المدمر للذاكرة الحمصية، لم يكن مشروع حادثة وتطوير بل عنف عمراني يطبق على أهل المدينة.

ليعيش السكان بعدها كابوس آخر من عنف دموي وتهجير سريع من الأحياء، وتدمير معالمها، ما سهل على الحكومة تحقيق أولويات الحلم ليطبقوا مشروعاتهم الذي أعلن عنه في الوقت الراهن بأنه لم يُلغَ، فهل تُبنى مدينة فوق أنقاض أخرى خاوية على عروشها، أم يستقطبون سكاناً جدد على هواهم؟

ما حدث في حمص كان غراراً لما تعرضت له بيروت من تدمير لوسط المدينة بعد الحرب بحجة إعادة الإعمار، والتي قامت بها شركة الديار القطرية، والتي أسماها السوريون (السوليدير القطري) ذات الشركة التي تبنت مشروع حلم حمص. (مقتبس عن موقع الجمهورية نت/ تدمير ذاكرة حمص)

دون غيرها من المدن باتت تواجه حرباً من نوع آخر، التنوع الشعبي فيها سهل على هوة الفتن بإشعال فتائلها ورميها في الأحياء، لتشتعل النار



وتحرق بلهيبها كل شيء، فينشغل الناس عن مطالبهم الحقيقية التي خرجوا لأجلها.

ذات يوم استيقظ الناس على خبر العثور على ثلاث جثث لعسكريين ذوي رتبة بالقرب من حاويات القمامة في إحدى الأحياء، لتلقى التهمة على أبناء الحي التي وقعت فيه الجريمة، فقاموا بمداهمة البيوت واعتقال الشباب عشوائياً انتقاماً لهم، بالمقابل بدأت عمليات اختطاف الرهائن من كلا الطرفين، وطلب فدية بمبالغ مالية كبيرة، أو أن تكون الفدية رهائن مقابل آخرين من مدنيين وعسكريين، حتى طالت النساء أيضاً، لتحال حصص من ثورة شعب إلى حرب شوارع وعصابات.

التسيب الأمني الذي سمح لعناصر الدفاع المدني أن تصول وتجول وتفعل ما يحلو لها من جرائم، قد أعطي ضوءاً أخضر من قبل الحكومة، لا يهم ما يحدث، المهم أن تخمد الثورة، ولو خلت الأحياء من سكانها.

الانتقام وتصفية الحسابات الشخصية، كان يمارس بدم بارد، المجرم بات البطل المدافع عن الوطن، والمتهم هم المعارضون أيّاً كانوا، والضحية تشيع بمراسم مهيبة وإطلاق رصاص كثيف، وتدفن دون أن تعرف قاتلها ولا لماذا قُتلت.

القنوات السورية كقناة الدنيا تتحدث على مدار اليوم عن قيام عصابات مسلحة بجرائم ضد ضباط ومدنيين، وتصوير الجثث وعرضها وكيف تم التمثيل بها، وذلك لتحريض الناس على المتظاهرين والوقوف في وجه الثورة،

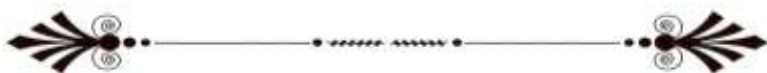


كان البسطاء يصدقون بأن مسلحين أشاعوا في البلاد الفساد همهم القتل والتخريب، تمامًا كيأجوج ومأجوج لكن أعور الدجال في زماننا كان طبيبًا للعيون دجالًا، لكنه لم يكن ير أبعد من أنفه.

كانت أجهزة الأمن تطلق النار على عناصر الشرطة ويوهموهم بأن مسلحين إرهابيين قاموا بذلك، الشرطة في ذاك الوقت مع رئيسهم لم يكونوا راضين عن إطلاق النار على المتظاهرين العزل، وقد قام العديد منهم بالانشقاق وترك الخدمة.

القصص والأساطير التي كانت تنسج في الشوارع وتحت جنح الليل، لا يصدقها عاقل، لكنهم كانوا يكذبون الأكاذيب ويصدقون أنفسهم، حتى وإن أخبرتهم بالحقيقة، تتوقف خلايا عقولهم عن الاستيعاب، لأنها تبرمجت بناء على الكذب الذي يرددونه، حتى ولو كان منافياً للعقل والمنطق. كانت سيدرا تحدث نور عن الكثير من الأحداث التي كانت تقع في حيهم، وتشاهدها من نافذتها، تستمع لأحاديثهم وكذبهم ومخططاتهم وما يقومون به.

انتشر في الحي شبان مراهقون حملوا السلاح ووقفوا صفًا إلى صف مع عناصر الجيش على الحواجز، لمؤازرتهم في مواجهة أي مسلح غريب، وذات يوم مرت سيارة تكسي صفراء فيها راكبين مع السائق، أحدهم يجلس بجانب السائق، والآخر من الخلف، آثار مظهرهم نظر الشبان فأشاروا للسائق بأن يتوقف، لم يصغ لهم السائق بناء على طلب زبائنه، فتابع طريقه



مسرعاً، حتى قام الشبان بملاحقتهم وإطلاق النار عليهم، حتى يفقد السائق سيطرته على السيارة وترطم بأحد أعمدة الإنارة، فينهال الشبان عليهم بالضرب ويخرجونهم ليسلبوهم أرواحهم بإطلاق النار عليهم، يرددون بأعلى صوتهم بأنهم عثروا على أفغانيين وباكستانيين دخلوا إلى سورية لتخريبها وقام الشبان بقتلهم، وفي الحقيقة يكن هؤلاء من عناصر الأمن بلباس مدني يجوبون الشوارع، ووقعوا تحت رحمة هؤلاء المراهقين الذي جربوا الإجرام وتلذذوا به، حينما يفتشون جيوب الضحايا يجدون هوياتهم الشخصية ويتعرفون عليهم، وليخفون جرائمهم كانوا يلقون بالجثث في الأحياء المعارضة لإلقاء التهمة عليهم.

حينما أسموها فتنة، كانوا على علم تام بصدق تسميتهم، ألقوا الفتنة في شوارع حمص، لإجهاض الثورة وزرع الحقد بين أبنائها، لينشغلوا في محاربة بعضهم البعض ويتحول مسار الثورة إلى منحى أكثر خطورة.

ارتشفت سيدرا آخر ما تبقى من الشاي في كأسها، وهي تحدث نور وقد كانتا جالستين على الشرفة، وحينما فتحت الحديث سيدرا، أدخلتها نور إلى غرفتها ليتحدثا هناك بسرية دون أن يسمعهما أحد.

كانت نور تنصت لها بذهول، لم تكن تعلم بأن الأمور وصلت إلى هذا الحد، لم تكن أحداث الشارع تهمها في الفترة الأخيرة، بسبب عزلتها التي قضتها في غرفتها، حتى قنوات الأخبار لم تكن تتحدث عن هذه الجرائم بتلك الشفافية، فقط مواقع الانترنت التي تؤيد الثورة كانت تنشر كل



شيء، لكن القبضة الأمنية طالت حتى تلك المواقع باعتقال أصحابها ومن يشارك فيها، وتهكيرها.

- لقد أخذنا حديث الشارع، ولم أسألك عن دراستك، فقط شاهدت لوحاتك المثيرة للاهتمام حقًا.

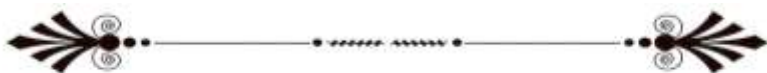
ابتسمت نور وغصة في قلبها اختلجت، الحديث عن الدراسة يذكرها بوليد.
- أنا أدرس في كلية الصحة العامة، وقد أتممت السنة الثالثة اختصاص معالجة فيزيائية.

- رائع جدًا، كم أحب هذا الاختصاص، حينما شاء الله لي أن ألزم هذا الكرسي، أخبرنا الطبيب بضرورة العلاج الفيزيائي، كي لا تضر العضلات، لكني لم أجد معالجًا، واستسلمت للقدر.

نظرت نور إليها وهي تتأمل جسدها على الكرسي، وأقدامها التي تخفيها تحت غطاء ملون، فتاة بذكائها وجمالها، تبقى أسيرة كرسي متحرك، والابتسامة لا تفارق وجهها، كم تحمل في داخلها من قوة وإرادة، ورضاء بقضاء الله وتقبلها لنفسها وحبها لذاتها.

- شافك الله وعافك حبيبي، سأقدم لك ما بوسعي فعله، عدا عن ذلك ستصبحين صديقتي المقربة، كم أنا بحاجة لمثلك.

نهضت نور من مكانها واحتضنت سيدرا، امتنانًا على سعادتها بوجودها، قاطعت تلك الجلسة الحميمة مريم بدخولها عليهم، بعد عودتها من المكتب، مرحبة بسيدرا وتعبيرًا عن فرحها بقدومها.



- أختي مريم المحامية المبدعة، والتي تبقى مشغولةً عني طوال الوقت إما تتحدث مع خطيبها، أو تقرأ في كتب.

ضحكت مريم ولكزتها على كتفها، ثم قالت:

- أختي نور الصامته التي تبقى ملازمة غرفتها بين لوحاتها وألوانها، وكأنها تعيش في عالم آخر.

- وأنا سيدرا الفتاة المقعدة، كثيرة الكلام والضحك، أتمنى أن أكون خفيفة الظل عليكم ولا أزعجكم بوجودي.

- على العكس أنت فتاة رائعة، وابتسامتك تبعث في النفس الأمل، سعيدين لوجودك بيننا، بالإضافة إلى أنك سياسية مخضمة، ومتابعة جيدة لآخر التطورات.

تابعت نور حديثها موجهة كلامها لمريم:

- لقد حدثتني سيدرا عن الكثير مما يحدث في المدينة، وعن أحداث كثيرة يجب علينا الاطلاع عليها، أعتقد بأنك مهتمة بمثل هذه الأمور يا مريم.

- ها. جميل، إذن سيكون لدينا جلسات وأحاديث مطولة معًا، أما الآن فأنا جائعة ورائحة طعام أمي تدغدغ معدتي، لقد تأخرت كثيرًا حتى حظيت على مقعد صغير في السرفيس، الآليات باتت قليلة والازدحام المروري كثيف، سأذهب لمساعدة أمي في تجهيز السفرة، وبعد العشاء نتحدث.

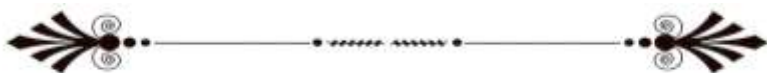
بتن الثلاثة يمضين أوقاتهن معًا، تتبادلن الأحاديث والضحكات، لقد أضافت سيدرا روحًا جديدة على البيت ومؤنسًا لنور، تسليها عن ذاتها



وتخرجها من تلك القوقعة التي حبست نفسها فيها بعد تلك الحادثة، ذات مساء كانت سيدرا تقلب في هاتفها المحمول، فسألت نور إن كان لديها هاتف، ترددت في الإجابة ثم أخبرتها أنها تملك واحدًا لكنه مغلق منذ مدة، ومرمي في أحد أدراج خزانتها، طلبت منها رقم هاتفها لتخزنه في جهازها، كانت قد نسيت الرقم فاضطرت لإخراجه وتشغيله وهي مرتبكة لما قد يصلها من رسائل، أغمضت عينيها وهي تكبس على زر التشغيل، أصدر ذاك الصوت الذي يعلن عن بدء التشغيل، ثم بدأ يصدر صوت طنين مستمر معلناً عن بدء ورود رسائل إلى البريد، خفق قلبها وارتجفت يداها وحاولت أن تخفي ارتباكها أمام سيدرا التي كانت مشغولة في النظر لهاتفها، جميع الرسائل الواردة كانت من المرسل ذاته، خشيت أن تفتحها وتقرأ محتواها، فأغمضت عينيها حتى تنتهي الرسائل من الورد، تجاوزت عنها وفتحت على رقمها وتلته لسيدرا كي تسجله عندها.

اعتذرت لسيدرا بأنها تريد أن تخذل إلى النوم، ساعدتها على التمدد في سريرها، ثم توارت تحت غطاءها والهاتف بيدها، الفضول يكاد يقتلها لتعرف محتوى الرسائل، وخصوصًا بأن المرسل كان وليد.

في الأيام الماضية كان وليد يحاول الوصول لنور، بعد ذاك الاتصال الذي ورده من راما، وكانت قد أخبرته بالخطة التي رسمها مجد ونفذها للانتقام منهما، وبأنه السبب وراء اختطافه ليقود نور إلى بيته، وهي من سهلت عليه هذه الخطة وساهمت في تنفيذها بسبب خداعه لها، ووعده لها بأن



يتزوجها بعدما اعترفت له بحبها، لكنه خدعها كما خدع نور وطردها من بيته بعدما أتت إليه تطالبه بتنفيذ وعده، واعترف لها متفاخرًا بتلك الجريمة التي ارتكبتها بحق نور، وكيف سلبها عذريتها انتقامًا على رفضها له، وبأنه مستعد لنشر صورها وفضحها إن تعرض له أحد، عبرت له عن ندمها الشديد، وأرادت أن تكفر عن ذنبها بإخباره بكل ما حدث وبأنها لا تستطيع الوصول لنور والاعتذار منها.

صعق وليد ذلك اليوم لما سمعه من راما، وحمل نفسه مسؤولية ما مر على نور من ألم بسبب ذلك الوغد، ووعد نفسه أن ينتقم لها ولشرفها، وأن لا يتخلى عنها مهما حدث، وأن يكون سندها مدى الحياة.

كان في كل يوم يحاول الاتصال بنور، حتى بات يسلي نفسه بالكتابة لها حتى ولو لم تكن رسائله تصلها، يرسل لها في كل يوم عشرات الرسائل التي كان الهاتف يعلن بعد أيام عن عدم استلامها من قبل الطرف الآخر، فيعاود إرسالها من جديد.

- اشتقت إليك كثيرًا، أنت أنقى وأطهر فتاة عرفتها.
فتحت أول رسالة وقرأتها بشغف، لم يخيل لها أن تجد مثل هذه الكلمات، تسارع نبضها وكأنما أعيدت الحياة لقلبها، سالت دموعها على وجنتيها، مسحتهما لتمكن من قراءة الرسالة الثانية.
- لن ينجو مجد من فعلته، سيدفع الثمن غاليًا.



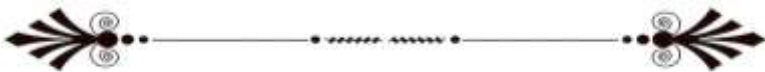
لا بد وأنه علم بالأمر، كيف ومن لا يهم، الأهم بأنه يعلم بأنها بريئة، ولم ينظر إليها بدونية كما كانت تعتقد، تريد الانتقام من مجد هي الأخرى، تتمنى لو أن تفقأ عينيه.

- تعاهدنا على السراء والضراء، ساقف معك مهما كانت الظروف.
الوعود لا يطلقها إلا الرجال، شعرت بقوة لم تشعرها من قبل، أن تجد من يقف بجانبها بعدما شعرت بأنها خسرت كل شيء، لم يعاهدها عبثاً كما يفعل بعض الشباب، مازال متمسك بها، ولم يجدها على فعل لا ذنب لها فيه.

- أنت نور حياتي، وبدونك أغرق في الظلام.
لا نور يسطع فوق نور الحقيقة، الشمس تشرق من بين عينيه، ولا ظلام من بعد الآن، ولو توسد الليل جنبات الكون للأبد.

- أرجوك افتحي هاتفك، اشتقت لصوتك جداً.
الكون أصم في غياب صوت من نحب، وقد صمت أذناها عن أي صوت قد يأتي به هذا الهاتف، وها هي الآن تقرأ هذه الرسائل بصوته.

- أتمنى أن تكوني بخير، هذا ما يهمني الآن.
أنا بخير، الآن أصبحت بخير يا وليد، قالتها وهي تكفكف دموعها، رنات الهاتف قاطعتها عن إكمال قراءة الرسائل، وكأن مرسلها تنبأ بوصولها، فباغتتها باتصاله قبل أن تعيد إغلاقه.



ترددت في الرد وقد زاد نحيبها حينما رأت اسمه، لكن المتصل كان ملجأً للحصول على إجابة.

تأكدت من أن سيدرا تغط في نومها، وتوارت تحت غطاءها وفتحت الاتصال.

جاء صوته معاتباً على غيابها، مواسياً لها، مخرجاً إياها من حزنها، مخبراً إياها بأن لا تخشى شيء في وجوده، ولن يكون إلا كل ما يرضيها، كانت تجيبه بصوت يتخلله البكاء، كان أماناً لها من كل خوف، مرساة سفينتها التي هاجت في الأيام الماضية، فاستكانت على شواطئه وهدأت.



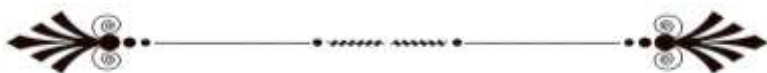
(2)

-لن أسمح لأحد أن يدنس هذا البيت، سيدخلون على جثتي.
الغضب يعلو رأس جهاد، وتوتر أصاب البيت كله، حينما استيقظت المدينة على حملة مdahمات للبحث عن المطلوبين، وصلت الحي المجاور لحيهم، أصوات الرصاص لم تهدأ منذ الصباح، وصوت آليات ثقيلة تحفر بجنازيرها على الاسفلت، وقصف بالمدفعية على الأحياء الأكثر اشتعالاً.

كانت الفتيات الثلاث يتجمعن حول أنفسهن خوفاً، سيدرا كانت الأقوى بينهن، تخفف عنهن هول ما يحدث، أم جهاد تمسك سبحتها وتردد اللطيفية (يالطيف يالطيف، اجعل للبلاء تصريف)، وتأمر البنات أن يرددن معها، أبو جهاد يتفقد الشارع الذي كان خاوياً من النافذة، وقد شرب الكثير من السجائر، يحاول جهاد إخفاء كل ما يمت للثورة بصلة، من شعارات وأعلام، حتى جهاز الكمبيوتر قام بإخفائه على السقيفة، تحسباً لوصول الأمن إلى حيهم.

المحلات أغلقت أبوابها، والجميع التزموا منازلهم، أمر جهاد البنات بارتداء عباءتهن، والجلوس في غرفته التي لم تكن تطل نوافذها على الشارع، والتزام البقاء فيها حتى انتهاء الحملة.

اعتادت المدينة على مثل هذه الحملات في الآونة الأخيرة، لإسكات الثورة فيها بعدما خرجت أغلب الأحياء عن السيطرة، وهبَّ معظم أهالي حمص في



وجه النظام، بعد استخدام القوة المفرطة في قمع المظاهرات، والاعتقال التعسفي والاختفاء القسري.

الهدنة التي عاشتها نور لم تدم طويلاً، السعادة تمنح لأيام قليلة، وربما للحظات، أن تكون في سورية، يعني أن تقبض من سعادتك أثر، وتخبئه جيداً، لأن الخوف والحزن سينبش أظافره في قلبك، فتسلا عن كل شيء، وتنتظر أن يصمت صوت الخوف إما بانتهائه أو موتك، وإن وجدت نفسك بين أنياب المخابرات، فاقراً الفاتحة ألفاً على روحك.

لا صوت إلا أزيز الرصاص يملأ المدينة، وصراخ نساء يأتي من الجوار، باص أخضر يقف على الرصيف المقابل على بعد عدة أمتار، يسترق النظر جهاد من النافذة، يرى كيف يساق الشباب مربوطي الأيدي ومعصوي الأعين إلى الحافلة، يحيط بهم مجموعة كبيرة من رجال الأمن والجيش والشبيحة، يعلو الغضب رأسه، يتمنى لو أنه يملك سلاحاً لفتح النار عليهم، تقف خلفه مريم، تسحبه من يده لابتعد عن النافذة، تطلب منه أن يختبئ في بيت أبي شادي المجاور حتى انتهاء الحملة، يعترض على طلبها غاضباً.

- لن أترك هذا البيت، حتى ولو جاؤوا واعتقلوني، لربما أخذوا واحدة منك كرهينة بدلاً عني، من الجبن ان أختبئ، وأترككن عرضة للإهانة. ساعات تمر كأنها دهر، وأصوات الرصاص تبتعد، يحل المساء كثيباً على الحي، هدوء مخيف وانتظار، صمت يشوبه القلق، يجلس أفراد العائلة معاً غير مصدقين بأنهم كانوا عن معزل عن هذه الحملة، على الرغم من عدم



نُجاة أي بيت في الحي والأحياء المجاورة، تسبح أم جهاد الله وتحمده، ويصلي أبو جهاد صلاة شكر، تتنفس الفتيات الصعداء، وجهاد جالس دون حراك، عيناه مصلوبتان على الأرض، وكأن في رأسه معارك تقام.

- حضروا لنا الطعام، أنا جائع جدًا.

تحدث أبو جهاد وهو يطفئ سيجارته، توجهت الفتيات نحو المطبخ، فتحت أم جهاد التلفاز، لتتحدث الأخبار عن مواجهة قوات الجيش لعصابات مسلحة في حمص، لقد اعتادوا على سماع مثل هذه الأنباء المظلمة للحقيقة، أي فعل يعزى إلى عصابات مسلحة، ليبرروا استخدام العنف على المدنيين.

(3)

المدينة لم تعد تعرف الهدوء، فقد استمرت الاشتباكات مع المقاتلين الذين حملوا السلاح مؤخرًا لأجل الدفاع عن أحيائهم وعدم السماح لقوات النظام بدخولها، حرب طاحنة اشتعلت في المدينة، حرب غير متكافئة لا رابح ولا خاسر فيها، لتنتهي المعركة بكثير من الدماء المسفوكة، والمعتقلين من النساء والرجال، بكثير من الإهانة والذل لمن بات تحت قبضتهم، جعلوا النساء تمشي عارية أمامهم في الشوارع وهم يقودونهن إلى أماكن الاحتجاز، يلكزنونهن بالعصي من الخلف ويضحكون ساخرين، انتهاكاتهم تلك جعلت المعارضين يقاتلون بشراسة دون خوف من الموت، وانتقامًا للحرائر، حتى خرجت عدة أحياء عن سيطرة النظام، وطردوهم منها، لكنهم حاصروها انتقامًا، فانقطع اتصالهم عن باقي الأحياء، ومنع دخول الطعام والشراب، وباتت القناصة رقيبًا لأي حركة تصدر، فيحل السكون الملطخ بالدماء.

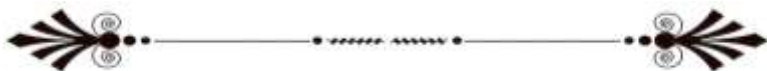
على الرغم من ذلك مازال المعارضون مصرين على الخروج في المظاهرات السلمية بشكل يومي وذلك تزامنًا مع حلول شهر رمضان المبارك، باتوا يخرجون من المساجد بعد صلاة التراويح، ويشيعون الشهداء الذين سقطوا بنيران الأمن في اليوم التالي بخروج حشود بشرية كبيرة، لتغدو الاحتجاجات مشتعلة ليلًا ونهارًا، فتلوح لهم بشائر النصر في الأفق، ويحلمون في أن يكون العيد عيدين.



لم يعد أسامة يتمكن من زيارة مريم لعدم قدرته على دخول الحي المحاصر من قبل حواجز الأمن، ولم يكن حي الانشاءات الذي يقطن فيه بمنأى عن تلك المظاهرات والمظاهرات، كان مقيمًا في المشفى العسكري في حي الوعر بعدما التحق بالخدمة العسكرية، ورفضت شعبة التجنيد تأجيله بعد انتهائه من تقديم الامتحانات، كان الخبر يومها صادمًا لمريم، لخوفها عليه، ولأنه سينظم لصفوف الجيش الذين يقومون بإطلاق النار على المتظاهرين، لكن مهنته كطبيب جعلته يقوم بأداء دورة الأغراف في المشفى العسكري، وذلك لحاجة المشافي للأطباء تلك الآونة.

لجهد كان رأي آخر، في نظره خطيب أخته خان الثورة بانضمامه إلى جيش النظام، لم يلق اعتبارًا إلى عدم قدرته على الرضا أو الهرب، لكنه كان يلقي باللوم عليه، لأنه يقوم بعلاج المجرمين في المشفى، بدل أن ينشق عنهم ويعالج الثوار في المشافي الميدانية التي أقيمت في الأحياء بسرية وبمواد إسعافية أولية.

- لا يشرفنا أن يبقى خطيب أختنا، ليس له عندنا شيء، فليذهب للجحيم. والده كان يدافع عن صهره لأنه يعلم جيدًا كيف يساق الشباب إلى التجنيد رغمًا عنهم، ولا قدرة لهم على الاعتراض حينما يقع الفأس في الرأس، وكان يخبرهم بعدم إصدار الأحكام على أي عسكري يرونه، فهم أبناءنا وأخوتنا والبعض منهم مغلوب على أمرهم، يرفضون إطلاق الرصاص على أخوتهم، هم مجاهدون مجهولون، يتم إعدامهم ميدانيًا مجرد اعتراضهم على تنفيذ الأوامر،



ومنهم من يستطيع الهرب بسلاحه ويتخلى عن المواجهة المسلحة مع أبناء البلد.

كان يعبر عن خوفه وقلقه على أسامة وعلى أبناء الوطن الذين غرقوا في سيل جارف، يقود البلاد إلى الانقسام والخراب.

كانت مريم تستمع لكلماته وهي تذرف دموعًا غزيرة، هي تعرف أسامة جيدًا، وتعلم بأنه مجبر على ذلك، لم يكن يحدثها بما يراه في المشفى، لكن صوته كان كفيلاً لأن يعبر لها عن مدى سخطه، أخبرها يومًا بأن الطبيب لا بد له من طبيب آخر ليعالج ما في نفسه من أثر ما يراه، لم يكن المشفى العسكري مشفىً بل كان مسلخاً.

نور في غرفتها تحتفل مع وليد على الهاتف بخبر مقتل مجد الذي أكده لها من مقربين له في إحدى المواجهات مع المتظاهرين، حيث سقط برصاص مجهول المصدر، أخبرها بأنه لو لم يُقتل لقام بقتله بنفسه ولو بعد ألف عام، لكنه اختصر عليه الطريق بموته، ولم يلطخ يديه بدمه النجس، كان المخيم بمعزل عن الأحداث وأصبح مكاناً يلجأ إليه الكثير من الأهالي الفارين من الأحياء المشتعلة، حتى اكتظ بالسكان، على الرغم من فقر مقومات الحياة فيه، حتى والده لم يعد يتمكن من الذهاب إلى سوق الهال، بعد مصادرة سيارته من قبل الشبيحة أثناء ذهابه يومًا لجلب الخضار.



كان وليد يبحث نور لإقناع أهلها باللجوء إلى المخيم، والابتعاد عن مناطق الاشتباكات والنار، لكن الخروج من الحي لم يكن سهلاً، وأن هذا الأمر كان يجب أن يكون قبل محاصرة وسط المدينة.

سيدرا تحاول الاتصال بعامر منذ أيام، كان هاتفه مغلقاً، لم يخبرها جهاد بأنه تم اعتقاله أثناء مدهمة الأمن لحي كرم الزيتون، وقد أخبره رفاهه بذلك، ولا أحد يستطيع الوصول إليه أو معرفة أخباره أو مكان اعتقاله، لكنها كانت تشعر بأن مكروهاً ما قد حلّ به، تذرف الدموع بصمت، تلزم الجلوس أمام النافذة عليها تلمح طيفه، أو أن يأتي لها الحمام الذي يحلق في السماء بخبر منه.

الفصل السادس

(1)

المسلخ البشري...

يمشي أسامة في الردهة المؤدية إلى غرفة المرضى، والذين خرجوا مؤخرًا من غرفة العمليات، المصابون من المتظاهرين ملقون على الأرض يتعرضون للركل من قبل عناصر الشرطة العسكرية وبعض المرضى، بانتظار دورهم في تلقي العلاج المزعوم، يصرخ بهم المرضى كلما تأوهوا، بأنهم مخربين يستحقون ما حل بهم، يحاول أسامة أن يغض الطرف عما يحدث، يدخل إلى غرفة كبيرة فيها عدة أسرة، عليها جرحى مربوطي الأطراف إلى أسرتهم، ومعصوبي الأعين، يدخل خلفه أحد الأطباء الذي يقوم بالإشراف عليهم، كان يظن بأنه سيقدم لهم العلاج، لكن بدلًا من ذلك قام بتعرية أحدهم وصب الكحول على عضوه الذكري وأشعل النار فيه، تعالت ضحكات الطبيب وهو يتلذذ بصرخات المصاب وألمه، توجه نحو آخر كان يتلوى من الألم، فك له قيد قدميه، ظن أسامة بأنه يريد أن يقدم له علاجًا ما، لكن بعد ما رآه للتو توقع سيناريو تعذيب آخر، أمسك الطبيب بساق الرجل وقام بليها بطريقة معاكسة لطبيعتها حتى سمع صوت طقطقة العظام، فتهاوت الساق على السرير دون حراك، وصمتت صرخات الرجل مغشيًا عليه من الألم، صرخ الطبيب بوجه أسامة الذي تجمد من هول المشهد،



وأمره بإيقاظ الرجل، تحرك أسامة من مكانه وهو يبلى قطنة بالكحول ويقربها من أنف المصاب، حتى استيقظت تأوهاتة قبل أن يفتح عينيه، فسارع الطبيب بالإمساك بالساق الأخرى، وكسرها بطريقة مماثلة، أغمض عينيه أسامة متألمًا، يشعر بعذاب المريض في قلبه، ضحك الطبيب وهو يربت على كتف أسامة ويقول له:

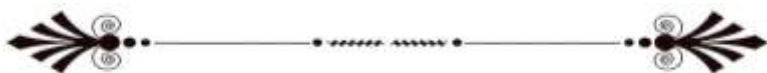
- تعلّم، تعلّم، هؤلاء يريدون هكذا علاج، أن تكسر أرجلهم عقابًا على خروجهم في وجه السلطة.

خرج الطبيب ووقف أسامة عاجزًا أمامهم، فتح الباب ودخل ممرضان يجران سريرًا عليه أحد المرضى وقد أجريت له عملية جراحية في بطنه، رموا المريض على أحد الأسرة وخرجوا دون إنسانية أو رحمة، وكأنهم يتعاملون مع جماد، دخل على الفور عنصر من عناصر الشرطة العسكرية، وبدأ بضرب الرجل على موضع العملية في بطنه، بعدما تأكد بأنه بدأ يستيقظ من التخدير، ليتلذذ بصرخاته التي كادت تحطم الجدران، حاول أسامة إبعاد العنصر عن الجريح، وثنى عما يقوم به، صرخ في وجهه قائلاً بعدما امتلأ قلبه غيظًا عما يقومون به:

- إن كنتم تريدون قتله لماذا لم تقتلوه قبل أن تقدموا له العلاج؟

رد العنصر باسمًا وهو يشعل سيجارة وينفث بدخانها في وجه أسامة:

- هؤلاء مخربون ارهابيون، ويبدو بأنك مؤيد لهم، سيكون خبرك عند مدير المشفى في الحال.



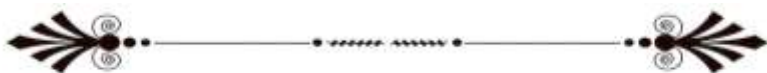
أطفأ العنصر سيجارته على جسد أحد المرضى العاري، وخرج على فوره. نظر أسامة حوله، إلى الأجساد الجريحة التي تن، ما الذي يستطيع أن يفعله لمساعدة هؤلاء، لم يخيل إليه يومًا أن تُمارس مهنة الطب بهذه الطريقة الشاذة، لم يكن المشفى مكانًا للمصابين فحسب، بل كانوا يأتون بالمدنيين إلى قسم الإسعاف، يصرخون بأنهم ألقوا القبض على مسلحين، وأنهم بحاجة لعمل جراحي على الفور دون أن تكون فيهم أي إصابة تذكر، فقط كدمات من آثار الضرب على أجسادهم، التي يراها أسامة حينما يقوم بتجهيزهم للعملية المزعومة، ويمنعونه من الدخول معهم إلى غرفة العمليات، ليدخل الطبيب ومعه معاونه ثم يخرج معلنًا بأن المريض مات بعد أن تعرض لنزيف لم تتم السيطرة عليه، فيخرج بعدها المريض جثة هامدة، دون أثر لأي عمل جراحي يذكر، لربما حقنوا شيئًا ما في الوريد، ليقوموا بقتله. كان أسامة يبيت ليلته في المشفى أثناء مناوبته، يشعر وكأنه في مقر تعذيب لا في مركز للعلاج، يشاهد كيف يقتلون المصابين بدم بارد، بعد أن يقوموا بممارسة طقوس التعذيب عليهم، من صق بالكهرباء وضرب بالهراوات، وتحطيم رؤوسهم بالجدران، ويرفضون تسليمهم لأهاليهم حتى يوقعوا على وثائق بأن العصابات المسلحة من قامت بقتلهم، مع شرط آخر ألا يقيموا لهم العزاء، حتى بعض المجندين لم يسلموا من القتل، بسبب انحدارهم من حارات ومناطق ثائرة، بحجة أنهم سيقومون بالانشقاق مستقبلاً، يحكمون



عليهم بالإعدام بسبب فعل لم يقوموا به بعد، ما المانع في أن يقوموا بتصفيته هو الآخر، لم يعد يغمض له جفن خوفًا من أن تطاله يد الغدر. في الصباح تم استدعاء الكادر الطبي للاجتماع عند مدير المشفى، الذي خصص أسامة بالاسم ووجه له تحذيرًا، ألا يتدخل بعناصر الشرطة مهما فعلوا، وحذر الجميع من أن يقدموا المساعدة أو التعاطف مع أي من المصابين المسلحين الإرهابيين، وأن عملهم طبي فقط، ليتأكد أسامة بأن تلك الأفعال موضوعًا ممنهجًا وليست أعمال فردية. (مقتبس عن شهادات أحد الأطباء لزمان الوصل)

كان يخطط في كل يوم كيف بإمكانه الخروج من هذا الجحيم، لم يعد يحتمل البقاء ورؤية التعذيب الممارس بحق المصابين وقتلهم، يرى عيون مريم معاتبَةً في كل مكان، وعيون القتل تلاحقه ويلقون باللوم عليه، وأشباحهم تحوم حوله، كان يعيش الكوابيس في يقظته ونومه، في مأكله ومشربه، حتى يخيل له كأس الشاي الأحمر، كأس من دماء.

إلى أن جاءت الفاجعة والتي قصمت ظهره، وزادت على عذابه حمم من نار كاوية، حينما وصلته رسالة من نور تخبره بأنهم أخذوا مريم. كانت حروف الرسالة مختصرة مبهمة، كلمتين فقط كفيلة في قتله حيًا، (أخذوا مريم) ما الذي حدث وكيف، اعتقد بأنها مزحة من نور، أو مداعبة من مريم لتخيفه عليها، سارع في الاتصال على هاتف مريم، لتجيبه نور



باكية، (مريم راحت، أخذوها) لم تستطع التحدث بأكثر من تلك الكلمات،
أغلق الخط ولم يستطع التفوه بأية كلمة.

كيف للزهر أن يُسحق

ولنور الأرض أن يُطفأ

والشمس توارى بإصبع

الوطن يحال سجنًا

الداخل إليه يُفقد

والخارج منه يُفجع

كيف للفرح أن يُقتل

وأحوال الكون تتبدل

رفقًا بمريم فاتنتي

ياسمينه من الظلمة تجزع

خرّ باكيًا على الأرض كطفل صغير فقد أمه، الجدران تطبق على أنفاسه،
والظلام يتفجر من جوفه يملأ المكان عتمة لا يجليها أي ضوء، صوت نحيبه
المكتوم امتزج مع أصوات صراخ وأنين في الخارج، وضربات السوط على
أحدهم يشعر بها في ظهره، لن أبقى في هذا المكان مهما كلفني الأمر، يعاهد
نفسه ومريم أن يفعل ما بوسعه لإنقاذها، حاول استجماع ما تبقى له من
قوة ليفكر بطريقه يصحوبها من هذا الكابوس.

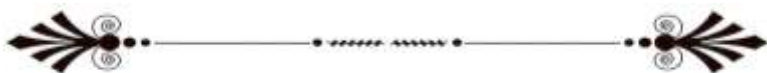


(2)

في الأيام الماضية، كانت مريم تحاول الوصول لمكان احتجاج عامر، بمساعدة المحامي الذي تتدرب عنده، وتتواصل معه عن طريق الهاتف، لعدم قدرتها على الذهاب إلى المكتب، بسبب انقطاع الطرقات بعد الأحداث الجارية، أمسكت برأس الخيط الذي يدل على مكان وجوده، والتهمة الموجهة إليه، فأولكت بالمهمة إلى المحامي ليقوم بالإجراءات بدلاً عنها.

الحزن خيم على ملامح سيدرا الجميلة، وتوارت ابتسامتها خلف دموعها، سجون الوطن تمارس ماسونيتها على المحتجزين كأفراد، لكن عذابها يطال أولئك القابعين خلف أحزانهم وخوفهم على أحبائهم، تجلدهم عقارب الساعة انتظاراً، فلا يرحون زمناً مهما طالَت الأيام.

جهد ووالده يتقصون عن بعض حاجيات البيت من طعام في الجوار، فغابا عن البيت في تلك الساعة المشؤومة، توقفت سيارة الأمن عند الحاجز ونزل منها رجال بأسلحتهم وانتشر البعض في محيط الحي وعلى أسطح المباني، طرقات قوية على الباب لم تلقَ إجابة من الداخل، دخلت نور وهي ترتجف بعدما نظرت من النافذة وشاهدت العناصر منتشرون في الشارع، أعادوا ضرب الباب بأقدامهم وأعقاب البنادق، خرجت أم جهاد من غرفتها وهي تردد آيات من القرآن والأدعية، مريم وسيدرا تجمدتا في الصالة وعيناهما نحو الباب، اختبأت نور في غرفتها وهي ترتعد رعباً، لم ينتظر المداهمين في أن يفتح لهم أحد، فقاموا بخلع الباب وكأن إعصاراً أزاحه من



أمامهم، سارع العناصر في اقتحام البيت، فصرخت أم جهاد في وجههم
لثنيهم عن الدخول، وقف أمامها رئيسهم وكان برتبة ملازم ونهرها بصوته
الحشن:

- ابتعدي عن وجهنا، لا أحد يقف أمام السلطة، ولا يمنعها عن القيام
بمهامها. ثم أشار بيده للعناصر في الانتشار في أنحاء البيت.

سارعت مريم وسيدرا في الدخول إلى غرفة نور، ليبقين معاً، وأوصالهن
ترتجف كأوراق الشجر، لحقت أم جهاد بالبنات لحمايتهن ولتذود عنهن
بروحها ما استطاعت، وهي تصرخ في وجوههم بأن البيت خالي إلا من
النساء.

ضحك الملازم بصوت مقزز، وكأنه سمع نكتة لتوه، وقام بشتم أم جهاد
بأقذر الألفاظ ثم قال لها:

- لقد وصلتنا أنباء أن البيت فيه سلاح، أين أولادك الذكور، أين تخبئهم
يا (ع...)، ثم أنتن النساء أشد خطراً تحملن السم كالأفاعي، ألقينا القبض
على إرهابي منذ مدة وقد اعترف على ابنك.

قرأ من ورقة كانت بيده ثم تابع حديثه:

- اسمه جهاد، ما شاء الله ارهابيين منذ سنوات حتى تسمي ابنك بهذا
الاسم.

تمالكت بعض القوة وأجابته بصوت مرتجف:

- ابني ليس مسلحاً ولا ارهابياً، فتشوا البيت كله، لن تجدوا فيه شيئاً.



ابتلعت ريقها وبدأت تفكر بطريقة لتستتر عن مكان جهاد تدعو الله في سرها ألا يعود الآن، وأن تمر هذه اللحظات على خير.

- ثم إن ابني مفقود منذ أيام ولا نعلم عنه أي شيء.

كانت أصوات تكسير الأشياء تصدر في أرجاء البيت، وأحد العناصر في غرفة نور يبعثر أشياءها وينثر رسوماتها على الأرض، ويفرغ خزانتها من محتواها، حتى أنه قام بقلب الخزانة على الأرض ليفتش خلفها، صوت ارتطامها جفلت له الفتيات ثم صرخت مريم في وجهه:

- ما الذي تفعلونه، ليس لدينا أي سلاح، أنا محامية سأكاضيك على تدميركم لممتلكاتنا واقتحامكم لحرمة هذا البيت بهذه الطريقة.

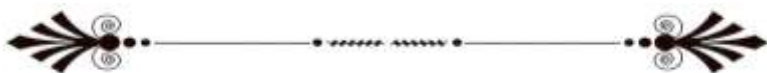
اقترب منها الملازم، وأمسكها من وجهها بيده الخشنة، حاولت الابتعاد عنه، فقام بسحبها من ذراعها، وثبتها أمامه.

- محامية جميلة، إذن تقومين بالدفاع عن الإرهابيين أليس كذلك.

لم تستطع مريم النطق، وهو يعصر وجهها بأصابعه، انقضت عليه والدتها وبدأت بضربه، فرفسها بقدمه لتقسط أرضاً.

صرخت نور وتوجهت نحو أمها، أما سيدرا فقد انقض عليها العنصر ورمها من على الكرسي ليفتشها، فتمددت على الأرض متألماً باكية لا تستطيع الحراك.

- هل التزمتن الصمت أو أمر عناصري باغتصابكن الواحدة تلو الأخرى؟



ارتعدت نور لكلامه وكاد يغشى عليها، حتى دخل أحد العناصر يحمل بيده كتبًا.

- انظر سيدي لقد وجدت هذه الكتب، يبدو أن أصحاب البيت إرهابيين من جماعة الأخوان.

أفلت مريم بعد أن رماها أرضًا وتناول الكتب من العنصر وأخذ يقلب فيها، كانت الكتب لمريم والتي تركها أبو جهاد إرثًا لها، صرخ الملازم في وجوههن:

- لمن هذه الكتب يا بنات (الش.....).

- الكتب لي.

قالتها مريم وهي تحاول النهوض من على الأرض، أدركت بأنها ارتكبت خطأً حينما احتفظت بها، وبأنها قد تعرض عائلتها للخطر بسببها، ثم حاولت الحديث لتدافع عن أهلها ودفع الشبهة عنهم.

- لا أحد يعلم بوجود هذه الكتب، إنها لي، ولا علاقة لأهلي بوجودها.

- جميل جدًا، لم نجد سلاحًا لكننا وجدنا ما هو أخطر منه.

ثم أشار لعناصره باقتياد مريم إلى السيارة، قاموا بتكبير يديها، وبدأ أحدهم بركلها وهم يقودونها إلى الخارج.

صرخات نور وسيدرا ووالدتها لم تنبيههم عن اعتقالها، بل قاموا بدفعهن وضربهن، بصق الملازم وانهال عليهن بالشتائم، ثم قال لأم جهاد:

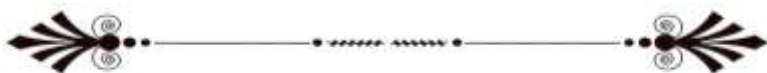


- ابنتك ستنال جزاءها، لكن إن أردت أن نطلق سراحها، فليسلم ابنك نفسه، أترين كم نحن إنسانيون.

ثم خرج ضاحكاً وهو يركل بقدمه قطع الأثاث المتناثرة على الأرض. الإنسانية لا تعرف طريقها إلى ذلك المكان الذي لا يمكن لأي امرئ أن يتخيل وجوده على هذه الأرض، كان أشبه بالقبر، بفوهة من جحيم، القائمين عليه شياطين بوجوه بشرية، لا تسمع فيه إلا صراخاً وتأوهات أرواح مزقها الألم، وأصوات السياط تأكل لحوماً حية، رائحة شواء الأجساد تختلط مع رائحة العفن الذي يتسلق الجدران، ظلام خائق وكأنا الزمن لا وجود له، ليلًا أبدياً قد حل، القمر فيه خائف لا يظهر.

- أنتِ منظمة، إرهابية، تدافعين عن الإرهابيين وتساعديهم. كانت الاتهامات تنهال عليها من كل جانب، كتنقيق الضفادع من حولها لا يهدأ، وهم في مستنقعهم، تفوح منهم رائحة نتنة، لهم ألسنة كالأفاعي وأنياب تلسع تبث بزعافها في كل حين.

أخطبوط ضخم بأذرع كثيرة يجلد جسدها لتحدث، وأي حديث سوى الاعتراف بتهمة التصقت بها بعد أن عثروا على تلك الكتب في غرفتها، دليل قاطع على انتمائها وتأييدها للتنظيم، الذي يُحكم بالإعدام على كل أعضائه، متمسكة بقولها الحقيقة التي لا تعرف سواها، عدا عن أنها لم تقم بالحديث عن المكان الذي حصلت على الكتب منه، وقفزت في ذهنها كذبة صغيرة فقد أخبرتهم بأنها وجدتتها بالقرب من إحدى الحاويات على رصيف



ما، ولم تكن تعرف محتواها ولم تقرأها بعد، ولو علمت بها لكانت سلمتها للنيران.

لم يصدقوها، الصدق في ذاك المكان لا يجد ترحيباً، ولا يجب عليك إلا الاعتراف بما يريدون هم، وما يملوه عليك، بعدها لابد أن تشي بأي أحد حتى ولو كان بريئاً، ومع ذلك لن يشفع لك كل ما تقوله ففي الحاليتين أنت مدان وعليك أن تنال العقاب.

مذكراتها التي أخذوها مع الكتب كانوا يعرضونها عليها صباحاً ومساءً، يجلدونها على كل كلمة فيها حتى يحتج دماغها ويغلق كل منافذ الصحو، فيقومون بسكب الماء فوقها لتصحو، وإن لم تفعل يقومون بصعقتها بالكهرباء، فتنتشر الحروق في جسدها، وحينما يتعب الجلاذ، ترمى في زنانتها جثة هامدة، غائبة في سرمد من فراغ.

الكتابة في تلك البلاد جرمٌ يحاكم عليه القانون، حتى ولو لم تقم بستم أحدهم، يكفي أنك حررت عقلك وقلمك من كل قيد، وعبرت عن رأيك بكل شفافية، ليس ذاك وحسب، بل كتبت ما تراه صادقاً، كان لا بد أن تكذب وتكذب وتكتب للوطن أو أن تكون كاتب تقارير (جاسوساً) حينها يحتفون بك وبقلمك.

وحيدة في زنانتها (المنفردة) في لج الظلام الخائق، لطالما كانت تخشى العتمة والأبواب المغلقة، حتى وضعت أمام مخاوفها لتغدو جزءاً منها، لا يمضي الزمن عليها كما يمر في الخارج، عالقة في اللازمان، لا تملك سوى

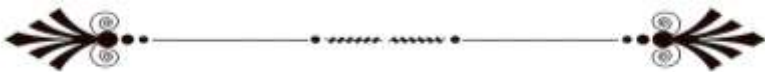


جسدها الذي ترجوه ألا يخونها، لا بشر يؤنسها ولا صوت إلا أصوات صراخ السجانين وتأوهات المعذبين، لا تميز الليل من النهار إلا من حركة العناصر التي تنشط صباحًا وترمي لها بالفطور، ولا تخرج إلا بمواعيد محددة إلى الحمامات والتي كانت تسمى الخط، خشخشة مفاتيح السجان تجعل حواسها تتأهب إن سمعتها في غير تلك المواعيد الروتينية، ما يعني أن وقت الاستجواب قد حان، وجحيم من عذاب ينتظرها.

في غرفة التحقيق، تجلس على ركبتيها معصوبة الأعين ومقيدة اليدين، رائحة سجائر خانقة، صوت خطوات بأحذية عسكرية على الأرض، تتواری خلف الباب الذي كان يُغلق ويُفتح بأنين هو الآخر، ثم يصرخ قبل أن يصمت بعد إغلاقه.

كانت تخشى من ذلك السكون الذي يسبق العاصفة، صوت حفيف أوراق يُنبئها بوجود أحدهم، خطوات تتقدم بجسدٍ نحوها، يقترب منها، رائحة أنفاس مقرزة جعلتها تكتم أنفاسها، تشعر بالغثيان وبرغبة في تقيؤ معدتها الفارغة، يزيح عصابة عينيها ليدخل الضوء واخرًا مؤلمًا، فتغلقيهما وكأنما اعتادت الظلام.

- لا جدوى من كل هذا العنفوان يا جميلة، صمتك لن يفيدك في شيء، وكل الأدلة تثبت إدانتك، لماذا تريدان التستر على رفاقك وعدم مساعدتنا في معرفة مقرهم، ومن هو قائد تنظيمكم، ومنذ متى وأنتم تخططون لتخريب البلاد، هل أخيك مع التنظيم أيضًا، ومتى انضمتم له، لا بد وأنهم غرروا



بكم ودفنوا لكم المال لأجل ذلك، إن اعترفت عليهم سنطلق سراحك، أنا متعاطف معك وأريد مساعدتك.

كانت تنهال عليها الأسئلة كصفعات، دون أن يترك لها مجالاً للإجابة، عيناها تتشبثان في الأرض، على رسوم البلاط العشوائي، يسبر عقلها أسماء الأشكال وكأنه اختبار بأنه ما يزال يحتفظ ببعض المعلومات (مربع، متوازي الأضلاع، مثلث، ذو زوايا كثيرة، أكبر، أصغر، شكلٌ مستديرٌ غائب، أين الدائرة، هل اغتيلت، اعتقلوها، الدائرة، الدائرة) بدأت عيناها تجولان على بلاطات الأرضية تبحثان عنها، صفعة على وجهها جعلت الأرض تدور من حولها، ها هي تدور، لقد عثرت أخيراً على الدائرة، كبيرة جداً تحيط من حولها، مصلوبة في مركزها، مقيدة على أحد أوتارها، يمشي الضابط على محيطها دون توقف، يثرثر كثيراً، يضربها، يركلها، يمسك بشعرها ثم يهوي برأسها على الأرض، الدائرة تتسع، وتزيد من سرعة دورانها، الأرض تعلو وتنخفض من تحتها، تكاد تغيب ثم تصحو وهو يسكب الماء فوقها، تسكن الأرض، ويرن الهاتف، يتركها ليرد على الاتصال فتلتقط أنفاسها التي كادت تنقطع، تشهق وكأنما صب ثلجاً فوقها حينما سمعت باسم أسامة يتلفظ به الضابط بعد محادثة مطولة، لم تفهم منها شيئاً وكأنما أذناها لم تستسيغا من كل الكلام إلا اسم تهوى سماعه، أنهى الاتصال وتقدم نحوها، توسعت حدقتي عينيها لتساعد الأذنين على السماع، حواسها اجتمعت كلها واتحدت لتعين بعضها بعضاً، شفتاه تتحركان، يحاول دماغها أن يترجم

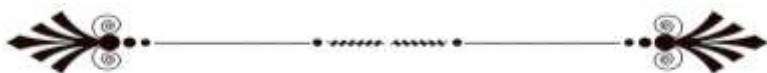


كلماته التي سمعها وأن يستسيغ ما تلفظ به،) أسامة خطيبك يا آفسة، هرب من الخدمة يعني افشق ابن ال..... وانضم إلى الإرهابيين)، ابتسمت في داخلها وكأنما مُنحت سعادة افتقدتها منذ أيام، ولأول مرة منذ اعتقالها تسمع خبراً من الخارج.

تريد له أن يتحدث أكثر، أن تعلم شيئاً عن أهلها، أخيها جهاد، والدها، هل هم بخير أم تم اعتقالهم؟

تابع وكأنما سمع حديث نفسها، (تغير لونك، هل أسعدك ما قام به هذا الخائن) لم تفهم أي لون تغير فيها، وقد بات جسدها لوحة من ألوان داكنة بسبب التعذيب، وربما وجهها أيضاً الذي يؤلمها كلما حاولت التعبير بملاحظتها عن أي شعور يراودها، حتى بات النطق مؤلماً وكذلك الصراخ.

نادى على أحد العناصر الذي دخل على فوره وكأنه اخترق الجدار، طلب منه أن يُحضر أم توفيق في الحال، غاب العنصر بضع دقائق ليأتي برفقة المدعوة التي دخلت بهامتها الطويلة وثيابها النظيفة ولم يكن يبدو على هيئتها أنها معتقلة، أول أنثى تراها في هذا المكان، شعرت بالأنس للحظات، حتى أمر الضابط المرأة أن تسوق مريم إلى الحمام وتقوم بخدمتها دون أن يكمل ما يريده منها، وكأنها رجل آلي ينفذ الأوامر بروتين اعتاده، ساعدتها على النهوض والسير معها، كانت تمسك بذراعها وتخطو ببطء مثلها، لم تكن مريم تستطيع الدوس على قدميها بعد الضرب الذي تعرضت له، ولم تكن تملك حذاءً لأنها خرجت من بيت أهلها بدونه، حتى أنها لم تكن ترتدي



سوى غطاء الصلاة ذا الأكماء الطويلة، وبنطالاً رياضياً ترتديه عادةً في البيت.

أمام الحمام فكت قيد يديها وأمرتها بالدخول، أخبرتها بأنه يوجد ماء ساخن وصابون، وبأنها ستحضر لها ثياباً تركتها إحدى السجينات، كانت مريم تنظر إليها باستغراب، تقرأ في عينيها لطفًا لم تعهده في هذا المكان، ما الذي يحدث وما هذا التغيير في المعاملة، لاحظت المرأة اضطراب مريم وترددها في الدخول، ربتت على كتفها وقالت:

- ادخلي يا ابنتي وحاولي ألا تتأخري، لا تخافي مني فأنا سجينة مثلك.
- لم أكن أعلم بأنه يوجد نساء غيري هنا.
- يوجد الكثيرات، نحن في المهجع في بناء آخر، ربما يضموك إلينا بعد انتهاء التحقيق.

- وهل أنت متهمة أيضًا بالإرهاب؟
- لا أنا هنا منذ سنوات، لقد قتلت زوجي.
ذهلت مريم لما قالته المرأة، وهي تنظر في وجهها وهيئتها، لا يوجد آثار تعذيب عليها أو كدمات، هل يغدو القتل أخف جرمًا من احتواء الكتب، ربما ذلك في بلد العجائب يحدث كل شيء.
- لماذا تطيلين النظر إلي، هيا ادخلي قبل أن تفوتك هذه الفرصة في الاستحمام.

- سؤال أخير، أين نحن، أين يقع هذا المكان.



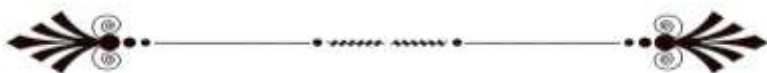
- ألا تستطيعين الصمت، ممنوع أن نتبادل الأحاديث فيما بيننا، إن كشفونا سنتعاقب معاً، هيا ويكفي ثرثرة.

- أرجوكِ أجبيني وسأصمت.

- نحن في دمشق الآن لن أتحدث بأكثر من هذا. قالتها وهي تدفع بها إلى الداخل وتغلق الباب.

دمشق.. أيعقل أن تكون زيارتي الأولى لها إلى أظلم مكان فيها، لا أصدق. لماذا يا وطني تعذب أبناءك، وتقتل الأحلام.

الماء الساخن ينساب على جسدها، ويوخزها كل مكان فيه، تتأمل الكدمات على أطرافها، ولا تستطيع لمسها، البخار يتصاعد من حولها، تذكرت دخان أسامة التي كانت تضجر منه وتبعده عن وجهها، حتى امتنع عن التدخين أمامها، ابتسمت لذكره، أين هو الآن، وكيف استطاع الهرب من الخدمة، ترى أطياف أهلها تتذكر تفاصيلهم، كم مر من الزمن هنا، وكيف حالهم في غيابها، هل يبحثون عنها، هل يقومون بشيء لأجلها، تتمنى ألا يكون قد مسهم سوء، وأن ينجو جهاد من بين أيديهم، كانت تسمع صوت تعذيب الشباب وهي في زنزانتها، تشاهد دماءهم تلتطخ الجدران، قد رأت أحدهم أمامها وهم يقومون بتعذيبه في أول يوم لها هنا، كيف كانوا يضربون رأسه بالحائط حتى تفجر الدم من أنفه، وذات يوم رأت أحدهم معلقاً من يديه وهي ذاهبة إلى الحمامات، حتى تقيأت عصارة معدتها من هول منظره، ومنهم من كان يصرخ طالباً الموت ليرتاح من العذاب، الأمنية التي يتمناها



كل سجين في تلك الأقبية، حينما يغدو الموت رفاهية، يخلع عنه رداء الفاجعة، ليصبح سترًا وعزًّا للإنسان.

دقائق من نعيم عاشتها مع ذكرياتها لتخرج بها أم توفيق إلى زنانتها، لترى العذاب بأقصى صورته ماثلاً أمامها حينما لمحت جثة شاب غارقة بالدماء تُسحل على الأرض، ويرمون به في إحدى الزنازين بين الأحياء، لتصحو على واقعها الذي لا نجاة منه، فتتمنى أن تعود للهيذان أو فقدان الوعي.

ساعة مرت ليقودها أحد السجناء إلى غرفة التحقيق ذاتها، بعد أن قيد يديها إلى خلف ظهرها، ووضع عصبة على عينيها، لتتيقن أن رحلة من عذاب جديدة ستعيشها، وتلك الدقائق التي مُنحت لها، ليست سوى هدنة صغيرة استعدادًا لمصائب أكبر.

- ألا تريد الاعتراف؟

- بماذا سأعترف؟

- لا بد أن أعصاك استرخت بعد هذا الحمام الساخن، لقد عشت نعيمًا لا يُمنح لأحد في هذا المكان، وأعتقد بأنك الآن ستتحدثين عن كل شيء.

- عن أي شيء سأحدث؟

لأول مرة تشعر بالقوة، لم تعد تخاف من شيء، أسامة لم يعد في خدمتهم، ولا تخشى أن يضغطوا عليها به، أن تكون الضحية وحدها لتبعد عن أهلها كل سوء، بات الموت شيئًا تتمناه لترتاح من كل هذا العذاب.

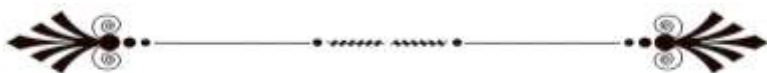


اقترب منها حتى باتت أنفاسه القذرة تلوث الهواء الذي تتنفسه، ثم همس لها ويده تتحرش بجسدها وهي تحاول الابتعاد وتراجع إلى الخلف حتى ارتطمت بالحائط ووقفت.

- اعترفي بانضمامك إلى الإخوان، الكتب التي كانت في حوزتك لا يقتنيها سوى اخونجي، سجلك مليء بالتهم، من الدفاع عن الإرهابيين، إلى التستر عنهم، وخيانة الوطن من أعظم التهم، وكلها تقودك إلى الإعدام، ربما إن اعترفت تخفف عنك الحكم، إن استطعنا الوصول إلى أعضاء التنظيم الآخرين، وقمت بمساعدتنا واستدراجهم، تكونين قد حفظت حياتك، ها.. ماذا تقولين؟

- لا شيء لدي لأقوله، من أين اخترع لكم الأسماء، لست منظمة لأي حزب سوى حزب البعث خاصتكم، وبإمكانكم التحري عن ذلك. ضحك ساخرًا من جوابها، شعرت بخطواته تبتعد عنها، فأخذت نفسًا عميقًا، لتسترق من الهواء ذرات خالية من أنفاسه، ما لبثت أن اشتمت رائحة دخان سجائر فيما يبدو أنه أشعل سيجارة وعاد للاقترب منها، وبدأ يلوث الهواء الذي تتنفسه.

- شيء بديهي أن تكوني منتسبة للحزب القائد هنا، لأن معظمكم ينتمي له رغماً عنكم، وهذا معروف وبديهي، لذا اخرجي من هذه الأبواب وأجيبي على سؤالي دون لف أو دوران.



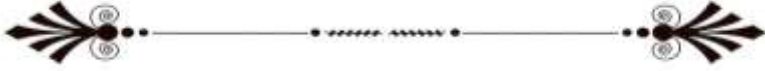
- لم أقم بأي فعل يضر بالوطن، وتلك الكتب وجدتها في الشارع ولا أعرف محتواها، لو كنت على علم لرميتها في القمامة، وما كنت أكتبه كان مجرد رأي لا أكثر، أكتبه لنفسي ولم يطلع عليه أحد، ألا يستطيع أحد أن يمتلك حرية رأي هنا؟، أين الديمقراطية التي علمتمونا إياها في المدارس؟ وكنا نردها في شعاراتنا كل صباح؟
- تقولين حرية، أتريدين الحرية؟
- لا تقتطع من كلامي كلمة واحدة، وتدينني عليها.
- أنتِ محامية ولا أتعجب من أجوبتك، ألا تحجلين من نفسك أن تخوني الوطن بعد أن علمك ومنحك هذه الشهادة؟
- تعلمت بتعبي وجهدي.
- أتنكرين فضل الوطن عليكِ يا خائنة؟
- لا أنكر فضل الوطن، وحيي له لا يقل عن حيي لأهلي، لكن الوطن لا يُحصر في شخص أو حزب.
- إذن تعترفين بوجود أحزاب أخرى وهذا يدينك.
- ليس اعترافاً لكنها وجهة نظر.
- أمسك بشعرها وشدها به إلى الخلف، ثم أطفأ سيجارته على رقبتها، فتأوهت تكتم صرختها.



- الوطن علمك وعلم عائلتك وخطيبك، ما حصلتُم عليه يحلم به غيركم حلمًا، بالفعل لا تستحقون ومكانكم في زريبة حيوانات.
لم تستطع النطق وهو محكم بقبضته على رقبتها، يكاد أن يخنقها، لم تشعر إلا ويديه تنزع ثيابها عن جسدها، حاولت المقاومة، لكنها مقيدة، فرمى بها على الأرض.

- لا تقترب مني، الموت أشرف من أن تمس جسدي.
- سأقدم هدية صغيرة لخطيبك، وأعلمه كيف تكون الرجولة، لأنه ليس رجلًا، ثم إن الكلام معك لا يجدي نفعًا، ولا تفهمين بالمعاملة الحسنة.
ضربها بحزامه الذي فكه عن خصره، فتلوت ألمًا، انقض عليها يمزق ثيابها، وهي كالسمكة التي خرجت من الماء تتلوى تحته وتحاول إبعاده عنها، حتى ثبت قدميها بكلتا يديه ولم تعد تستطيع الحراك، كان جسدها ضعيفًا يؤلمها كل شبر فيه.

في ظلام حالك هوت، بفستان عرسها الذي تلطخ بالدماء، في قاع بئر مليء بالأفاعي والوحوش تنهش جسدها، تصرخ ويرتد لها صوتها دون أن يسمعها أحد، تحاول أن تتسلق بأظافرها جدار البئر، لكن الأفاعي تلتف على قدميها وتعاود سحبها، لا قافلة تمر ترمي لها بدلوها، ولا نخلة تهزها فترمي عليها برطبها، ولا معجزة ترفعها إلى السماء، أي زمن هذا الذي ولدنا فيه،



يستبيحون حياة الإنسان على هواهم، يغتصبون أحلامه قبل جسده،
يقطعون لسانه ويريدون منه أن يهتف للوطن.
تركها جثة غارقة بدمائها تنن، وهو يخور كثور مصارعة، نادى على أحد
العناصر ليجرها إلى زنازنتها، وأمرهم أن يبقوها تحت المراقبة حتى يبت في
أمرها.



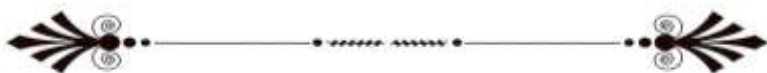
(3)

هناك في الخارج حيث السجن الأكبر، في منزل أبي جهاد، كانت العائلة تعيش حزنها وخوفها على مريم، حين عودة جهاد وأبيه إلى البيت، بعد اتصال نور بهم، وتحذيراتها بألا يكونوا قد نصبوا له كمينًا في الحي لاعتقاله، عادوا بعد أن تجاوزوا الحي وعبروا عبر البيوت التي فتحت جدرانًا بين بعضها البعض لتسهيل عبور المطلوبين وعدم تعرضهم للاعتقال، تمنى جهاد لو أنه لم يغادر البيت في تلك الساعة، ولو اعتقلوه بدلًا عن مريم، كان يلوم نفسه كثيرًا، ويلومها على اقتنائها لتلك الكتب التي أودت بها بين أيديهم، واعتبروه عارًا قد لحق بهم.

العائلات التي لديها معتقلين من كلا الجنسين يتحفظون دائمًا عن الحديث عن ابنتهم المعتقلة، خشية من كلام الناس، حتى ولو خرجت ونالت حريتها، تبقى عالقة في ألسنتهم، لا أحد يسألها كم تألمت، وكيف تعذبت، بل كان سؤالهم الأول لها، هل مس أحدهم جسدك؟

في تلك البيئة المحافظة يعرف الأمن جيدًا ما يعنيه هذا الأمر للأهالي، فكانت وسيلتهم في الضغط عليهم لإسكات صوته، وردعهم عن متابعة الطريق الذي مشوا فيه لنيل الحرية.

الكثير من أهالي حمص فضلت ترك بيوتها وغادروا المدينة إلى المناطق الهادئة للحفاظ على بناتهم، وليس خوفًا من الموت أو الجوع، وبقي أهالي



المنشقين والمطلوبين محاصرين في بيوتهم رفضوا التخلي عن المدينة، أو التراجع عن مطالبهم.

كان الشهداء يتساقطون كأوراق الخريف الذي حل، في كل اشتباك أو مواجهة، وكانوا يروون بدمائهم الشوارع التي تختلط مع قطرات المطر، وتفوح رائحة الأرض الزكية.

التحق أسامة مع المسعفين في المشافي الميدانية في حي بابا عمر، بعدما استطاع التسلسل إليه بمساعدة أحدهم، حينما غادر المشفى العسكري في إجازة مرضية وأقام في بيته عدة أيام حتى خطط للطريقة التي سيهرب فيها.

(لأجل عيونك يا مريم لن أبقى مع هذا الجيش الذي يقتل أهلنا)
عاهد نفسه أن يقوم بخدمة الجرحى من الأهالي، حتى ولو كلفه الأمر روحه، فلا حياة من بعد مريم تحلوه.

(إن خرجت ووجدتني شهيداً، زغردي، وارتي فستان الزفاف حينما تزورين قبري)

كان يكتب على قصاصات من ورق ويحتفظ بها في جيبه، ويوصي بها أن تسلم لمريم إن نال الشهادة.

(ارفعي رأسك، لا تهني ولا تحزني، كوني فخورة بي وبنفسك)
لم تكن تغيب عن خياله، يؤلمه حالها، يتخيل ما يمكن أن تتعرض له، يعرف جيداً كم هي رقيقة وحساسة، كيف لجسدها أن يقاوم العذاب،

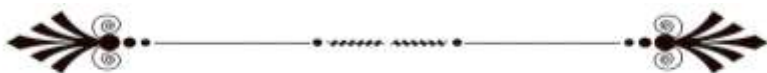


يتمنى لوأنه عصفور يستطيع الوصول إليها ويحملها على جناحيه ويخلق بها بعيداً، يضمد لها جراحها بماء العين، ويخبئها بين ضلوعه بعيداً عن كل خوف.

لا يجدي الندم نفعاً، ولا يمكن للأيام التي ذهبت أن تعود، لو أنه تزوجها وسافر بها بعيداً إلى بلاد لا تعرف الحروب، لا يليق بمريم سوى الزهور، وسماء واسعة خالية من كل كدر، لا شيء سوى الطيور تحلق والفرشات، والأرض يتفجر منها الماء والشجر، يركضان على عشب أخضر في مرج من هناء، يلعبان يضحكان، يزين شعرها بالأقحوان.

حزن نور على مريم، جعلها تعود إلى قوقعتها التي ما لبثت أن خرجت منها حتى عادت إليها، سيدرا لم تعد تلك الفتاة الضاحكة، والتي تثرثر كثيراً، فقد حلّ عليها الصمت بعد اختفاء عامر، وأبو جهاد أغلق دكانه ولم يعد يستطيع الذهاب إليه، وقد تدهورت صحته كثيراً، زوجته التي لم تعد تغادر ركن صلاتها طوال الليل، تناجي الله لأجل مريم.

جهاد حمل السلاح، وبات مرابطاً مع رفاقه للدفاع عن الحي، على الرغم من توسلات أهله أن يغادروا المدينة جميعاً، إلا أنه رفض التخلي عن الثورة وأهدافها.



وما يزال وليد يخفف عن نور باتصالاته وحديثه، والذي انخرط هو الآخر بصفوف المحتجين، يوصل الدواء والطعام لهم ما استطاع. في الحروب أنت لا تعيش، بل تمضي الأيام عبثًا، تستيقظ صباحًا شاكرًا الله على بقائك حيًا، عيونك تتطلع نحو السماء إلى أرواح الراحلين، وأنين المغيبين، لا تعلم أي معجزة ستحل لتنتهي هذا الألم.

في يوم من تلك الأيام المتشابهة، ورد سيدرا اتصالًا من عمها المقيم في لبنان، يحثها على المجيء إليهم، ويعاهدها أن يقوم ما بوسعه لإنقاذ عامر وإخلاء سبيله، حتى ولو كلفه الأمر دفع الكثير من الأموال، فقد كان عمها ميسور الحال كريمًا، وقد حاول سابقًا أن يضم سيدرا إلى عائلته بعد وفاة والديها، إلا أنها رفضت التخلي عن منزل أهلها وذكرياتهم، والابتعاد عن عامر الذي لم يبقَ لها في هذه الدنيا سواه.

المحامي الذي وكتته مريم قبل اعتقالها لأجل مساعدة عامر، تبني قضيتها هي الأخرى، استطاع الوصول لمكان عامر حيث وجدته في سجن البالونة في حمص، ومبلغ من المال بإمكانه إخلاء سبيله، فقد كثر مثل هذا الأمر في تلك الآونة، على الرغم من فشل البعض في إنقاذ أبنائهم بعد دفع المال لأجلهم، إلا أنه لم يجد سبيلًا للوصول لمكان مريم وكأن الأرض انشقت وابتلعته.



هناك في الطابق السادس تحت الأرض تقيم مريم، بين الجثث العارية
المعلقة النازفة، بين الصرخات ونداءات الاستغاثة، بين الظلام والظالمين، لا
أحد يخيل له بوجود مكان كهذا في سورية، متى تم بناءؤه، وكيف أعدوا العدة
له، ومن أين لهم بكل تلك الوحشية التي يمارسونها على السجناء، رجالاً
ونساءً وحتى أطفالاً، العذاب واحد لأن السجّان واحد، يمارس ساديته على
الجميع دون استثناء، فتمتزج دماؤهم وتجري كساقية في الممر الطويل
لتصب في ساحة السجن.

(4)

إلى هواة روايات الرعب، لا داعي لقراءة الخيال، فهناك في الحقيقة ما ترتعد له أوصالكُم، ويشيب له شعر رأسكُم، وما يفوق الخيال وحشية ورعباً، استمع فقط لقصة أحد الناجين من هناك وسيحدثك بهول ما عاناه، حتى أنك لن تصدق كيف خرج حياً، سيُريك الندوب التي تركتها الشياطين على جسده، والحروق التي خلفتها أعقاب سجائرهم والصعق بالكهرباء، سيُريك أظافره كيف اقتلعت، وتلك الفراغات في فمه التي خلفتها أسنانه التي تكسرت، سيحدثك كيف شاهد العيون تُفقا، والأذرع تُقطع، والبطون تُبقر، سيصف لك كيف يكون التشريح، ويحكى لك عن الدولاب، وسيختنق حينما يروي لك عن الذين ماتوا وهم على الخوازيق، ستجد كل أنواع قصص الرعب التي لن يصدقها عقلك، ولم تقم أفلام هوليوود بعرض فظاعتها، ولا تخيل شناعتها، الخارج من هناك، إن نجا بعقله، سيحدثك، فانصت له بكل ما استطعت من صبر.

أدراج كثيرة نزلتها، ممر طويل مظلم على جانبيه غرف كثيرة، أبوابها حديدية لكل باب نافذة صغيرة من قضبان، تطل منها عيون خائفة، فتح السجن باب إحداها ودفع مريم إلى الداخل، ثم أغلقه، غرفة صغيرة فيها وجوه كثيرة، كانت كلها تنظر نحو مريم التي كانت تجر بساقيها وتنظر إليهن بصمت، وجوه مكسورة ذليلة، أرهقها العذاب والجوع، اتخذت لها مكاناً بجانب إحداهن، بعدما حاولت أن تترك لها فراغاً تضع فيه جسدها المنهك،

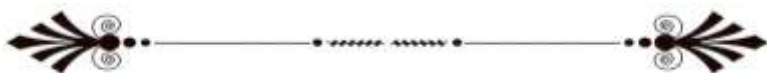


التصقت بالجدار الذي كان يئن، العفن يكسوه ويتسلقه حتى السقف، الأرض باردة لزجة، ورائحة الصديد والأنفاس خانقة.

كانت أكثر من سبعين امرأة في تلك الغرفة، لكل واحدة منهن قصة، التهم تشابهت والعذاب واحد، إحداهن كانت تلف نفسها بالغطاء حتى لم يظهر شيء منها، ساكنة دون حراك، وأخرى تمددت على الأرض بين أقدام النساء، على ملامحها لون الموت، وثالثة تلوح برأسها يميناً ويساراً وكأنها في حلقة ذكر، ورابعة تبكي وتلطم على وجهها وتفرك أنفها بثياب الأخريات وحتى أقدامهن وهي تصرخ (أريد أن تذهب رائحته من أنفي)، وخامسة وسادسة وو، شعرت مريم وكأنها دخلت إلى غرفة في مصح عقلي، الجنون يخلق فوق الرؤوس من هول ما رأين، ولم تكن أحسن حال منهن، تمت أن تفقد عقلها لتنسى.

تتفحص وجوههن وتقرأ في كل وجه حكاية، حتى جاءت عينيها في إحداهن تبادلهما النظرات، شعرت أنها تعرف تلك الملامح، وأنها رأتها من قبل، وذات الأسئلة كانت تدور في رأس الأخرى، حتى نهضت من مكانها وتقدمت نحو مريم، ترفع قدميها كي لا تدوس النساء الأخريات، حتى وصلت وجلست أمامها.

صرخت الفتاة باسم مريم وهي تحتضنها وتبكي على كتفها، ضمتها بدورها وهي تبكي دون أن تتعرف عليها بعد، كانت بحاجة إلى حضن ترتمي إليه، بعد تلك الأيام التي عاشتها في ذاك الجحيم، بكّت النساء اللوات يحطن



بهن، بكين كثيرًا، وكأنهن كنّ بحاجة لسبب لبيكين لأجله، وكل شيء في ذلك المكان كان يبكي حتى الجدران، رفعت رأسها الفتاة وتأملت وجه مريم، ثم سألتها بصوت مخنوق:

- ألم تعرفيني يا مريم؟

كانت ذاكرة مريم تتأرجح تحاول أن تتذكر ذاك الوجه الذي كان مألوفًا جدًا، ولكن ملامح التعب والعذاب قد منعتها من معرفتها، وتورم وجهها وعينها من الضرب لا يعينها على فتحها جيدًا.

- أعرفك، أعتقد بأنني أعرفك جيدًا، لكني لا أستطيع أن أتذكر، أشعر بأن ذاكرتي لا تسعفني، وكأنني فقدت جزءًا منها.

- الحق معك، من يدخل إلى هذا المكان، يكون محظوظًا إن لم يفقد عقله.

- على العكس محظوظ جدًا، ما حاجتنا لعقلنا وذاكراتنا بعد الآن.

- صحيح، ستكون الذاكرة حينها لعنة، تجلد صاحبها.

- أشعر بأن عينيك أعادتني إلى حمص، المكان الوحيد الذي لا أتمنى أن يمسح من الذاكرة.

- أنا راما يا مريم، راما صديقة نور.

ذهلت مريم لما سمعته، وبدأت تتأمل وجه راما الذي تغير كثيرًا، سألتها باستغراب:

- ما الذي تفعلينه هنا يا راما، وما هي تهمتك.

ابتسمت راما وهي تمسح دمعة نفرت من عينها:

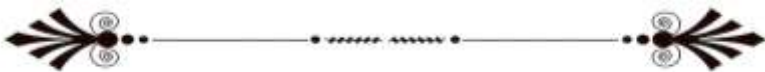


- إن كانت تهمتك خيانة الوطن، فأنا تهمتي خيانة الطائفة، لست وحدي هنا انظري من حولك، رشا، هبة، شذا، نغم، وتلك وتلك. كانت تعد أسماء البنات وتشير نحوهن.

-كلنا هنا بنفس التهمة، نحن من أبناء طائفة الرئيس، كنت أظن بأن طائفتنا قد تشفع لنا، عبرت عن رأيي دون كذب، وكتبت على صفحات الفيس بوك ما أراه، لم أستطع تحمل ما يحدث في حمص وفي سوريا، كنت أرى بعيني لا أريد لأحد أن يخبرني، اعتقلت على باب الكلية بعدما ذهبت لتقديم الامتحان التكميلي، لقد وشى أحدهم بي، وسيق بي إلى الفرع ثم إلى هذا السجن، تلقيت نفس التعذيب التي عانته كل امرأة هنا وربما أشد.

طرقات السجن على الباب قطع حديثها، وأطل من النافذة التي تعلو الباب، ثم صرخ بصوته الأجش، (يكفي ثرثرة) اقتربت راما من مريم أكثر وحاولت أن تزيع لها مكانًا بجانبها لتأنس بها، وضعت رأسها على كتف مريم، ثم عم الصمت.

تمر الأيام حالكة، لا يُعرف فيها ليل من نهار، سوى تعاقب جلسات التعذيب التي تتعرض لها النساء، آنست مريم بوجودها في المهجع، وازدادت أنسًا بوجود راما، وكانت من بين المعتقلات امرأة كبيرة في السن تدعى حسنة تنحدر من محافظة درعا التي اشتعلت فيها الشرارة الأولى للثورة، كانت أكثرهن صبرًا وجلدًا، تحادثهن وترفع من معنوياتهن، رأت فيها مريم دفء أمها وحنانها، وكن جميعًا ينادينها أمي، ليعوضن الحنان الذي افتقدن،



تداوي جراحهن بالماء والملح، الذي كان يسرب إليهن محشواً بالسجائر بدل التبغ، يرميه إليهن أحد السجانين الذي مازال يحتفظ في قلبه على شيء من الرحمة، أثناء ساعات التفتيش، فتلتقطها إحدى الفتيات على الفور.

لا بد للحديث عمّن في الخارج، يعدن إلى أنفسهن ذكريات مضت، تحلم كل واحدة منهن أن تعود للقاء أبنائها وأهلها، جذبت راما رأس مريم نحوها، وسألته عن نور، أخبرتها بأنها حاولت الوصول إليها كثيراً، لكن هاتفها كان مغلقاً، حتى خشيت عليها أن تكون قد اعتقلت.

أخبرتها أنها مرت بفترة اكتئاب بعد انتهاء الامتحانات، وكانت تلازم غرفتها طويلاً، حدثتها عن سيدرا وكيف استطاعت بروحها المرحّة أن تخرج نور من قوقعتها، أما الآن فهي لا تعلم شيئاً عن عائلتها، ولا عما حلّ بهم في غيابها.

اختلجت الكلمات في حنجرة راما، ودمعت عيناها، ثم تحدثت بصوت مخنوق:

- أتمنى أن تسامحي نور، أعتقد بأنها لم تخبر أحداً بما حلّ بها.
- وما الذي حدث مع نور، ولماذا تريدان أن تسامحا.
- سأحدثك بكل شيء، أرجوك أن تسامحيني لما ستسمعينه، الموت قريب جداً، ولا أريد أن أموت قبل أن تغفر لي نور، لقد نلت عقاباً عما فعلته، وشربت من ذات الكأس.



اضطربت مريم لما سمعته من راما، وألحت عليها أن تتحدث بدون مقدمات، بدأت راما بالحديث منذ أن تعرفت نور على وليد وقصتها معه، إلى ذلك اليوم المشؤوم الذي قادت فيه نور إلى بيت مجد وقام باغتصابها بعد تنويمها، أقسمت لها بأنها لم تكن تعلم بما خططه لها مجد، ولم تكن تريد أن تتأذى نور، حبها لمجد قد أعمى بصيرتها عن الشر الكامن داخله، واعتقدت بفعلها أنها ستنال قلب مجد وتحظى بالزواج منه بعد أن خدعها وكذب عليها، وحينما علمت بما قام به أخبرت وليد باتصال هاتفي لأنه الوحيد الذي يمكن له أن يقف مع نور في مصيبتها، وقد زفت له خبر مقتل مجد في إحدى المواجهات مع المتظاهرين، كي يبرد قلبه.

بدأت مريم تضرب رأسها بالحائط، وتلطم على وجهها، تحاول راما أن تحتضنها وتهديئها، اختلطت دموعهما معاً، وقد اعتقدت الحاضرات بأنها سمعت بخبر وفاة أحد أهلها، حتى أن إحداهن قدمت لها الغزاء.

- لقد أصبحنا مصيبتين حلنا على رأس أهلي، ربما يغيبني الموت هنا لكن أختي نور، إن علم أحد ستكون فضيحة.

-أهدي أرجوك يا مريم، منذ قابلتك هنا وأنا أريد أن أحكي لك، ضميري يؤنبني كثيراً، ولا أريد أن أموت قبل أن تغفروا لي.

بكت مريم كثيراً، حتى تورمت عيناها، تمددت بجسدها المنهك بجانب الجدار، وسلبها النوم الذي لم يكن يزور عينيها إلا إرهاقاً ولدقائق قليلة، بجوارها راما وفوق رأسها كانت تجلس حسنة تمسح على شعرها، وتدعو لها.

كانت الاشتباكات في المدينة بين كر وفر، الليل فيه يعزف سمفونية من أصوات الرصاص والمدافع، وينشد أغنية الموت، الصبح يأتي واجماً مكبلاً كل ملامح الحياة، استطاعت سيدرا السفر إلى لبنان بمساعدة الشباب الذين تدبروا لها طريقاً للخروج من المدينة، ودخلت لبنان بعد دفع المال للضابط على الحدود، بعد أن وفي عمها بوعده واستطاع إطلاق سراح عامر بعد دفع فدية له وإحضاره إلى لبنان أيضاً، تمت لو أنها تستطيع النهوض على قدميها لذهبت إليه مشياً، لو أنها تملك جناحين لحلقت في السماء، سعادتها بخروجه كانت بحجم الكون، فرح لأجله جهاد وأهله، وودعوا سيدرا بدموع مختلطة بين حزن وفرح، فقد كان لوجودها بينهم أثر جميل، وغيابها سيترك فراغاً موحشاً كما فعله غياب مريم.

تتسلل السعادة كضوء شميسٍ تخرق أدق الثقوب، لتكسر عتمة الحزن وتزيحه ولو قليلاً، تمنح للنفوس هدنة وتعيد إليها الأمل في الحياة، يحاول السكان أن يمارسوا حياتهم بشكل طبيعي، وأن يعاندوا الأيام على الاستمرار فيها.

المطر يطرق بأنامله النوافذ، ويسقي عطش النفوس الكسيرة، تفوح رائحة الأرض الزكية، تبلل أجنحة الطيور التي بدأت بالهجرة تبحث عن مأوى جديد، تبقى عصافير الدوري في أعشاشها لا تغادر، تقتات على ما تجده من فتات في الأزقة وعلى الشرفات، تنشد أغنية الصباح على أوتار من شجن.

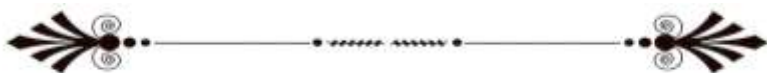


صادقت نور العصافير وكانت تترك لهم فتات الخبز على شرفتها، لتسعد برؤيتهم وهم يتقافزون فرحاً، فترسمهم على دفتها وتلون أجنحتهم بألوان قوس قزح، تحادثهم وتوصيهم بمريم، دون أن تعلم بأن الطيور لا يمكن لها أن تصل حيث تقيم، حتى الشمس لا تشرق هناك، ولا سماء في تلك الأرض السابعة.

اشتقت مريم للعصافير، للزهور في بيتها، لحجارة الحي وجدرانها، كانت تحشى الظلام، حتى بات ملازمًا لها، اشتاقت لدفع أمها، لأسامة الذي ما إن تذكره حتى تدمع عيناها، وتطلب منه أن يسامحها، فستان الزفاف الذي كان ينتظرها قد بات ملطخًا بالدم، الأحلام التي رسمتها باتت كوابيسًا، الأطفال الذين كانت تحلم بإنجابهم دفنتهم قبل أن يولدوا، النساء اللواتي كانت تسعى للدفاع عنهن باتت واحدةً منهن، أمنيتها الموت عاجلاً غير آجل، فالموت في تلك الأقبية ستر ونجاة.

طرق الباب السجان ودخل إليهن وهن في جلستهن، اضطربت القلوب لما قد يأتي لأجله، انكمشت النساء على بعضها خشية أن يأخذ إحداهن إلى التعذيب، أو إلى الأعلى حيث يقوم الضابط هناك باغتصابهن، فالكل يدعين أن يسقن إلى جلسات التعذيب ولا يصعدن إليه، وقف ينظر إليهن ثم صرخ بصوته:

- راما الأحمد.



- نهضت فزعة من مكانها ثم عاودت الجلوس ومسكت بيد مريم وهي ترتعد.
- لمي أغراضك وهيا معي.
 - لماذا، ما الأمر.
 - الضابط يريدك، إخلاء سبيل.
- قفز قلبها من مكانها لما سمعته، ولم تصدق ما قاله، ابتسمن لها الحاضرات وحثنها على النهوض.
- نظرت إلى مريم وعيناها تدمع.
- ربما استطاع أهلي أن يفعلوا شيئاً لأجلي، لا أصدق بأني سأخرج من هذا المكان، سأحاول ما بوسعي لمساعدتك يا مريم، لتتالي حريتك أنتِ أيضاً.
 - لا تفعلي شيئاً، لي وصية أريد أن توصلها لأهلي، إن كان يهكم أمري بالفعل وأمر أختي نور، أرجو أن تنفذي وصيتي بالحرف الواحد.
 - ما هي وصيتك يا مريم أخبريني.
 - عديني أولاً.
 - أعدك.
 - قولي لهم بأن مريم قد ماتت.
 - ما هذا الهراء؟
- صرخ السجان غاضباً:
- ليس وقت الحديث الآن، هيا امشي معي، وإن أعجبتك الإقامة هنا والثرثرة لا بأس ابقِ هنا.



دفعتها مريم للذهاب مع السجنان، وهي تقول لها:

- لا تضيعي الوقت هيا اذهبي، وأرجوك ان تنفذي وصيتي بحق الله.

هزت رأسها راما وهي خارجة، ودعتها النساء ودعين لها، والفرح قد غمرهن لأجلها، كانت تمسك بيد مريم لا تريد إفلاتها، تنتظر منها أن تنطق غير هذه الوصية.

- لأجل أهلي، سيكون موتي أرحم لهم من انتظاري، ومن العار الذي سأخرج به من هذا المكان.

سحبها السجنان من يدها ودفع بها إلى الخارج وأغلق الباب الحديدي الذي أصدر صوتًا قويًا، ارتد صدهاء في الممر الطويل الذي سارت به راما وسمعه كل من في الزنازين.

خرجت راما بعدما دفع لها أهلها الكثير من المال وتواسطوا لها عند أحد الضباط، هناك لا محكمة تصدر عفوًا، ولا تثبت جرمًا، فإما أن تحكم وتُعدم وأنت بريء، أو تمضي أعوامًا في ذاك الظلام تنتظر قدرك، أو تموت بين أيديهم في جلسة تعذيب، فالداخل إلى هناك مفقود، والخارج منه مولود.

لا شيء يجعل للحياة معنى بعد أن تفقد كل تملك، تذكرت مريم سلمى التي حكمت بالموت على نفسها وهي على قيد الحياة، تذكرت كل النساء اللواتي حكم القدر بموتهن ظلمًا، وبالشرف الذي حصره المجتمع بجسدهن، لماذا ننتقم من الضحية ولا نلوم الجلاد، تذكرت كلام جهاد ونظرته للنساء



المعتقلات، لماذا تعذب أهلها بحالها الذي تعرضت له، وبحياتها التي ممكن أن تعيشها إن هي خرجت إليهم، لن تهدي أسامة جسداً قد كشفه أحد غيره، جسد منهك وروح استنزفت كل ما لديها، فالموت أرحم من ذلك بكثير.

اشتد مرض أبو جهاد، ولا إمكانية لنقله إلى المشفى خشية من الاعتقال، تجلس زوجته فوق رأسه وهي تقرأ له القرآن على نية الشفاء، تجلس نور تحت قديمة باكية، يحاول جهاد أن يبحث له عن طبيب ميداني عله يقدم له العلاج لكن دون جدوى، فإن حضر الطبيب لا يتوفر الدواء إلا بشق الأنفس، لاشيء سوى عناية الله ترعاه، أثقله المرض حزناً على مريم، وعلى عدم قدرته للذهاب إلى دكانه، أحوالهم المادية بدأت تتدهور بعد أن توقف عمله، ودفع الكثير من المال لأجل معرفة مكان مريم، بعدما وكل لها المحامي الذي كانت تتدرب عنده، حتى توقف المحامي عن عملية البحث بعدما تعرض للتهديد والابتزاز، فقرر ترك المدينة إلى غير رجعة.

أما عادت إلى بيت أهلها، المكان الذي شعرت بأنه سجن آخر، بكثير من الندوب الجسدية والنفسية، تحاول إخفاءها عن أعين النساء التي تزورها للاطمئنان عنها ولسؤالها عن أبنائهن، بعدما عُرف عن العائلة تأييدها للثورة ووقوفها بجانب المحتجين، رغم اعتراض أهلها على زيارتهم ومحاولتهم في عدم مقابلتها لأي أحد.

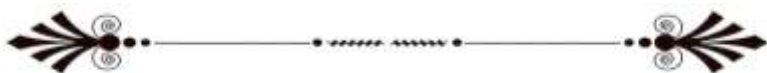


في السجن كان هناك جدار فاصل بين مهجع النساء والرجال، يستطيعون بعد أن ينام الحراس في التواصل عبر الجدران، فالليل هناك حكاية أخرى، يصنعون فيه دفنًا خاصًا بهم، يكسرون به برودة الطقس ووحشة المكان، يطرقون على الجدران طرقات لا يفهمها سوى المعتقلون، استعانوا بثقوب التمديدات الكهربائية غير المكتملة للحديث بوضوح أكثر، وتستمر الأحاديث فيما بينهم لساعات طويلة حتى الصباح، ثم يغلقونه بقطعة قماش صغيرة وتجلس إحداهن وتخفيه خلفها خشية أن يكتشفهم الحراس.

كانت إحدى النساء تتحدث عن العائلات التي لديها مفقودين، وذكرت أمام راما عائلة أبي جهاد، حيث أنها كانت تزورهم من وقت إلى آخر، إلى أن انقطع الطريق وحوصر الحي ولم تعد تستطيع الوصول إليهم، فسألت راما عن مريم، إن كانت قد رأتها أو سمعت شيئًا عنها، لم تجب راما بداية الأمر، وتمنت لو لم تكن إحداهن تعرف مريم أو تسأل عنها، لم تكن تنوي أن توصل تلك الأمانة التي رمتها مريم على عاتقها، ولا أن تتحدث لأحد أنها رأتها، صمتت لبرهة ودمعت عيناها، ثم قالت للمرأة:

- كانت مريم معي في ذات المهجع، تعذبت كثيرًا رحمة الله عليها. شهقت المرأة حينما سمعت كلامها وضربت على صدرها وبدأت تولول وهي تقول:

- يا خسارة يا مريم صبية مثل الورد، يا وجع قلب أهلك عليك.



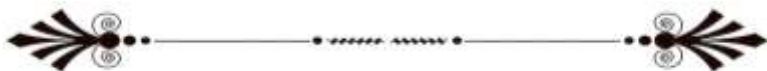
صمتت راما ناضرةً للمرأة وهي تبكي وتندب، في قرارة نفسها قالت:
- أنا لم أقل إنها ماتت، فالرحمة تجوز على الميت والحي، لا أستطيع نطق هذه
الكلمة ومريم على قيد الحياة، لا بد بأن المهمة قد تمت بوجود هذه المرأة ولن
أتحدث بأكثر من هذا.

مسحت المرأة عينيها بطرف ثوبها وهي تشهق وبدأت تسأل راما:
- إن شاء الله يا ابنتي لم يقترب منك أحد هناك.
شعرت راما بأن المرأة تريد منها كلامًا لتلت به وتعجن، ما يهمها في أن
تعرف ما حل بهن هناك، ألا يكفي ما تعرضن له من ألم، ألا تهما كل تلك
الندوب على جسدها، وكل قصص العذاب التي روتها، ما يهمها إن خرجت
برتق نفسي أو جسدي، ألا تعلم بأنهم اغتصبوا إنسانيتها قبل جسدها،
جردوها من كونها إنسانًا وغدت خرقة بالية يمسحون بها أرض السجن
القدرة، عزلوها عن كونها أم وأخت وزوجة، أبعدوها عن دنياها وعالمها،
حتى غدت كائنًا يصارع لأجل البقاء فقط، أتستطيع أن تضمد لها جراحها
جميعًا، وتنسيها مرارة السجن وظلمته؟ أدركت بأن مريم على صواب حينما
حكمت على نفسها بالموت وليتحدث الناس عن خبر وفاتها خير لها من أن
تتعرض لقباحة هذا المجتمع وأسئلته.



حرمها أهلها من العودة إلى الجامعة، وقاموا بحرق كتبها، وعزلوها عن العالم الخارجي ليواروها عن أعين أقربائهم الموالين، حتى بدأوا يهيئون لها طريقاً لأجل السفر إلى الخارج، الدمار النفسي الذي عاشته خارج السجن ورفضها للسفر قادها لإنهاء حياتها بعد تناولها لجرعة كبيرة من سم الفئران.¹

¹ (أحداث سجن النساء مقتبسة عن شهادات ناجيات، وعن كتاب نيغاتيف من ذاكرة المعتقلات)



الفصل السابع

(1)

الشمس تتسلل بأشعتها الواهنة من بين الغيوم، تمد أذرعتها إلى جبين الأرض، لتمسح عنها حبات المطر التي استمرت في الهطول منذ الصباح، اندمج الشعاع مع القطرات فازدادت لمعاناً، وبانعكاس جميل لها في السماء ظهر قوس قزح، لفت المشهد نور وسحرته الألوان، التقطت هاتفها المحمول وبدأت تصور السماء، الشباب ومن بينهم جهاد يتجمعون في الحي، تنظر إليهم ثم ضغطت على زر التسجيل، تحلم بالزهور تنبت بينهم، وبأهازيج الفرح تحلق فوقهم، بالنصر الموعود، والحرية المنتظرة، بجمال الحي قبل شهور وحيويته المعتادة، لحظات وتغير كل شيء، تفرق الجمع بعد سماع أصوات الرصاص من بعيد، تفزع ويبقى الهاتف بيدها يسجل مقطعاً مصوراً، رصاصة غادرة اغتالت قوس قزح، فاختبأت الشمس خوفاً، استحال الهدوء إلى صخب وجزع، وهرولة الشباب للاحتماء بالجدران وبين الأزقة، اللون الأحمر يمتزج بجنون مع ماء المطر المتجمع كبركة صغيرة وسط الشارع، وجسد مسجى يلفظ أنفاسه الأخيرة، رمت الهاتف من يدها وبدأت بالصراخ، بدأت بالركض في البيت كمن فقد عقله، فتحت الباب وهرعت إلى الخارج، لم تعد تعي شيئاً أو ترى أحداً، سوى ذاك الجسد الملطخ بالدم، تنادي باسم جهاد الذي ينتفض على الأرض كعصفور جريح،

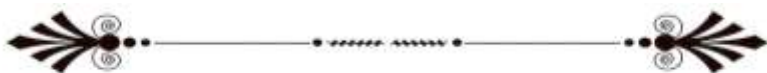


يد سحبتها قبل أن تقطع الرصيف وأدخلتها إلى مدخل البناء، عيون تنظر إلى وسط الشارع يخشون الاقتراب خوفاً من رصاصة جديدة تقتل أحدهم، أفلتت نور من تلك اليد وركضت حتى هوت بالقرب من جهاد، بدأت بالصراخ عليه كي يستيقظ، رأسه تفجر من تلك الرصاصة ولم تبق سوى عين واحدة تنظر إليها، يداها تلطختا بدمه، فانهارت فوق جسده مغشياً عليها.

بدأ تبادل إطلاق النار في آخر الشارع، التمس الناس عليهم ليسحبوهم إلى الداخل، وأم جهاد أبعدوها كي لا ترى ما حل بابنها، الموت يأتي صახباً على الأحياء، ويصمت الميت إلى الأبد.

تمارس طقوس الحزن بكل صمت، ويتوارى الجسد في التراب، الحمى تأكل رأس نور، وأم جهاد تحاول أن تكون قوية صلدة أمام مصابها العظيم، لم يتبق في هذا البيت من يقف على قدميه قوياً غيرها، زوجها على سرير أعياء المرض وأخفت عنه خبر موت وحيدة، وإن سأل عنه تخبره بأنه كان للتو فوق رأسه ولم يره لأنه نائم.

نور تعاني من الزكام وفضلت عزل نفسها كي لا تصل العدوى لأبيها، هكذا كانت تخترع له القصص والأسباب حينما يفتح عينيه ولا يرى أولاده من حوله، تختلي بنفسها على سجادة صلاتها تنهار باكية، مهما تصنعنا القوة فنحن في النهاية بشر، نريد أن نمارس ضعفنا ولو في الخفاء.



في الحرب لا تستطيع أن تقيم مجلس عزاء، ولا أحد يتجرأ أن يقول في بيتي شهيد، تتلقى التعازي على الهاتف دون ذكر تفاصيل أو أسماء، خشية من أن تستمع أجهزة الأمن لحديثك، تلك المرأة التي التقت براما، تواسي أم جهاد على الهاتف، ولكن البحصنة (كناية عن خبر تكتمه في نفسها) التي في حلقتها باتت تضغط على حنجرتها ولم تستطع الصمت أكثر، فاطلقتها لتستقر في قلب أم جهاد كصخرة، ما الذي سيتحمله هذا القلب، لو كان جبلاً لخر صريعاً، فلم تنطق سوى بالحمد لله، لله ما أخذ ولله ما أعطى، الموت رحمة خير من عذاب تعيشه بين أيديهم، تواسي نفسها ولا مواساة ولا سلوى.

ضربة على الرأس توجع، لكن ضربتين على القلب تقتل. وها هي تكفن فلذتي كبدها بدموعها، وبدعوها أن تلتقيهم في الجنة، البيت بات خاوياً من كل معالم الحياة، من ضحكاتهم وأحاديثهم، لم يتبق سوى أشياءهم المكونة ساكنة في غرفهم، موحشة بدونهم، رآحتهم في ثيابهم لا تغادر، تشمّها بين حين وآخر كلما غلبها الشوق إليهم، تتذكر طفولتهم وحركاتهم، كيف كانوا صغاراً يتعلقون بطرف ثوبها كي لا تبتعد عنهم، يلاحقونها كي لا تغيب عن ناظرهم، وإن استيقظ أحدهم ولم يجدها بجانبه يصرخ باكيةً خائفاً حتى يراها، مر الزمن سريعاً ولم تفرح بزهرة شبابهم الذي قُطفت على مرأى منها، لم تفرح بوحيدها جهاد وتراه عريساً وينجب لها الأحفاد، وها قد زفته عريساً إلى الجنة، لم ترَ بكرها مريم في

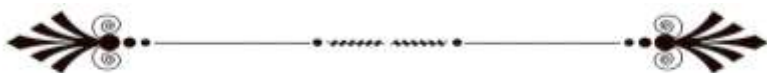


فستان الزفاف الذي تجهزه لها، وجهاز العرس بات مكدوناً في الخزانة صامتاً
حالكاً انطفأ بهرجه وعتمت ألوانه، أي قلب سيتحمل هذا المصاب، وأي
عقل سيستوعب غياب الأحباب، تذررت من بعدهم بالسواد، فلا حياة
ستطيب من بعدهم ولا هناء، دأبها كدأب الكثير من الأمهات اللوات
فقدن أبناءهن، خنساوات سورية الصابرات، مصابهن جلل، وصبرهن
كصبر أيوب.

جاء الخبر على أسامة كصاعقة ضربت قلبه، الرسائل التي كان يكتبها لها
وضعها أمامه، وخر باكياً يقرأ حروفها بصوت مسموع، عقله لا يستوعب
الأمر ولا يصدق، وقلبه النابض بحبها ينفي الخبر، كان الموت يحيط به من
كل جانب، الشهداء الذين تصعد أرواحهم إلى السماء في كل يوم، يحاول
بكل استطاعته إنقاذ الجرحى ومداواتهم، الحصار خانق على بابا عمر وشح
الأدوية والمواد الإسعافية يعيق عملهم، والقصف على الحي بات روتيناً
يوميّاً.

نور تزورها الكوابيس في كل ليلة، تصرخ في نومها حتى توقظها والدتها
وتحتضنها، تهدئ من روعها وتقرأ المعوذات عليها، وليد يحاول بكل ما
استطاع أن يواسي نور ويخفف عنها، ويطلب منها التحلي بالقوة لأجل
والديها، فلم يتبق لهم أحد سواها.

كانت تمضي يومها برفقة هاتفها المحمول، تشاهد صور جهاد التي التقطتها
له، تتمنى لو أنها التقطت له صوراً أكثر، والفيديو الذي وثق لحظة



استشهاده، كانت تعيد تشغيله مرات ومرات حتى تنهار من البكاء وتغفو لترى الكوايس مجدداً.

تدور عجلة الأيام مسرعة منهكة، يصاب أبو جهاد بمرض الزهايمر الذي يجعله ينسى كل شيء، يعود طفلاً لا يتذكر سوى الماضي البعيد، يحدثهم بذكريات مضت والضحكة لا تفارق وجهه، أن نصاب بمرض كهذا في زمن يحتاج منا للنسيان، نعمة لا تقدر بثمن.

قد حان وقت الرحيل عن تلك المدينة ورمي كل الذكريات وراءهم من جميلها وقبيحها، لم يعد البقاء محتملاً، والخطر يحرق بعيونه إليهم، والاستمرار في الحياة بات فكرة مستعصية، وضعوا في حقائبهم ما خف وزنه وغلا ثمنه، وبعض الذكريات، من سبقهم كانوا يحسبون أنها أيام وستمضي وسيعودون إلى أحيائهم ومنازلهم، ولكن شمس الأمل أبت أن تشرق وظلام الحرب في سواد مستمر، الشتاء مرثيلاً مع انقطاع التيار الكهربائي المتكرر والاتصالات، وتأمين حاجيات البيت من مأكّل ومشرب غداً أشبه بالمستحيل، فالرحيل بات أمراً مقضياً، ونصيحة لهم من الجميع، حتى وليد كان يحث نور على مغادرة المدينة حتى يهدأ الحال، وتسدل الحرب ستارها، شهدت بعض أحياء المدينة مجازر يندى لها الجبين، من إعدام ميداني وذبح بالسكاكين وحرق الجثث في البيوت، لم يعد البيت آمناً لأحد والموت يتربص بهم من كل جانب، من يرى مصاب غيره تهون عليه مصيبته، ولكن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وكان أمر الله مقضياً.

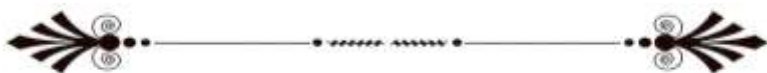


(2)

سنوات تمر والزمن متوقف هناك تحت الأرض، كمنسي في كهف مهجور، لا أحد يعلم بوجودك ولا تدري عما يحدث في الخارج، تريد للأيام أن تمضي، وكيف تمضي وأنت محشور بين عشرات الأجساد التي تفتى حيةً مثلك، تشتاق لطعم الحياة، لرائحة القهوة وصوت فيروز، لأصوات عائلتك، للصباحات الدافئة وهدير المدفأة، للطيور والفرشات، للزهور، للتراب والحصى، لضوء الشمس، للقمر والنجوم، لحبات المطر وندفات الثلج، للطرقات الطويلة، للشوارع والرصيف، تشتاق لأدق التفاصيل التي لا ينتبه لها من يعيشها، سأم يزهق الروح، يتوقف التعذيب ولا يبقى سوى الانتظار يجلد النفس، حاولت السجينات أن يبتكرن أشياء يقضين بها أوقاتهن، صنعن أحجار شطرنج من لب الخبز الذي لا يأكلنه عادة لأن النار لا تطاله ويبقى عجيباً، يقمن بعجنه وتشكيله ويتركه حتى يجف ثم يقمن بتلوينه من بقايا الدواء، رقعة الشطرنج صنعنها من خيوط نسلت من البطانيات العسكرية وحيكت على شكل مربعات، كن يدعين مريم لتشاركهن اللعب لكنها تخبرهن بأنها لا تعرف شيئاً عن هذه اللعبة، إحداهن أخبرتها بأنها ستقوم بتعليمها فكان جواب مريم:

- لا أريد أن أتعلم الشطرنج، حتى لا أدافع عن الملك.

جواب منطقي لمحامية ذكية، أليست الحياة كرقعة شطرنج كبيرة، نقوم بالتضحية بالأحجار الأقل قيمة للحفاظ على الأغلى، كمن يضحي بالحصان



لأجل القلعة، ولا يجوز العكس، ونضحي بالقلعة لأجل الملك، كذلك نتخلى في حياتنا عمّا هو مهم لأجل الأهم، كما تركنا بيوتنا وأحلامنا للحفاظ على أرواحنا.

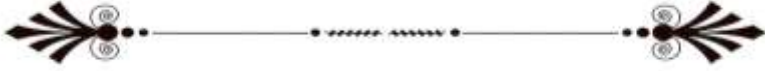
الوطن كذلك وما يحدث فيه لعبة شطرنج يقوم اللاعبون فيها بالتضحية بكل شيء لأجل بقاء الملك، أليست لعبة ديكتاتورية!

ثم ماذا بعد، لا شيء يطفى نار الشوق الذي يحيل الروح إلى رماد، من تأقّي إليهن من الخارج، يستقبلنها كأنها هبّطت عليهن من السماء، يداوين جراحها ويستمعن بنهم إلى أخبار الخارج، هل ما زالت الثورة قائمة، أما تزال المظاهرات تنادي بالحرية، ألا يتحدث أحد بهن ويطالب بتحريرهن، ألم يهب العالم في وجه الظلم ويوقف المجرم عند حده، يصبن بالإحباط والحزن لما يسمعنه، الحرب قامت والسلاح بات هو الوسيلة الوحيدة للتفاهم، مدن تدمرت فوق رؤوس أصحابها، عائلات هُجّرت وحركة نزوح كبيرة تحدث في أغلب المناطق، مجازر بمختلف أنواع الأسلحة، بالمدافع والصواريخ بالسكاكين والغاز السام، سورية جريحة تئن، وأبناؤها يدفعون الثمن، الاقتصاد في انهيار والبنى التحتية تدمرت، لا يبدو بأن الخارج بأفضل حال من هذا المكان، فالكل يموت على طريقته، والكل في حالة انتظار، انتظار الفرج والحرية والعودة إلى الديار.



تساءل مريم في نفسها عن أحوال عائلتها، هل وضعوها على رف النسيان؟ هل مازالوا في المدينة أم خرجوا منها كغيرهم، أما زالوا جميعًا بخير؟ وأسامة يا نبض القلب والروح أما زلت تذكر مريم أم أن الأيام سلتك عنها، تبسم لذكراهم ترتاح لفكرة أن يكونوا قد نسوها وانشغلوا الآن بأنفسهم، لو لم ترسل لهم بخبر موتها لكانوا الآن يرضيهم سجنها وحالها، بأي وجه ستقابلهم إن خرجت وهم بانتظارها، لن تستطيع النظر إلى وجه أبيها وأخيها، وأول سؤال سيسألونها إياه، هل مس جسدك أحد؟ سيوارونها عن أعين الناس كفضيحة، ويدفنونها في البيت كعار.

سمعت الكثير من القصص من النساء اللواتي تعرضن للاعتقال لأكثر من مرة، وكيف بعد خروجهن من سجنهن الأول كيف تحلى الناس عنهن. إحداهن تدعى هدى متزوجة ولديها أطفال، اعتقلت أول مرة لمدة شهرين في فرع الأمن بتهمة التظاهر وخرجت لتلقى سجنًا آخر بانتظارها، فقد حرمت أطفالها بعدما أخذهم والدهم وطلقها، ونبذها أهلها وحرموها من الحياة، لتعود إلى التظاهر ومساعدة المتظاهرين حتى تم اعتقالها مرة أخرى، لم تعد تأبه لحياتها ولا لمصيرها بعد أن خسرت كل شيء، الفكر الجاهلي مازال مسيطرًا على العقول على الرغم من كل الانفتاح والحضارة التي تعرضت لها الشعوب، فبدلاً من احتواء السجينة وتضميد جراحها ومواساتها إلا أنهم يزيدون من مأساتها وكأن ما حدث لها كان برضاها، فئة قليلة من كانت تنادي بتحرير المعتقلات وتطالب بحقوقهن، وقليلون من



وقفوا مع بناتهن ومنحوهن القوة حتى استطعن تجاوز محنتهن، الدمار
النفسي للمعتقلة بعد نيلها للحرية كفيلاً ليُجعل منها امرأة مكسورة
مهزوزة من الداخل، لا تستطيع أن تواجه الحياة بشكل طبيعي، ويأثر ذلك
على سلوكها وحياتها.

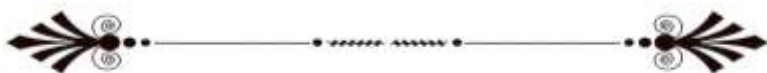


(3)

جاء اليوم المنشود، يوم الحرية التي كانت تنتظره مريم، يوم الخلاص من براثن الظلام والعفن، لترى الشمس بعد عامين ونصف لها في المعتقل، بعد عملية تبادل لأسرى كانوا مع الجيش الحر، تحررت مع عدد قليل من السجناء والسجينات، لترى الشوارع والناس، تنظر إلى السماء ترغب في احتضانها، تريد أن تقبل الحجارة والشجر، تتلمس الأشياء وكأنه عاد إليها بصرها من جديد.

ترافقت مع إحدى النساء ولجأت معها إلى بيت أهلها، استطاعت الوصول لأبنائها الذين استودعهم عند أحد الأقارب، وقد علمت بأن زوجها قد تخلى عنها وتزوج من أخرى، ففضلت أن تغادر البلاد وتأمين حياة أطفالها بعيدًا عن الحرب وويلاتها، وعن تبري المجتمع لها ولوجودها، فكان الشمال السوري وجهتهن ثم إلى تركيا بمساعدة أحد المهربين، اختارت مريم أن ترتدي الملاء وتغير من اسمها، بعد أن استطاعت وبكل سهولة أن تستخرج بطاقة لاجئ باسم جديد، وكانت قد فقدت كل ما يدل على شخصيتها الحقيقية وخرجت من سورية مجردة من هويتها، فكيف لها أن تنجرد من ذكرياتها؟

في لبنان، قضت عائلة أبي جهاد سنتهم الثانية على التوالي في أحضان الغربية الذي لا يمنح دفئًا كدفع الوطن، ولا أمانًا كالأمان المعهود، يبقى الحنين إلى



الديار حاضرًا في كل وقت، والذكريات من حلوها ومرها يعصف في الأذهان،
الوضع المعيشي سيء، والعنصرية حاضرة.

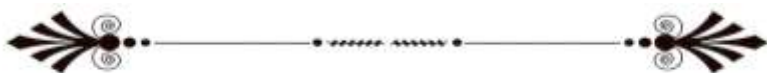
حاولت نور أن تبحث عن عمل تعيل به أهلها، لكنها وفي كل مرة كانت
تتعثر وتواجه ذوي النفوس الدنيئة الذين لا ينظرون إلى المرأة إلا كجسدٍ
غاوٍ، يعتقدون بأن حاجتها للعمل يجعلها تلبى رغباتهم الحيوانية، فكانت في
كل مرة تترك العمل وتلتزم البيت حتى ضاق بهم الحال، وازداد وضعها
النفسي سوءًا حتى باتت تكره نفسها وجسدها، وتحتقر كونها امرأة.

عروض الزواج تأتيها من المحيطين بها، فكانت ترفض وبشدة، حتى علاقتها
مع وليد سادتها المشاجرات والمشاحنات ويقابلها وليد بصبر، بسبب
وضعها النفسي وحقدتها على الجنس الآخر، فما عادت تنظر إليه إلا كذكر
يرغب بها كما يرغب غيره، وبالأخص بعد تعرضها للاعتداء الذي قام به
مجد بحقتها، وجعلها تفقد عفتها، شعور النقص يلزمها في كل وقت، لم تعد
تشعر بالكمال الذي تتمتع به أي فتاة، على الرغم من محاولات وليد ليثبت
لها العكس وتفهمه لحالها، إلا أنها كانت تقابله بعصبية وتوتر، ورفض
لمواساته التي لم تعد تجدي نفعًا، مرهقة هي، نفسيتها ثوب مرقع يستر لكنه
غير جميل، وفي كل رقعة ندبة، حاولت أن تخطط لجراحها لكنها غدت بذاك
الشكل القبيح، تنظر إلى نفسها في المرآة فترى الجمال فيه ابتلاء، ترسم
خطوطًا باللون الأسود فوق انعكاس صورتها، تخلط حاجبيها ببعضهما،
ترسم ندوبًا هنا وهناك، لم تعد تريد أن ترى صورتها إلا بهذا الشكل، حتى



بقي الحبر الأسود على المرأة، ترى نفسها فيه مشوهةً في كل مرة، تتمنى لو تأخذ المرأة معها إلى كل مكان ليراها الناس بهذا الشكل لا بشكلها الحقيقي، وحينما قررت أن ترتدي الملاءة، كانت تتعرض للكثير من المواقف والرفض، منعاً من العمل وغيره، حتى بملاءتها لم تكن بمنأى عن التحرش، حتى ولو كانت قبيحة لن يشفع لها الأمر في النجاة من ذوي النفوس الضعيفة، فأين المفر؟

قرر وليد السفر إلى لبنان، وزف البشرى لنور ليكون بجانبها وينتشلها من ذاك الضياع الذي تعيش فيه، رفضت الفكرة بادئ الأمر، اضطرب قلبها شوقاً لرؤيته بعد كل تلك الأعوام التي حرما فيها من رؤية بعضهما، وخوفاً لعدم قدرتها على تقبل وجوده بنفسيتها المتعبة تلك، حاولت أن تثنيه عن ذلك، لكنه لم يأبه لكلامها، كان يتجاوز عن كل شيء سلبي تحدث فيه، يتجاوز حالتها المضطربة ويعاملها كما عرفها أول مرة، فهو يعلم جيداً داخلها، يعلم حقيقتها والنور الكامن في قلبها، والذي اشتق منه اسمها، يعلم بأن الظروف التي تعرضت لها كافية لأن تقصم ظهر أعتى الرجال، فكيف هي فتاة ضعيفة رقيقة، رغم كل شيء فهي تحاول أن تقف على قدميها، أن تعيل والديها اللذين حملت همهم على عاتقها وحدها بعد فقدانها أخويها، أن تتجاوز محنتها بكل ما استطاعت من قوة، هي قوية بنظره وجبارة، وحالة الضعف والانهيال التي ترميهم في وجهه حينما يحادثها، ليست إلا لجوء لأكثر الأماكن أماناً، كالخلوة مع النفس، حينما ندود



بضعفنا وكسرنا أمام أنفسنا ونخفيه عن الجميع، لذلك كان على يقين بأنها معه كما مع نفسها دون حواجز أو أقنعة، تفرغ من طاقتها السلبية معه بالشجار والمشاحنات، ويتقبلها بكل ود وتفهم، نادرون أولئك الذين يفهمون دواخلنا، ويتحملون تقلباتنا النفسية ومزاجنا، يحتوونا بكل ما فينا من ندوب، كما يحتضن لحاء الشجرة ساقها، وكما تحتضن الأرض الجذور.

رنات هاتفها جعلتها تنسحب من سهرتها مع والديها، أغلقت باب غرفتها عليها وقد أخبرت والدتها بأن المتصل سيدرا وتريد أن تحدثها بأمر خاص. فتحت هاتفها وهي تجلس على كرسي بالقرب من النافذة، تتأمل السماء المزينة بالنجوم، والقمر الذي يسقط ضوءه على البيوت، فتترك أمامها ظلالاً تتقاسمها مع الأشجار راسمة لوحة فنية على الأرض.

- أنا هنا يا نور، في لبنان أريد رؤيتك.

القمر يبتسم، أو هكذا خيّل إليها، الظلال تتراقص فرحاً، نسمة حزيرية تداعب شعرها الذي أمسكت بخصلة منه ولفتها على اصبعها، تصنعت الجدية ووارت سعادتها وابتسامتها التي أشرق لها وجهها ثم قالت:

- أنت عنيد جداً، لا تفعل سوى ما في رأسك.

- لأجلك أسافر إلى آخر الدنيا.

نهضت من مكانها تدور في أنحاء الغرفة، شعرت بجسدها خفيف جداً، تكاد أن تخلق فرحاً، رمت بنفسها على السرير، تغلق فمها بيدها لتكتم



صرخة كادت تطلقها حنجرتها من فرط سعادتها بما تسمعه، قلبها يرقص طربًا، فراشات ترفرف في جوفها، تمالكت نفسها وسألته:

- وكيف هان عليك أن تترك أهلك؟

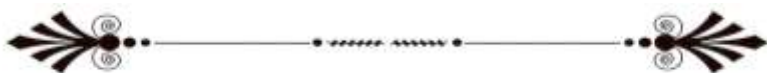
- لم يهونوا علي، ولكن لا أخفي عليك، لأجلهم خرجت أيضًا، لم أعد أستطيع تأجيل الخدمة العسكرية، وهم بحاجة لمن يعمل ليتكفل بمصروفهم بعد الوضع المعيشي المتدهور للبلاد وتوقف أخوتي عن العمل وسوقهم إلى العسكرية، فلم يعد لدي خيار آخر سوى الخروج لأجلهم وأجلك، وأضرب عصفورين بحجر واحد.

حطت الفراشات في مغاور القلق، وتوارى القمر خلف البنايات العالية، خوف من مجهول راودها، عبرت عن قلقها بقولها:

- لكن الوضع هنا ليس بأحسن حال، ولن تجد عملاً تستطيع فيه أن تعيل أهلك ونفسك، وفوق هذا كله تفكر بالزواج بي، سيثقل الحمل كثيرًا على عاتقك، لذلك ألغي فكرة الارتباط الآن والتفت للمسؤوليات الأخرى.

- نور، لماذا تعتبرين نفسك ثقيلة علي، والزواج بك سيأثر على إعالتى لأهلي، أعلم بأنك لا تريدين مني أن أتخلى عن أهلي، لكن لماذا تضحين بجنابنا وإلى متى سننتظر.

السعادة التي تراءت لها رأتها بعيدة المنال، لم تعدد على الفرح فقد هجرها منذ وقت طويل، ولا تريد الانسياق وراء اغراءاته، رؤيتها للأشياء باتت كلها سلبية، حتى رسوماتها غدت جميعها بلا ألوان.



- لا أريد أن أكون حاملةً إلى حد البعيد، علينا أن نكون واقعيين منطقيين، والواقع يقول هذا.
- من قال لك بأني أفكر أن أبقى في هذه البلاد.
- صمت الكون بأكمله ودارت الدنيا من حولها، غصة كبلت حنجرها وهي تسأله:
- إلى أين ستسافر إذن؟
- إلى أوروبا، وبرفقتك طبعًا، لن أذهب وحدي.
- ارتعدت أوصالها لجوابه، وبهت لونها، قطبت حاجباها غضبًا وقالت بنبرة تتخللها العصبية:
- أتريد مني أن أترك والدي؟ أجننت يا وليد، أتخلى عنك ولا أتخلى عنهم، هيا اذهب حيث شئت.
- جميلتي لا تستغني عن النكد، من قال سأخذك وحدك؟ سنذهب جميعًا، أنا وأنت ووالديك، على كل حال ما زال الوقت مبكرًا للحديث بمثل هذه الأمور، الخطوة الأولى هي أن تتم خطوبتنا، وأتمكن من المجيء إلى بيتكم ورؤيتك وتلبية حاجياتكم، أنتم بحاجة إلى رجل يتحمل مسؤوليتكم.
- عضت على غطاءها وكادت تمزقه بأسنانها.
- أنا فتاة بألف رجل، لا تكلف نفسك عناء إعالتنا.
- من قال غير ذلك، ولكني أحبك يا نور وحن الوقت لأن نكون معًا، وأن تنكدي علي ليلاً نهارًا، لم أعد أستطيع العيش دون نكدك الجميل.



ضحكت نور لكلامه، ولم تعد تستطيع الرد، عادت حقول الزهر لتتفتح في وجنتيها.

- لماذا تضحكين هل ألقىت نكتة عليك، ألا تعلمين بأن نكدك أحب إلي من كل كلام الغزل والحب؟

ضحكت كثيرًا حتى دمعت عيناها، لم يكن يتركها حتى يسمع ضحكتها وينتشلها من بؤرة الحزن التي فيها، راقى لها فكرته وهي تثق كثيرًا بكلامه، أن لها أن ترمي بأعبائها على كاهل رجل يكن لها سندًا، اتفقا على اللقاء في أقرب حديقة لمنزلها بعد جدال طال قليلًا، حتى حصل على موافقتها أخيرًا.

(4)

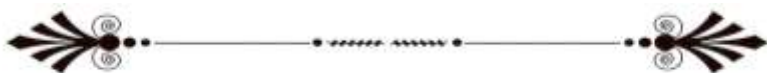
مريم تحاول التأقلم مع حياتها الجديدة، وتفكر في طريقة لتدبر معيشتها، السكن مع نساء أرامل ومطلقات أنفسها، يتبادلن السكن والمصروف معاً، لكنها تحب أن تخلو بنفسها كثيراً في غرفتها بعيداً عن الضجيج، تحاول أن تنزع من ذاكرتها كل الماضي، حنين إلى أهلها وبلدها يحتاجها بين حين وآخر، وشوق لأسامة يورق مضجعها، لكنها اختارت البعد عن كل شيء، وعليها أن تنسى وتتعايش مع الواقع رغم الكثير من الصعوبات التي تواجهها في تركيا، لم تكن بحاجة لأن تتعلم اللغة لأن أغلب سكان ولاية هاتاي من العرب، فلم تكن اللغة تشكل عائقاً، كانت بحاجة للعمل لتأمين مصروفها ومتطلباتها، بحاجة لأن تلج في الحياة بعيداً عن برائن الوحدة وأنيابها التي تنهش فيها، تخرج في الصباح للبحث عن عمل، تسير في الشوارع تتأمل الأبنية العالية، تجلس في الحدائق تشاهد الأطفال يركضون على العشب ببراءة، تستسلم لأشعة الشمس وهي جالسة على أحد المقاعد، تجعلها تلامس روحها، ليتها تحترق عظامها لتعوضها عن تلك الأعوام التي حرمت فيها من نورها، تغزل من أشعتها رداءً من أمل، يتلاشى كلما أوت إلى سريرها تحتضن بؤسها، لا تحدث أحداً عن ماضيها ولا عن حقيقتها ومن تكون، اختلقت قصة أرضت النساء من حولها، يتيمة الأبوين وأرملة، لم تنجب أطفالاً بعد، لم تدخل إلى الجامعة وتكمل دراستها، دائمة الصمت وقليلة الحديث، لم تكن كالأخريات يثرثن كثيراً،



ويضحكن أكثر، لم تقترب من إحداهن وتجعلها صديقتها المقربة، فضلت أن تكون علاقتها سطحية مع الجميع، تسلي نفسها بمواقع التواصل، تقرأ الكتب الإلكترونية بسهولة اقتنائها.

على هاتفها المحمول صنعت لنفسها عالمًا آخر تلجأ إليه، عالم افتراضي تعيش فيه، تقرأ منه أخبار بلدها وما ألت إليه الحرب التي اشتعلت في كل المدن، تفكر في أهلها وتتمنى لو أنهم غادروا البلد وألا يبقوا تحت نيرانها، لا بد وأن أسامة خرج مع المقاتلين من المدينة بعد الحصار الذي دام أكثر من عامين، تشاهد صور بلدها على الإنترنت والدمار الذي حل في الأحياء، تقرأ عن المجازر التي حدثت والانتهاكات التي قام بها الجيش في المدينة مع صمت مطبق لأصدقاء الثورة السورية، دون أن يتحدث أحد ويوقف سيل الدماء، تمامًا كما حدث في بيروت عام 1982 حينما اجتاحتها القوات الإسرائيلية باتفاق أشرفت عليه الأمم المتحدة، مستخدمين كل أنواع الأسلحة بعد حصار خانق وقطع كل مصادر الحياة، فخرجت قوات منظمة التحرير الفلسطينية منها ولم تلق دعمًا سوى مساندة معنوية من الدول العربية من تنديد واستهجان وكلام لا يقدم ولا يؤخر وهم يشاهدون المجازر دون أن يحركوا ساكنًا.

عادت حمص إلى سيطرة النظام بعد أن تدمرت الأحياء التي كانت تحت مخطط الهدم في مشروع حلم حمص، وهجر معظم سكانها، فبات من السهل الآن التغيير الديموغرافي كما كان مخططًا له.



تبكي مدينتها، تبكي سوريتها والجرح القابع خلف ملامحها، حينما نجت من
ذاك الظلام تمنى أن ترى الشمس التي كانت تتسلل بأشعتها إلى غرفتها
بعد أن تعانق شجرة الأكي دنيا وتصنع من أغصانها ظلاً، تجلس في
شرفتها تسقي الزهور، وتطرب لزقزقة العصافير، تقودها رائحة قهوة أمها إلى
الصالة حيث يجلس والدها، تقبل يده وتشاركه جلسته، تحن لخبز فرن
الحي الذي لن تتذوق أشهى منه، وكأن سنابل القمح التي صنع منها، نمت
بكل حب وسلام، ما حالها الآن بعدما ارتوت بدماء الشهداء؟
هربت بجسدها من بلادها وروحها ماتزال هناك، مكبلة بالذكريات، رهينة
للحين.

تنظر في المرآة المعلقة فوق المغسلة، تتأمل ملامحها التي بدت وكأنها كبرت
عشرة أعوام، بعض خطوط الزمن التي حفرت حول عينيها، وجنتاها
كزهور ذابلة فقدت لونها وريحها، جسدها الهزيل الذي أنهكه العذاب،
الموسوم بآثاره التي ما إن تراها حتى يعاودها الشعور بلسعات السوط الذي
أكل من لحمها، هربت بجسدها الذي بات شاهداً على ليال سوداء قضتها،
تتمنى أن تهرب من ذاتها بعيداً عن كل ذكرى تؤرقها، فمهما حاولنا الهرب،
فإننا نحمل ذكرياتنا معنا كحقائبنا، لكنها لا تخضع للتفتيش على المعابر
والحدود، فتبقى سجيناً أنفسنا نحررها في لحظة ضعف على شكل دموع
وأهات.



بعد بحث طويل حصلت مريم على عمل في مطعم تركي، اختارت جلي
الصحون لتكون بمنأى عن مقابلة الزبائن، وبعيدة عن الأعين، تنهي
عملها مساءً وتعود إلى غرفتها في السكن، العمل يقتل الوقت ويسلي
النفس، فيستقبلها سريرها منهكة تحتضن ذكرياتها وتنام.



(5)

أشرفت شمس صباح ذلك اليوم على غير عادتها، ساطعة مشرقة، اكتست الطبيعة بألوانها الخلابية، رفعت الستار عن جمالها الذي توارى خلف سنوات من انتظار، تنهادى بمشيتها في الطريق الذي يقودها إلى فسحة خضراء كواحة تراءت لها من سراب، على الرغم من اعتيادها الذهاب إليها من قبل، إلا أنها هذا اليوم تشعر بنفسها تحلم، قلبها يخفق بقوة وقدمها تترجفان.

نبت لها جناحان وحلّقت حينما لمحتة يقف في الحديقة تحت الشجرة، ارتمت في حضنه باكيةً ترمي همومها وشوقها على صدره دفعة واحدة، تأملت وجهه الذي لم يتغير كثيرًا، سوى بعض خطوط الزمن التي ارتسمت حول عينيه، وشعرات بيض يخضبن شعره في المصدغين، رائحة عطره ذاتها التي علقت في ذاكرتها في آخر لقاء لهما، مسح دموعها عن خديها بيديه، وترك قبلة على رأسها، جلسا على مقعد خشبي تحت الشجرة والصمت الذي ساد بينهما ترك للعيون فسحةً لتبادل الأحاديث.

- وعدتك أن نبقي معًا مهما حدث، ومهما كانت الظروف، وها أنا أفي بوعدتي.

- لولاك يا وليد لا تعلم ما يمكنه أن يحدث لي.



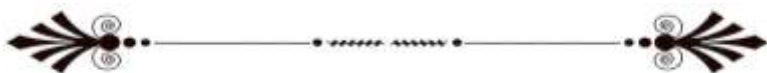
- لا تقولي هذا، أنا أحبتك، والحب ليس مشاعر فقط، بل هو عهد ومسؤولية يجب أن أكون قادرًا على حملها وتنفيذها، الحب ليس كلامًا يقال وحسب.

- أنا محظوظة بك حقًا.

- بل أنا محظوظ بك يا نور.

توردت وجنتاها ولعت عيناها الزرقاوان، كرقرة مياه البحر حينما تنعكس عليها أشعة الشمس، سكنت مراكبها واستقرت على شطآن الأمان. أعطته عنوان منزلها القريب، ووعدتها أن يقوم بزيارتهم في يوم غد، ليتقدم لخطبتها من أهلها، كانت نور تحلق من السعادة، ترتب البيت وتضع الزهور في فارة على الطاولة، صنعت كيككة الشكولاته ورشت العطور في كل مكان، كانت أمها تراقبها باستغراب، ترى وجهها الذي أشرق على غير العادة، سألتها عن سبب سعادتها فجلست بالقرب منها تحاول أن تبدأ بالحديث عن وليد، وتخبرها بقدمه لخطبتها، كان خجلها يمنعها من الحديث، لكن إلحاح أمها جعلها تبدأ كلامها بذكر مريم وأسامة وكيف تعرفا على بعضهما وقام بخطبتها، بكت والدتها بعد ذكر مريم، احتضنتها نور واعتذرت على تلك الذكرى ولكنها مقدمة لتفتح الحديث مع والدتها، قالت لها:

- لم أكن أقصد أن أفتح لك جروحك يا أمي، ولكني لم أعلم كيف سأبدأ حديثي.



- ماذا لديك يا ابنتي، هل حدثك أسامة كيف حاله؟
- أسامة في تركيا الآن، بعد خروجه من حمص إلى الشمال السوري، اختار الدخول إلى تركيا، وربما يذهب من هناك إلى أوروبا.
- لماذا يريد الذهاب إلى هناك؟
- لأجل إكمال اختصاصه على ما أعتقد، لم نتحدث بهذه التفاصيل.
- يسر الله أمره وسدد خطاه.
- اللهم آمين، لكن أُمي أريد أن أُلحظ عن أمر آخر، يخصني.
- كانت تعصر أصابعها وتجول بنظرها نحو الأرض، قلبها ينبض بقوة، والكلمات تتوارى في حنجرتها، ربتت أُمها على كتفها وقد لاحظت عليها الارتباك.
- قولي يا ابنتي أنا أسمعك.
- أُمي هناك شاب يريد أن يتقدم لخطبتي.
- قالتها نور بتلعثم، وقد توردت وجنتاها خجلاً، وبدأت بقضم أظافرها، تهرب ببعينها نحو الأرض، وتتجنب أن تقع في عيني والدتها، تنهدت الأم وصمتت قليلاً وهي تنظر لابنتها وتأملها، لم تعد تلك الطفلة الشقية، فهي قد باتت صبية جميلة والمتقدمون لخطبتها كثر، ولأول مرة ترى ابنتها تتحدث في هذا الأمر، بعدما كانت ترفضه وبشدة.
- من هو هذا الشاب وأين تعرفت عليه.



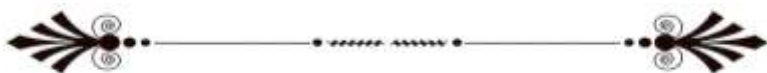
ارتبكت نور لسؤال أمها، لابد لها من قول الحقيقة، وستستمع لها والدتها بتفهم، استعجمعت قواها بعد أن سحبت نفساً عميقاً، ثم قالت:

- شاب فلسطيني سوري، كان يقيم في المخيم في حمص، تعرفت عليه في الجامعة، وقد كان يريد خطبتي منذ ذاك الوقت، هو الآن في لبنان ويريد زيارتنا.

ابتسمت الأم في نفسها، وقد عرفت الآن سبب تلك الهمهمات التي كانت تخرج من غرفة نور ليلاً، ومزاجها الذي ينقلب فجأة كلما وردها اتصال هاتفي لتتوارى عن الجميع وتحدث، كانت تخشى عليها أن تقع في شرك أحدهم ويتسلل بعواطفها ويتركها جريحة، ولم تكن باستطاعتها سؤالها لأن هذه الأحاديث كالسياسة محرمة، فكان لابد لها أن تتقبل حضوره طالما أنه يريد التقدم لخطبتها، وشخص تعرفه خيراً من أن تتعرف عليه، نور تنتظر رد والدتها بقلق وذاك الصمت الذي أعقب كلامها قد أزعجها، مسكت الأم يد ابنتها واقتربت منها هامسةً:

- كل الناس خير وبركة، ليأتي يا ابنتي ونراه وإن شاء الله يحدث كل خير، أهم شيء أخلاقه ومسموعيته، ومعروف عن الفلسطينيين الرجولة والشهامة، الله يستر عليك في الدنيا والآخرة.

قفزت نور من مكانها فرحاً واحتضنت والدتها، هرعت إلى غرفتها لتزف البشرى لوليد على الهاتف، وهي تبكي سعادة وكأن أبواب الفرج قد فتحت لها على مصراعها.



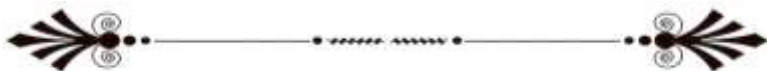
حلت الأفراح الديار، ومسحت الحزن الذي كان يحتل النفوس، وضع خاتمه في إصبعها وهو يتأمل جمالها وشعرها الذهبي الذي كان ينسدل مجنوناً على كتفيها، وضع عقدًا حول عنقها منقوش عليه اسميهما، الخصر النحيل الذي يرسم تفاصيله فستانها الليلي، يقود به إلى مدينة الأحلام والجمال، ابتسامتها الخجولة كلوحة اغريقية، عينها كنجمتين تتلألأان في مجرة الفرح، عقد قرانهما شيخ وبارك زواجهما، كان أبوها سعيدًا يجلس بجوار زوجته يتأملها، يستعيد ذكرى زفافهما، وكأنه ما زال عالقًا في تلك الأيام، يسأل عن اسم وليد في كل لحظة يريد التحدث بها إليه، ليناديه باسم آخر، فتنتطق الضحكات، حتى ناداه باسم أسامة فصمت الجميع، فقامت على فورها نور بالاتصال بأسامة ليشاركهم فرحهم ويتحدث إلى والديها وتعرفه على وليد الفرد الجديد في العائلة، هنأهما وتمنى لهما السعادة، حاول ألا يذكر مريم في اتصاله كي لا يعكر صفو الاحتفال، لكنه تركها في قلبه غصة لا يزيلها نهر من دموع.

شاركهم الاحتفال على الهاتف عائلة وليد من سورية، يباركون خطوبة ولدهم، تعرفت ليلي على نور، وأخبرتها بأسرار وليد، وكيف كان يمضي وقته جالسًا في غرفته يكتب لها ويفكر فيها، وبأنها السبب في ضحكته ويصيبه الحزن إن أصابها مكروه، أخبرتها أنها الآن اطمأنت على أخيها بجوار محبوبته بعدما كان يضره غيابه، ودعت لهما بأن لا يفرقهما شيء بعد اليوم.



التفكير في حياة أفضل يجعل المرء يلجأ للمستحيل، ولا مستحيل أمام الأحلام، دأبهم كغيرهم ممن خرجوا ووصلوا إلى أوروبا بسلام، الوجهة التي اختارها الكثيرون، بعدما صعب عليهم البقاء في بلادهم، وسدت في وجوههم الطرق لأجل تأمين أبسط متطلبات الحياة، إغراءات الحياة في أوروبا جعلتها حلمًا لكل شاب طموح، بيد أن الحياة في تركيا تجعله آلة للعمل فقط منذ الصباح حتى المساء، ولا تترك له من وقته شيئًا يستطيع أن يبني مستقبلًا يليق به، بعدما تعسرت ولادة المستقبل في الوطن.

اتفق أسامة ووليد على السفر معًا، فكان لابد لنور وعائلتها مع وليد أن يسافروا بداية الأمر إلى تركيا، لم يكن الأمر صعبًا لأن لديهم جوازات سفر فعبروا البحر من لبنان إلى تركيا على متن سفينة، كانت رحلة جميلة قضى فيها الخطيبان وقتًا جميلًا، اتخذوا الرحلة كاستجمام لهم يتمتعون بجمال البحر واتساعه، يرسمون أحلامًا لمستقبل هانئ بعيدًا عن الحرب والخوف، يعلقون آمالهم كقناديل في السماء ويحلمون بجنيتها حين الوصول.



(6)

تحث مريم خطواتها نحو الفرن التركي، لتشتري الخبز الطازج من أجل الفطور، تقف في طابور صغير بانتظار دورها، تتأمل الأطفال الذين يركضون في الشارع، أحدهم يحمل صينية فيها قطع باذنجان وفليفلة خضراء، الفطور المعتاد للأتراك في تلك الولاية، سافرت ذاكرتها بها إلى صباحات العائلة، وطاولة الطعام التي كانت حافلة بكل الأصناف، تنهدت للذكرى، فمثلت أمامها صباحات السجن، الذي لا يشبه الصباح في أي شيء، وقطع الخبز التي كانت تقدم لهن، الخبز السميك الذي لا يأكلن منه سوى القشور، وحببات الزيتون القليلة، كانت تشتهي رائحة الشاي ودفعته، جرعة ماء نظيفة، حاولت طرد الذكرى من رأسها وهي تحمد الله على انتهاء ذاك الجحيم، تتأمل المحلات التجارية المجاورة للفرن، تراءى لها طيف أسامة من بعيد، يقف على أبواب أحد المحلات، خفق قلبها بسرعة وتسارعت الدماء في عروقها، أخفضت رأسها لئلا تطيل النظر إليه وتلفت أنظاره، لربما أوقعت نفسها في مأزق وهي تتأمل الشاب الذي بادها النظرات، لم يكن يظهر من وجهها سوى عينيها، بعدما اختارت ارتداء النقاب، لم تكن على استعداد لأن تتعرض للسؤال منه أو الاقتراب، فهي تتخيل أسامة وتراه في كل الوجوه.

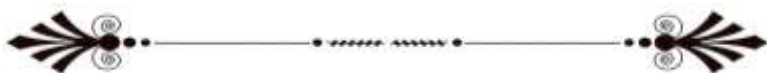
نبهها الفرن ودعاها للتقدم وسألها حاجتها من الخبز، بعدما غادر الذين يقفون أمامها، أخذت حاجتها واستدارت مغادرة المكان، متجاهلة الشاب



الذي اعتقدت أنها لفتت نظره بتحديثها به، ورافقتها دموعها حتى وصلت إلى السكن.

شاهد أسامة الفتاة وهي تركض مسرعة مغادرة الفرن، وقد بدا عليها الارتباك بعدما بادها النظرات، عيناها تذكرانه بعيني مريم الخضراوين، العيون التي كان دائم الغرق فيها كلما التقاها، نفث دخان سيجارته من صدره بقوة، ورمها على الرصيف داهسًا إياها بقدمه، ثم دخل إلى المحل ليشتري خطًا هاتفيًا جديدًا وبطارية خارجية للشحن استعدادًا للسفر إلى ازمير.

التقت العائلة في ازمير، بعدما غادر أسامة ولاية هاتاي في ذات اليوم مساءً، كان يتذكر الفتاة المنقبة، وعيناها الخضراوان، يلوم نفسه لو أنه قام باللاحاق بها والتعرف إليها، ماذا لو كانت مريم، ما الدليل على موتها سوى ذاك الخبر الذي خرج من السجن من إحدى المعتقلات، ماذا لو كان خبرًا كاذبًا كالكثير من الأخبار الشائعة التي حدثت في البلاد، والكثير من المعتقلين الذين خرجوا بعد سنوات من إقامة العزاء لهم، وقد وصل خبر موتهم من دائرة السجن ليكشف الأهل عن البحث والسؤال، فيجد المعتقل حياةً غير تلك التي تركها، زوجته تزوجت، أو خطيبته رحلت، وأحدهم قد خرج هائمًا على وجهه فاقداً لعقله بعدما وجد زوجته قد تزوجت من أخيه، ما نفع العقل حينذاك، حينما يخرج أحدهم ولا يجد أحدًا بانتظاره، كالمعتقلة حسنة التي خرجت ووجدت جميع أبنائها وزوجها شهداء، يشعر بندم يحتل



كيانه، ليته قام بالبحث عن مريم والسؤال عنها حتى ولو استعان بالشياطين، ما نفع الكلام الآن وقد مرت أعوام كثيرة على اعتقالها، وعام على خبر وفاتها، وها هو الآن يقصد البحر ليشق طريقه إلى أوروبا، ويبدأ فيها حياة جديدة، أي حياة تلك سأعيشها بدونك يا مريم، سأبحث عنك إن كنتِ على قيد الحياة، أو أجد قبرك الذي ضم رفاتك، ولو كنت في آخر الدنيا.

الليل يمر ثقيلًا والذكرى تؤرقها، والحنين يعض بأنياه الجوارح فيدميها شوقًا، طيفه العابر أجم في نفسها الذكريات الجميلة التي عاشتها مع أسامة، وباتت الآن تؤلمها، السعادة التي ترحل مع أصحابها تغدو وجعًا وجرحًا عميقًا في النفس لا يزول، فهل نتجنب السعادة لنتجنب الألم، بالطبع لا، ولكنها أقدار حكمت علينا وسنعيشها شئنا أم أبينا، لنستغل اللحظات مع من نحب ونعيشها بتفاصيلها، لنعيش ألم انتهائها فيما بعد بلذة مختلفة.



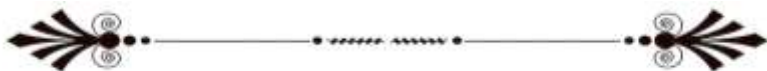
الفصل الثامن

(1)

إحدى صباحات أيلول 2015

البحر هائج وأمواجه تتلاطم وتتكسر على الصخور وكأنها حرب قامت على شطآنه، الهاربون من الوطن يقفون أمامه على أمل الوصول إلى الطرف الآخر حيث شاطئ الأمان المزعوم، عائلات بأكملها مع أطفالهم يرتدون ستر النجاة، ينظرون إلى بعضهم بعيون قلقة، يحملون القليل من الأمتعة التي اختاروها من بين كل الأشياء التي تركوها خلفهم، ذكرياتهم هي أغلى ما يملكون، ينتظرون القارب المطاطي الذي سيقلهم ويشق البحر الواسع بآمالهم وأحلامهم بحثًا عن الاستقرار، يرمون بأرواحهم إلى عباب البحر عله يسلمها لهم أمانة، لا خوف من موت بعد أن ضاقت الحياة، فإما تهلكة أو نجاة، ولكن المصاب الجلل حينما يصل البعض ويرحل الآخر، فأي مأساة تلك التي سيعيشها هؤلاء وهم يطعمون بأيديهم أحبابهم لأعماق البحر، منذ بدأت الثورة والسوريون هائمون على وجوههم في كل أصقاع الأرض، فاقدين أو مفقودين، والبؤس يرافقهم أينما حلوا.

- اسمعي يا نور، سركب القارب بعد قليل، أريد منك أن تبقي بجانبى ووالديك بالقرب منا، تمسكي بي جيدًا، القارب سيتأرجح كثيرًا فحاولي أن تثبتي، كلها ساعات قليلة وسنصل.



- أنا خائفة يا وليد.
- لا تخافي أنا معك، وأسامة سيجلس بالقرب من والدك، سنكون جميعنا معًا.
- لا تفلت يدي يا وليد، أخشى الغرق.
- لن أتركك يا حبيبتي، أريد منك أن تكوني قوية لأجل والدتك، إن رأيتك خائفة ستخاف هي الأخرى، سنصمد حتى نصل وأعدك لن تخافي بعد اليوم. خلعت من يدها محبس الخطوبة وفكت العقد الذي حول عنقها، ووضعتهما في يد وليد.
- احتفظ بهما في الحقيبة مع باقي الأشياء الثمينة حتى نصل.
- ولماذا لا تبقيهما معك.
- هكذا أفضل، إن غرقت تبقى معك.
- وما حاجتي بها حينها، ثم ما هذا الهراء؟ لا تتفوهي بهذا الكلام، سنصل معًا ولن يصيبك أي مكروه.
- إن شاء الله حينما نصل أرديها كفى نقاشًا.
- تجلس أم جهاد على صخرة وتتم في نفسها آيات من القرآن، بثبات وصلابة تطلق بناظريها إلى البحر أبو جهاد يقف بالقرب منها، يحدثها وكأنه في زمن آخر، يروي لها كيف رمى بنفسه إلى البحر في يوم أمس ولم يكن يعرف السباحة، لا يوجد بحر في حمص، لذلك لا يعرف أبنائه أسرارها

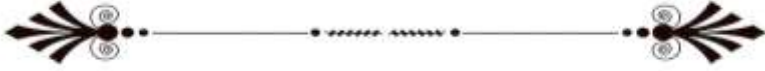


وعمقه، لذا قرر أن يعلم أبناءه السباحة منذ الصغر، ووعدّها إن أنجبوا ذكرًا سيأتي به إلى البحر كثيرًا كي يعتاد عليه.

ابتسمت أم جهاد لحديثه وترحمت على جهاد ومريم، أبو جهاد ما زال عاليًا في تلك الحقبة من الزمن، تغبطه على ذاكرته التي تخلصت من كل الذكريات المؤلمة، واحتفظت بما مضى وكان جميلًا.

أنت ساعة الانطلاق، يأمرهم المهرب أن يلزموا أماكنهم في القارب، احتشدت العائلات فيه وبدأ يتمايل يمنة ويسرة، صوت المحرك امتزج مع صوت الأمواج التي بدأت تلمطه من كل جانب، الخوف يحتل النفوس، وتربق الوقت لينتهي من أصعب لحظات الانتظار، إن حال فهم الحظ سيرسون على شاطئ اليونان خلال نصف ساعة، وإن حدث عكس ذلك سيمضون ساعاتٍ وسط البحر حتى يصبح الطريق آمنًا، كانت الشمس تشرق ناعسةً من بين الجبال البعيدة، والبحر يتمطى بين اليابستين، صمت يحل بشكل مفاجئ وهدير المحرك يتوقف، يحاول المهرب أن يعيد تشغيله، يتململ المحرك ثم يعاود الصمت، الركاب الذين يتجاوز عددهم عن الأربعين راكبًا يترقبون بسكون، يصرخ أحدهم: ما الأمر؟

المهرب يخبرهم بأن المحرك تعطل ولم يتبق سوى القليل للوصول إلى اليابسة، يصرخ الأطفال وتبكي النساء، ويرتعد الرجال خوفًا، والأمواج في حالة جنون، تصرخ نور: سنغرق جميعًا، يتشبث بها وليد ويهدئ من



روعها، المياه تهجم كألسنة اللهب إلى القارب وتبلل الجميع، أحدهم يقفز من القارب هلعًا، يصرخ المهرب بهم:
- لا تتحركوا ولا يرمي أحدكم بنفسه في المياه وإلا انقلب القارب بنا، سأصل بخفر السواحل اليونانية عله يرسل لنا قوارب نجاة، لم يتبق سوى القليل ونصل.

تصاب نور بالدوار وبرغبة في التقيؤ، تغمض عينيها، ظلام يحل من حولها، تتشبث بيد وليد ثم ترتخي يدها، يحاول إيقاظها يرتفع القارب إلى الأعلى تحمله الموجة ثم ينخفض بتموج مرعب، يبتلع البحر نصف الركاب، ينظر وليد بجانبه فلا يرى نور، يصرخ بأعلى صوته هائجًا كأمواج البحر، لتصمت صراخه موجة أخرى ويغرق الجميع.

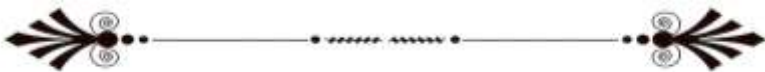


(2)

الأيام التي تمر على وتيرة واحدة تبعث في النفس السأم، وقد سئمت مريم الحياة التي تعيشها بروتينها القاتل، بصمتها الذي يشبه الصراخ المكتوم، بسجنها الذي تعيشه بين جدران أربع، بعد عودتها من عملها تعزل الجميع وتجلس وحدها هائمة في الذكريات، تتجنب الخروج في جولات على المدينة كما تفعل الأخريات، تجد في وحدتها ملاذًا آمنًا من كل شيء، ترفض الحديث عما يخص حياتها، دموعها خليلتها في وحدتها، حتى حينما تمرض كانت ترفض أن تعرض على طبيب، لتقاوم مرضها وحدها، تفتقد لحياتها التي كانت تعيشها بين عائلتها، لدفء البيت وحنان الأخوة، للحب الذي رعته كنبته حتى نما وأزهر وكادت أن تقطف ثماره، أي حياة تلك التي حكمت عليها حتى تعيشها دون معنى، فاقدة لكل شيء وكأن الحياة لا تصلح للحياة.

تستمع لصوت الأطفال الذين يطوفون حول أمهاتهم فرحين، لبكاء الرضع ليلاً كي تستيقظ أمهاتهم لأجلهم وينعمون بحضن دافئ حتى الصباح، تغبط النساء من حولها اللوات يعشن لأجل أطفالهن ولوجود قطعة من أكبادهن يسعين لرؤيتهم يكبرون أمام أعينهن، يمنحونهن الفرح ويعوضوهن عما مضى، فلا شيء يعيش؟

تتذكر أطفالها التي كانت تحلم بإنجابهم، بأسمائهم التي اختارتها لهم، تتخيلهم يحملون ملامح أبيهم وحنانه، دفنهم الوطن قبل أن تنجبهم



وتُطرب قلبها بسماع مخلوق صغير ينادي ماما، كل ما كانت تحلم به ضاع في دهاليز الظلام هناك، خرجت مجردة من شعور بأنها إنسان، جثة تنفّس فقط وتسير على قدمين، تعتزل الأحياء لعدم شعورها بالانتماء إليهم، جثة مليئة بالندوب، والجرح في الأعماق مازال ينزف، تنزوي في زاويتها المخصصة للعمل وهي تجلي الصحن، نشبت بينهما علاقة قوية، تدعكها بكلتا يديها لتزيل عنها بقايا الطعام والدسم، وتغسلها بالماء، ليتها تستطيع أن تغسل كل ما علق في نفسها بالماء والصابون، لكن ما الفائدة من غسل وعاء مكسور، حتى ولو تم تصليحه فلن يعد صالحًا للاستخدام مرة أخرى.

متمددة في سريرها وعيناها معلقتان بالسقف، يقطع خلوتها طرقات على الباب وتطل زميلتها في السكن برأسها وتستأذن الدخول، تعتدل في جلستها وتزيح الغطاء لتسمح لزائرتها في الجلوس، رائحة الشاي تتصاعد من الصينية التي تحملها بيدها وقطع من البسكويت في صحن بجوار الكاسات، تضع الصينية على طاولة صغيرة أمامهما، وتجلس بجوارها على السرير، لم تكن زميلتها في السكن وحسب، بل كانت رفيقتها في المعتقل وخرجتا معًا، كانت تغبطها على هدوئها وصلابتها وقوة نفسها في تجاوز كل ما مر عليها، لربما ساعدها في ذلك أطفالها الثلاثة التي تربيهما في غربتها ويكبرون أمامها، الوحيدة التي تعلم حقيقة مريم وبؤسها، وكتمت الحقيقة عن باقي زميلات السكن حتى اسمها الحقيقي تلبية لرغبة مريم،



عينها الضيقتان تنظران إلى مريم وهالتها توحى بأن هناك شيئاً ما تريد الحديث به.

- إلى متى ستبقين على هذه الحال يا أختي.

- إلى أن يشاء الله.

- لكن الله لا يرضى عما تفعله بنفسك، عزلتك هذه لربما سببت لك مرضاً ما، منحنا الله الحياة بكرم منه بعدما كاد يقضى علينا، فلماذا نهدرها هكذا، إن لجسدك عليك حق، ولنفسك حق.

- صدقتِ يا هدى ولكني لا أستطيع أن أخرج من عزلتي أشعر بالخوف من كل شيء.

- مما تخافين، هنا لا يعرفك أحد، لا يجب علينا الاستسلام لابد وأن نتجاوز كل ما مضى.

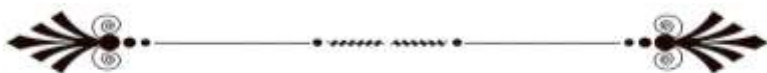
رشفت من كأس الشاي أمامها ثم تابعت حديثها:

- بالمناسبة هناك صحيفة قابلتها في إحدى الجمعيات وتحدثنا قليلاً، ترغب في زيارتنا لتتحدث أكثر وتقابل جميع النساء هنا.

ارتجفت يد مريم واهتز كأس الشاي بيدها، حتى سقطت قطرات منه على يديها، فوضعتة على الطاولة، تناولت منديلاً ومسحت يدها.

- ما الذي تريده الصحيفة، وعن أي شيء تحدثتما.

- مهمة بقضايا النساء مثلنا، وتحاول إيصال قصصهن إلى الجهات المعنية للمساعدة، ليس هذا وحسب، بل تحاول أن تجمع معلومات من المعتقلات



عن أسماء رفيقاتهن في السجن، الكثير منهن مفقودات ويسعى أهاليهن لمعرفة أي خبر عنهن.

- بإمكانني المساعدة، فأنا أحفظ أسماء الجميع هناك ولكن دون أن أقابلها شخصيًا.

- كيف ستتواصلين معها إذن.

- عن طريق الهاتف، سأحمل تطبيق الواتس أب وأحدثها كتابة.

- ألهذا الحد تخشين الحديث مع الناس.

- لا أريد أن تعرف عني شيئًا، لا أريد أن يصل أي خبر عني لأهلي ومن يعرفني.

- كما تشائين، واجبنا الحديث وعدم الصمت، وربما استطعنا إنقاذ من في السجون، يجب أن يصل صوتهن ويعلم العالم بالظلم الذي وقع علينا والممارسات الوحشية التي مورست بحقنا، نحن شاهدات عما حدث ويحدث كل يوم، يجب أن ندافع عن المظلومات، يكفيهن ما عاينته من عذاب السجن وظلم المجتمع، ليعلم الجميع ما يحدث في تلك الأقبية، كفانا صمتًا وخجلًا، أنت محامية وهذا جزء من عملك، وتعلمين جيدًا ما الذي بإمكانك فعله.

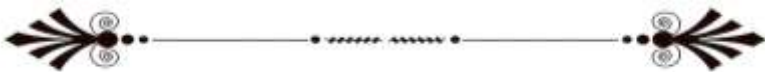
- بالتأكيد، لنفعل شيئًا مفيدًا في هذه الحياة ونساعد المظلومات ما استطعنا، أشكرك يا هدى، بعثت في نفسي الأمل والرغبة في فعل شيء في هذه الحياة.



- لا تشكريني يا مريم، لم يكن لدي أدنى شك بمساعدتك، تحملين بين ضلوعك قلباً نقيّاً طاهراً محبّاً للغير، عزلتك هذه لن تفيدك في شيء، على العكس ستدمرك نفسياً، وتكونين قد حققتِ مرادهم، لن نقف مكتوفي الأيدي ونجلس صامتين عما يحدث في المعتقلات، واجبنا أن نتحدث ولا نتجلى من شيء، لا ذنب لك بكل ما حدث، انفضي عن كاهلك غبار اليأس والتذمر، الكثيرات ضحايا الظلم وينتظرن أحداً يتحدث عن مأساتهن، ليعلم الجميع ما يحصل من انتهاكات لحقوق الإنسان في سراديبهم، لا تستهيني بالكلمة فربما تغير شيئاً، لست بحاجة لأن أخبرك بهذا الكلام، أنت فتاة مثقفة ولا حاجة لأحد أن يخبرك بهذا، لتكن زكاة نجاتنا أن نتحدث، وليكن شعارنا لا للصمت، أستأذنك الآن.

كانت تستمع مريم لكلامها وقد تأثرت بكل كلمة قالتها هدى، عيناها تترقق بعد أن امتلأت بالدموع، فيض من مشاعر اجتاحتها فهمت لاحتضان هدى قبل أن تنهض.

توارت هدى خلف الباب بعد أن خرجت وتركته موارباً، استلقت مريم على سريرها وبدأت تفكر بكلامها، رعشة بدأت تتسلل إلى أطرافها على الرغم من حرارة الجو والرطوبة العالية التي تتميز بها هاتاي، سحبت الغطاء وتدثرت به، ترتعد أطرافها، أخرجت يدها من تحت الغطاء وتأملمتها، اليد التي لطالما كانت تكتب كل ما يحدث، والتي هجرت القلم منذ يوم اعتقالها، صدقت هدى في أن الكلمة بإمكانها أن تصنع الكثير، ولطالما كانت تؤمن



بذلك، الكلمة التي جعلت الكثيرين يتوارون خلف القضبان، هي ذاتها بإمكانها أن تحررهم، حتى ولو طال الأمر، من لا يجاهد بالسلاح يجاهد بالقلم، كم من كلمات استطاعت أن تغير وجه العالم، كرواية كوخ العم توم للكاتبة الأمريكية هيريت ستو والتي فجرت بعد صدورها الحرب الأهلية في أمريكا الجنوبية، وأثارت مواجهات عنيفة بين دعاة الرق ومعارضيه، وساعدت في تأجيج قضية المطالبة بإلغاء الرقيق عام 1850، لقد أحدثت الرواية أثرًا عظيمًا في تشكيل وعي شعبي رافض للعبودية، وتأجيج النفوس على رفض الاستبداد.

الكلمة لها أثرها وفعلها على مد العصور، لو كانت غير ذلك لما حارب النظام السوري المثقفين والكتاب ممكن ينقلون صورة عن الواقع وما توارى الكثير منهم في السجون منذ عقود مضت وحتى الآن.

-لابد لي من العودة إلى القلم، عله ينتزع مني تلك الوحدة التي أعيشها، وأستفرغ ذاكرتي التي تضنني على الورق، لطالما كانت الكتابة مؤنستي فلماذا تخلت عنها طوال هذه السنين وفي جعبي الكثير من الحكايا، حكاية وطن بأكمله من شوارعه وبيوته حتى ما تحت أرضه من سجون ومعتقلات، لا يوجد ما يقيد قلبي هنا، ولكن..

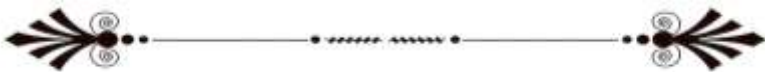
ارتجفت مريم وهي تحدث نفسها وشعرت برهبة الفكرة التي سيطرت عليها، أخذت نفسًا عميقًا ودفعت الهواء بقوة من رئتيها، وكررت العملية



عدة مرات، لطالما كان أسامة يحثها على التنفس بهذه الطريقة حينما تشعر بالتوتر.

حضرت الصحفية ياسمين في السكن التي تقيم فيه مريم، لكنها اعتذرت على لقاءها شخصياً وفضلت الحديث معها على الواقس أب كتابةً، لا تريد الظهور ولا الإدلاء باسمها الحقيقي يكفي أن تتحدث عما مرت به، وافقت الصحفية على ذلك وبدأتا بالحديث معاً كل مساء بعد عودتها من العمل، بدأت تشعر بالحماس للحديث وبإفراغ كل ما يجول في ذهنها على الورق، أخبرت الصحفية بأنها ستدون لها الكثير وترسله لها عليها توصله إلى العالم.

في أول محادثة بينهما، طلبت الصحفية من مريم بالتعريف عن نفسها لكنها أجابتها قائلةً (استري علي الله يستر عليك) فأجبتها ياسمين: -لماذا يا عزيزتي، أنت فتاة مستورة وإن كشف سترك الذئاب ونهشوا لحمك الطاهر، أنت مازلت طاهرة، يكفي بأنك أمام الله لا ذنب لك سوى أنك وقعت ضحية للظلم في بلد لا يعرف للعدل مكان ولا يرأف بامرأة أو طفل إن كان الأمر يمس الدولة حتى ولو زوراً وبهتاناً، لا أعلم لماذا يتجردون من إنسانيتهم بهذا الشكل حينما يجلسون على تلك الكراسي في تلك الأماكن المظلمة والظلمة التي تشبه إلى حد كبير الكهوف المهجورة والتي لا يقطنها سوى الخفافيش، هم كذلك أخذوا طبعها في الفساد ليلاً والعيش على الدماء.



بدأت مريم بكتابة مذكراتها وترسلها بالتواتر إلى ياسمين، وطالت الأحاديث بينهما حتى أصبحتا صديقتين حميمتين، كانت تناديهما باسمها المستعار، ولكنهما لم يتقابلا بعد، سوى أنهما باتا يتحدثان اتصالاً صوتياً بعد إلحاح ياسمين ليتحدثا أكثر ويختصرا الوقت.

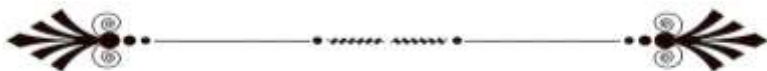
كانت ياسمين تعمل في منظمة حقوقية تهتم بالنساء وقد وضعت اسم (ناجيات) لهذه المبادرة، بالإضافة إلى إحصاء أكبر عدد ممكن من أسماء من تبقى في السجون والبحث عن أهاليهن، حتى جمعت أكبر عدد من المعلومات عن الكثيرات في الداخل السوري والخارج وفي بلاد الشتات.

-ألا تفكرين بالسفر إلى الخارج؟

كان ذلك سؤال ياسمين لمريم في إحدى اتصالاتها، محاولة منها لمساعدتها في الخروج من عزلتها التي تعيشها، عليها تبدأ حياة جديدة هناك بعيداً عما يذكرها بماضيها، ربما تتاح لها فرص أكبر لتثبت ذاتها، أن تنال شيئاً من حقوقها وحرية التعبير، باعتبار أن الدول الغربية تمنحها حق اللجوء وتساعدنا في تأمين حياتها، لكن مريم كان لها وجهة نظر أخرى، وإن استطاعت هناك أن تحصل على كل شيء، فهذا لا يعني أن أوروبا هي الخيار الأفضل، والحرية التي يزعمون ليست كذلك التي خرجوا لأجلها، الأماكن لن تنقذها إن لم تنقذ هي نفسها من برائن الماضي وندوبه، إن لم تكن لها القدرة على مواجهة العالم بشخصيتها الحقيقية، فلن تتجرأ على أن تكونها هناك، العيب ليس في الأماكن بل بقدرتنا ودوافعنا، أصابت ياسمين في



شيء واحد وهو بإمكان مريم هناك أن تكون حرة بأفكارها دون أن تخشى من المحاسبة، ولا أحد سينظر إليها نظرة ازدراء على أنها كانت معتقلة سابقة، بل ربما يقدمون لها الدعم الكافي لتنهض بنفسها إن كانت لها الإرادة في ذلك، حاولت ياسمين أن تقنع مريم بالفكرة وبإمكانها مساعدتها في السفر من خلال المنظمة لتكون أوراقها للسفر جاهزة بعد أقل من عام إن شاءت، لكنها أخبرتها بأن تمنحها وقتًا كافيًا للتفكير واتخاذ القرار.



(3)

العائلة في حزن على نور التي فُقدت في عرض البحر، بكاء أمها لم يتوقف
ووليد يلوم نفسه لأنه لم يستطع التشبث بها وإنقاذها حينما سقطت في
المياه واختفت وكأن البحر ابتلعها، في ذلك اليوم تم إنقاذ الناس من قبل
خفر السواحل اليوناني وانتشال الجثث.

على الشاطئ كان وليد يتفحص الجثث الواحدة تلو الأخرى دون العثور على
نور، يقف أمام البحر صارخًا باسمها دون جواب حتى صوته تبتلعه الأمواج
دون صدى.

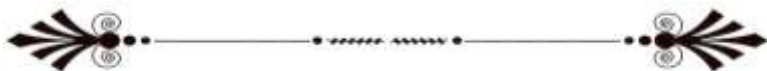
رسا جسد نور الذي كان يتمسك بالحياة على الشاطئ، بعدما قذفتها
الأمواج بعيدًا عن باقي الجثث التي تم انتشالها، حتى وُجدت وحيدة تغطيها
الرمال وتحلق من فوقها الطيور.



النهاية

وتمر الأيام.... كانون الأول 2017

- رأيت فتاة تشبه نور إلى حد كبير.
- يخبر أسامة وليد في اتصال هاتفي، بعدما وصل إلى هولندا في سفره الأخير، يطلق وليد تنهيدة أسف من صدره كافية لإشعال موقد.
- لن أسامح نفسي على فقدانها، لا أعتقد بأنها على قيد الحياة، ولكن لأنني لم أر جثة لها من بين الغرق فأنا آمل أن ألتقيها يوماً ما.
- لأول وهلة كدت أن أصرخ باسمها، لكني ترويت قليلاً خشية من غضب الفتاة التي كانت تجلس أمامي على بعد عدة مقاعد في الطائرة، مذ رأيتها في المطار تجرح قوائمها وتسال الناس عن الإجراءات بدت كأنها تسافر لأول مرة، لكنها مختلفة عن نور بطريقة ملابسها، لم تكن محجبة، لو كانت ترتدي ملابس نور فلن أشك ثانية بأنها هي.
- صمت وليد لبرهة وهو يفكر بكلام أسامة ثم قال:
- وماذا لو كانت هي بالفعل؟
- لا أعتقد، لقد دعيتني لحضور معرض الرسم الذي سيقام في امستردام بعد عدة أيام، ولدي فضول في حضوره لأتعرّف إليها أكثر، يكفي أنها سورية وبحاجة للدعم من أبناء بلدها.



- هل قلت معرضاً للرسم؟
- أجل، كانت تحمل حقيبة كبيرة أعتقد أنها تحمل فيها لوحاتها.
- اعتدل وليد في جلسته، ونقل الهاتف إلى يده الأخرى، اتسعت حدقتا عينيه، واحمر وجهه.
- أسامة، لقد كانت نور مهووسة بالرسم وأنت تعلم هذا جيداً.
- صحيح لم أنتبه لهذه النقطة، هذا قاسم مشترك بينهما عدا عن الشبه الكبير.
- إن كانت بالفعل نور لماذا تخفي شخصيتها الحقيقية ولماذا نزعْتَ الحجاب أيضاً، وأين كانت طوال هذه المدة.
- كيف لنا أن نفترض بأنها نور وهي لم تبد أي ردة فعل حينما رأيتني، ألا يجب أن تتوتر لرؤيتي لأنها ستعرفني بالتأكيد، ولماذا ستتهرب مني أيضاً، نور لا تبدو بهذه الصورة فهي لا تتجرد من حقيقتها ولا يوجد سبب لتهرب من أهلها.
- هناك سر ما بالتأكيد، أريد حضور المعرض ورؤية الفتاة بنفسي، فلن يعرفها أحد بقدر معرفتي بها، ولن تستطيع الهرب إن رأيتني.
- إن كانت هي بالفعل، فسنعلم هذا بالتأكيد.
- تماماً هذا ما أقصده، سأقطع تذكرة على امستردام في الحال لن أحتمل الانتظار.

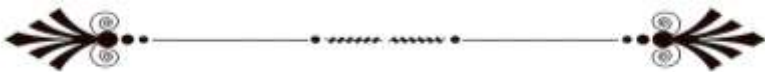


يوم المعرض..

استيقظت جوليا ونهضت من سريرها وهي تعاني صداعًا في رأسها، تترنح في مشيتها وكأنها كانت في حرب ما، الأحلام التي تراودها مؤخرًا كانت تتسبب لها بالصداع طوال اليوم، لقد قضت ليلتها تحلم بالطبيب الذي قابلته في المطار، أحداث كثيرة مرت في نومها لا تستطيع أن تتذكرها تمامًا، عليها أن تركز في شيء واحد وهو فعاليات المعرض التي ستبدأ اليوم وعليها أن تكون في كامل نشاطها.

مضت ليلتها في قراءة الرواية التي أرسلتها ياسمين، لم تستطع تركها حتى أنهتها، شعرت بأنها تشارك شخصيات الرواية حياتهم، تشعر بأحاسيسهم، ضحكت، بكت، خافت، كل كلمة وقعت في نفسها قد تركت أثرًا فيها، رأت الشخصيات في حلمها ومن بينهم الطبيب، كانوا يحيطون بها جميعًا، يبتسمون لها، ولا تتذكر أكثر من ذلك.

ارتدت ملابس أنيقة وهبطت إلى الطابق السفلي في الفندق وطلبت فنجان قهوة ليعيد إليها صحتها، أنهت قهوتها وطلبت وجبة الإفطار، كانت موسيقى بيتهوفن تنبعث من جهاز الفونوغراف المكون في زاوية المكان الذي بدا أثرًا بديكورات البوهيمية ولوحاته، تسلى الهدوء إلى نفسها والاسترخاء، كادت أن تغض عينيها لولا أن نقرات على كتفها جعلتها



تلفتت إلى الخلف، ضحك ألبرت وسحب كرسيًا أمامها وجلس عليه، وبدأ يسألها عن استعدادها لهذا اليوم، وأخبرها بأن هناك مفاجأة في انتظارها.

- أنا متحمسة جدًا، لم أستطع النوم بما يكفي هذه الليلة، أعتقد بأنني رأيت أحلامًا كثيرة كلما غفوت قليلًا، أنا لا أصدق بأنني بت أستغني عن مفكرتي في تذكر الأشياء، لم أعد أنسى ما أفعله أو ما يمر في يومي، لكن صداغًا رهيبًا يلازمي.

- جميل جدًا، سعيد بهذا الخبر، وهناك آخرون سيكونون سعيدين بذلك.

- من هم الآخرين؟

- هل قلت آخرون؟ لا شيء، أقصد من سيشاهد رسوماتك ويتعرف عليك في المعرض، هيا هل أنت جاهزة للذهاب؟

- نعم على أتم الاستعداد.

- سنقوم بجولة قصيرة في السيارة ثم نعود إلى المعرض.

حملت حقيبتها، وسارت بجواره وخرجًا باتجاه السيارة، فتح لها الباب الخلفي ودعاها للجلوس، نظرت إليه باستغراب وجلست في المقعد، فتح باب السيارة الأمامي وجلس خلف المقود، سألته:

- لماذا لا أجلس بجوارك؟

- هذا أتكيت يا سيدتي أنا هنا في خدمتك.

ابتسمت جوليا، ونظرت نحو النافذة تشاهد الأبنية الجميلة وكأنها لوحات مرسومة، المحلات التجارية على جانبي الطريق، الناس بجميع ألوانهم



يسيرون على الرصيف، أو يقفون على أبواب المحلات، بائع جرائد يقف على زاوية الطريق، وآخر يعزف على الكمان ويجتمع الناس من حوله، لمحت شابين يقفان أمام أحد المقاهي يتحادثان، أحدهما كان الطبيب الذي رآته في المطار والآخر يفوقه طولاً، تذكرت الطبيب جيداً فلم تعد تنسى كثيراً، خفق قلبها لرؤيتهم دون أن تعلم لماذا.

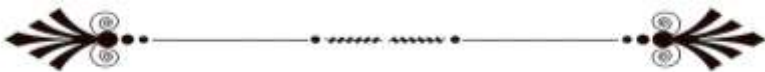
أوقف ألبرت السيارة أمام محل زهور وطلب من جوليا الانتظار، غاب قليلاً ثم عاد وبيده باقة زهور بيضاء، ناولها إياها من نافذة السيارة وعاد وصعد خلف المقود وأدار محرك السيارة للانطلاق إلى متحف فان كوخ حيث سيقام المعرض.

- الأبيض مجدداً.

- لون الفرع يا جوليا، يليق بك كثيراً.

قربت الزهور من أنفها وأخذت نفساً عميقاً منها، شكرته على هذه الهدية التي تحب، وراحت تداعب بتلاتها بأصابعها، تخيلت لو بيدها الفرشة ولونت جميع الزهور، لكنها رأت بأن تبقى بيضاء هكذا على حالها.

دخلت جوليا وألبرت إلى المتحف وتوجها نحو الركن المخصص للمعرض، رأت الحضور قد سبقوهم إليه، يقفون أمام اللوحات يتأملونها ويبدون إعجاباً بها، شعرت بالزهو حينما شاهدت لوحاتها معلقة على الجدران، بجانب لوحات رسامين آخرين، ناولت باقة الزهور لأحد المشرفين على المعرض ليضعها في فازة زجاجية على الطاولة المخصصة لها، تجولت بين



الحضور تحدثهم عن لوحاتها بفخر، ينتابها الخجل حيناً، والشجاعة حيناً آخر، تقف عند كل لوحة تحدثهم عن ظروف رسمها، والمعنى الكامن فيها، من استخدامها للألوان إلى اختيارها للأشكال، مستعينة بمفكرتها حيناً أو تسرد عليهم ما تسعفها ذاكرتها في استحضاره حيناً آخر، تتلفت من حولها تتأمل وجوه الحاضرين، تبحث عن وجه الطبيب الذي دعته للحضور، والذي لمحتة في الشارع وهي في السيارة، في ملامحه سر ما وكأنه أحد أبطال الرواية التي كتبتها ياسمين، ومضت ليلتها في قراءتها، لم تكن النهاية واضحة، انتهت حينما غادرت مريم البلاد وكأن هناك فصل آخر لا بد من معرفته لتكتمل الحكاية، لم يكن لديها الوقت الكافي لتتواصل مع ياسمين وتخبرها بإنهاء الرواية، التي شعرت بأنها تحمل شيئاً منها، تذكرت بأنها طلبت منها تصوير اللوحات وأجواء المعرض، أخرجت هاتفها المحمول وبدأت بالتصوير.

على أحد الجدران كانت لوحة الشاب الذي رسمته جوليا، صدمت لرؤيتها لأنها لا تتذكر بأنها كانت من بين اللوحات التي جاءت بها، ولم تكن تعتقد بأنها صالحة للعرض بعد حادثة انسكاب اللون الأحمر عليها، كان يتجمهر أمام اللوحة عدد كبير من المتفرجين، اهتزت الأرض من تحتها، وشعرت بالدوار، أمسكها ألبرت من يدها بعدما لاحظ اضطرابها، وسحبها نحو طاولتها لتجلس قليلاً.

-هل أنت بخير يا جوليا؟

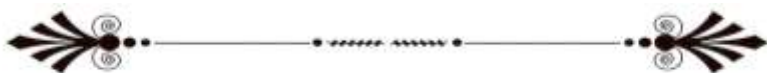


كانت تضغط بأصابعها على مصدغيها، مغمضة عينيها وقد شحب لونها.
- بخير، قليل من الدوار فقط، وهذا الصداع اللعين الذي يأتي على شكل نوبات كصعقات كهربائية، ربما لأنني لم أنم جيدًا الليلة.
- لا عليكِ سأطلب لك كأس ليمون، وستشعرين بتحسن، أريدك أن تكوني بأحسن حال، المفاجأة التي وعدتك بها ستكون جاهزة بعد قليل.
لم تركز جوليا في كلامه، ولم تهتم بأمر المفاجأة، كانت تحدث نفسها وتلومها كيف أتت بتلك اللوحة إلى هنا، وماذا سيقول الناس عنها، حضر كأس الليمون أمامها، ولم تلحظ من الذي جاء به، شعرت بنفسها خارج المكان، لم تعد تسمع ما حولها، أحدهم يجلس أمامها يحادثها، صوته ليس غريبًا، حاولت العودة إلى صحتها رفعت رأسها ونظرت أمامها وقد أصابتها الصدمة.

-رامي!

كان رامي يجلس أمامها بكامل أناقته، مبتسمًا لها، عيناه تنظران إليها بكل حب.

- أين كنت طوال هذه المدة، وما الذي جاء بك إلى هنا؟
- هل هكذا تستقبلين ضيفك، ألسنت مشتاقة لي.
- تبًا لك، اعتقدت بأنك مت وقد نسيتك أساسًا.
- لقد ابتعدت لأجلك، قمت بأعمال كثيرة وجمعت مالا، ستقولين لماذا لم أخبرك، لقد تعمدت ذلك، كان ذلك جزءًا من علاجك، هكذا طلب مني



الطبيب، لتعتمدي على نفسك وذاكرتك، ومنها تستقر عواطفك نحوي وتتوضح أكثر، أما الآن لقد جئت لحضور المعرض ورؤية إنجازاتك، لن أتركك بعد اليوم، طوال هذه المدة كنت على تواصل مع ألبرت ليطمئنني عنك، وقد رتبنا سوياً لهذا المعرض.

- ألبرت اللعين كان يعلم بمكانك ولم يخبرني.

تحدث إليه ونظراتها تجوب المكان، القلق بدا واضحاً على ملامحها، تلفت رامي من حوله ثم أعاد نظره إليها متسائلاً:

- هل تبحثين عن أحد؟

ارتبكت لسؤاله، وفي عينيها حيرة واضحة، أطلقت إجابتها وكأنها تريد مساعدته.

- التقيت بشاب في المطار في رحلة قدومي إلى هنا، وقمت بدعوته للحضور لأنه كان مصرّاً ليتحدث معي، لكني لا أجده بين الحضور.

زم شفتيه متعجباً، وأصابعه تتخلل شعره، وقد سرت في قلبه غيرة حاول كتمها.

- ماذا يريد الشاب منك، ومنذ متى كنت تهتمين بأمر كهذا؟

- لا أعلم يا رامي شعور غريب ينتابني كلما تذكرته.

ابتسم رامي وأمسك يدها وبدأ يداعب أصابعها فوق الطاولة.

- ما يهمني هو أنك بدأت بتذكر الأشياء وهذه علامة جيدة.



سحبت يدها من بين يديه، وعلا الغضب وجهها.

- لا تعتقد بأن غيابك هو ما جعل ذاكرتي تتحسن، أنت لا تعلم كيف قضيت أيامي وحيدة، ولم يعد يهمني أن أكمل حياتي بدونك.

- لا تغضبي وأرجو أن تسامحيني، أنا لا أريد أن أكمل حياتي بدونك، الأهم من هذا كله هو..

أخرج من جيبه صندوقًا صغيرًا بلون أحمر، فتحه وقد بان داخله ماسة صغيرة تعلو خاتم خطوبة، قدمه إلى جوليا مبتسمًا، والحمرة تعلو وجهه.

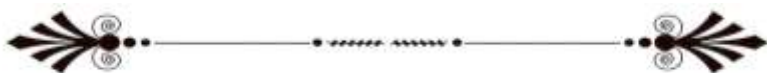
- هل تقبلين الزواج مني؟

نهضت جوليا من مكانها غاضبة، وما إن وقفت، حتى شاهدت شابين يتقدمان نحوها، كان أحدهما الطبيب الذي دعت له لحضور المعرض، وكانت بانتظاره حتى فقدت الأمل في مجيئه.

لكنه لم يحضر بمفرده!

وقع قلبها من بين ضلوعها، وتسارعت الدماء في عروقها، وتجمدت مكانها كأن أحدًا قيّد قدميها ومنعها من الحركة، وقف الشبان أمامها وهما ينظران إليها، ولتفادي الإحراج ألقى الطبيب السلام عليها وعلى رامي الذي نهض ووقف بجوار جوليا.

عرف الطبيب عن نفسه وعن صديقه الذي يصطحبه، واستأذن منهما الجلوس إليهما والحديث.



كانت جوليا في عالم آخر، خارج حدود الدنيا، تحلق بنجاحين من نور ثم تهبط إلى الأرض لتحط في عيني الشاب. كانت تغرق، أنفاسها تنقطع، المياه قد ملأت المكان، وصلت حتى عنقها، لوحاتها تطفو وتتساقط من على الجدران، صراخ، بكاء، وحشرات، رائحة البحر تخترق أنفها، صور كشريط سينمائي تمر بسرعة من أمامها، رصاصة من البعيد تخترق رأس الشاب في اللوحة المعلقة، شخصيات الرواية التي قرأتها بالأمس، يخرجون من اللوحات الواحد تلو الآخر، يمشون فوق الماء كأنه سطح أملس صلب، وحدها كانت تغرق، همهمات لا تعرف ماهيتها، تغرق أكثر، تتشبث بيد الشاب، ثم تسقط أرضاً.

....

بضعة أيام، وهي كالأميرة النائمة على سرير في أحد المستشفيات، ينتظرون صحوها بفارغ الصبر، تأكد وليد بأنها نور بعد حديثه مع رامي وإخبارهم بحقيقتها، ومشاهدة الآخر لصورها على هاتف وليد، رغم اعتراضه بادئ الأمر على الحديث خوفاً من خسارة جوليا. لكنه خضع للأمر الواقع رغبة منه في عودة جوليا إلى عائلتها، واستعادة ذاكرتها التي فقدتها في عرض البحر. لوحة الشاب التي رأوها معلقة في المعرض كانت تشبه إلى حد كبير وجه جهاد المدمى، منذ رأوها في المعرض، صرخ أسامة قائلاً:

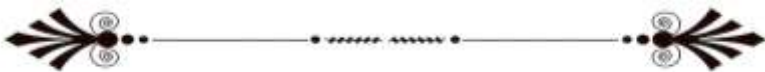


-انظر يا أسامة كم تشبه هذه اللوحة تفاصيل استشهاد جهاد.
حدق وليد بعينه، وقد ارتعدت أوصاله وتسارع نبضه.
- هي نور بالتأكيد وقد رسمت جهاد لأنها الوحيدة التي رآته حينما أصابت
الرصاصة رأسه، وقد قامت بتصوير لحظة مقتله من النافذة.
ثم عقب قائلاً وهو يمسخ بيده طرف عينه:
- لماذا تخفي شخصيتها إذن، وكيف خرجت من البحر وأين كانت طوال هذه
المدة.

-لا بد وأنها تعرضت لصدمة ما على رأسها جعلها تفقد ذاكرتها، عملي
كطبيب نفسي أعلم جيداً، حينما رأيتني لم تكن نظراتها لي توحى بأنها
تذكرني.
- ماذا ننتظر لنذهب ونحادثها، لم أعد أطيع الانتظار.

.....

مريم تخبر ياسمين برغبتها في لقاء نور بعد إقامتها في ألمانيا مؤخراً، كان
قرار السفر قد اتخذته بعد تفكير طويل، وتحسن نفسيته بعد التعرف على
ياسمين وكتابة مذكراتها، قررت أن تبدأ حياة جديدة لن تعتزل فيها الناس،
ولكنها ستحاول بالحفاظ على القليل منهم حولها، كانت بحاجة لإحدى
الصديقات في الغربية، لذلك أرادت أن تقابل جوليا بعد حديث ياسمين
عنها وعن حالها، وقد علمت منها أنها قد قرأت جميع مذكرات مريم التي
جمعتها في رواية والتي أجلت ياسمين نشرها تلبية لرغبة مريم، لهذا فلن



تتكلف عناء الحديث عن نفسها لأنها تعرف الكثير عنها كما تعتقد، ولا حاجة للاختباء خلف اسمها المستعار مجددًا.

هاتف جوليا يرن، الصوت يصدر من حقيبتها، يفتح وليد الحقيبة ويخرج الهاتف، يرى رقمًا دون اسم أعلى الشاشة، يفتح الاتصال ليرده صوت فتاة تعرف بنفسها:

- مرحبًا جوليا، أنا مريم.

تجمد وليد في مكانه واختفت حباله الصوتية من حنجرتة، جحظت عيناه وهو ينظر إلى أسامة الذي كان مشغولًا بقراءة مجلة بيده، التفت نحو وليد لأنه راعه ذاك الصمت الذي أعقب رنين الهاتف، وأقلقه تجمده في مكانه دون أن ينبس ببنت شفة، ولونه الذي شُحِب، مد وليد بيده التي تحمل الهاتف وناولته لأسامة، وعلى الطرف الآخر كانت مريم حائرة في عدم سماعها صوت جوليا وتلح في قول ألو ألو هل تسمعينني أنا مريم. دخل الصوت إلى قلب أسامة وليس إلى مسامعه، نهض على فوره وجوارحه ترتجف.

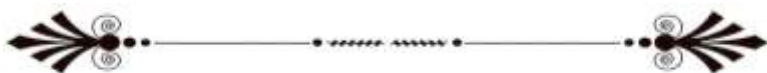
- مريم، مريم، هل قلتِ أنتِ مريم!

.....



هل يعود الأموات يومًا، وتشرق الشمس في غير مياعدها، أيطول الليل ولا ينبلج الصباح، أيبقى الحزن ملازمًا للنفوس أم يأتي الفرح كطائر أبيض يرفرف بجناحيه، الجبال إن لم تلتق فالبشر يتلاقون، الأرض مهما اتسعت لا بد للقدر من أن يلغي المسافات كلها ويحدث اللقاء، تهبط المعجزات من السماء كهطول المطر لتستقي النفوس وتزهو، ليس لكل بداية نهاية، فبعض النهايات بداية.

تجهز صالة الأفراح وتزين بكل أنواع الزهور، المدعوون يجلسون على طاولات مستديرة تغطيها أقمشة بيضاء تتدلى للأسفل بتموج جميل، الموسيقى تملأ المكان وهمسات بين الحضور بانتظار العروسين، تتغير الموسيقى معلنةً عن قدومهم، يقف الجميع وأعينهم نحو مدخل الصالة، يتعالى التصفيق والوجوه كلها ضاحكة، يتقدم وليد وأسامة وكلّ بجواره عروسه، ترتديان فساتين بيضاء بأكمام طويلة وعلى رأسهن حجاب أبيض يعلوه الإكليل، الخجل يعلو وجنتيهن ملونًا إياها بلون الورد، ياسمينتين تتهادين بخطواتهن كأمرتين على بساط أحمر ينتهي بمنصة يعلوها قوس من زهور بيضاء، تتدلى بتلات منها إلى الأسفل، وعلى المنصة أربع كراسي مزينة مصنوعة من قماش وثير، على جوارها يجلس والديهما أم جهاد وزوجها اللذان يبكيان من الفرح، الكون لا يتسع لأم جهاد من الفرح بعد لقاء ابنتيهما، وفرحها بهما بعدما ظنت بأن الموت اختطف جميع أبنائها، صلواتها ودعواتها في جوف الليل لم تذهب سدىً، صبرها على مصابها كوفئت به



بأفضل مما ظنت، تقبل ابنتيها وتجلسهما على الإسكي كما يقال لها في بلاد الشام، يزهو العريسان سعادة بقاء عروسيهما بعد أن فرقهم القدر، وهما هم الآن يحققون أحلامهما التي استحالت كوابيساً مدة من الزمن.

في ذاك اليوم غادر أسامة المشفى على فوره لأجل لقاء مريم، بعد أن سمع صوتها وكأنه معجزة، بكّت مريم على الجانب الآخر حال سماعها صوت أسامة، الصوت الذي طالما كان مواسياً لها، ملاذها ونجاتها، وجدت نفسها التي ضاعت في سراديب الظلام، ساعات مرت كشهور وكان أسامة أمامها، ضمته طويلاً بصمت ودموع، مسح دموعها بيديه، كادت أن تحكي له ما مضى، فأغلق فمها بقبلة طويلة.

لا بد للذاكرة السوداء أن تركز في رف بعيد، الذاكرة التي عادت إلى نور حال رؤيتها وليد وغابت عن الوعي من الصدمة، استيقظت لترى وليد يجلس فوق رأسها ممسكاً يدها، نطقت اسمه بتلعثم فضمها بين يديه باكياً.

مذكراتها التي كانت بحوزتها قرأت منها ما كانت عليه بعد فقدانها للذاكرة، ولم يكن اسم جاد الذي كانت تهذي به في غيبوبتها قبل عامين، سوى الأحرف من اسم أخيها وبناءً عليه أطلقوا عليها اسم جوليا، الحادثة التي هزتها حينما شاهدت دمائه تسيل على الأرض، وملاحمه التي رسمتها في اللوحة، كانت تخرج من عقلها الباطن لتطبعها برديشتها على اللوحة.

مراسم الحفل تمضي والفرح يزهو مختلاً معلناً انتصاره على الحزن، حاملين بالاحتفال بالعودة إلى الوطن وإقامة الأفراح على أرض حمص الطاهرة.



- دعونا ننسى كل ما مضى.

صرح أسامة وهو يدعو مريم للرقص على أنغام موسيقية هادئة، يتبعه وليد ونور التي كانت تضحك كلما تذكرت جوليا التي كانت تعيش شخصيتها، تصارع فقدانها لذكرياتهما التي قرأتها في رواية عن مذكرات مريم، يجلس رامي وألبرت على إحدى الطاولات يصفقان، كان الأول قد تكفل بمراسم الحفل جميعها هدية لنور التي كانت جوليا العنيدة التي أحب.

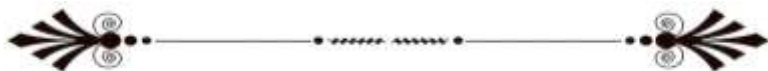
.....

مريم خلف طاولتها محنية على أوراقها تكتب:

سلبني الوطن سنوات من عمري، كما سلب أرواح الكثيرين، المجتمع بعقليته كبلي وجعلني أسيرة الخوف، الحرية التي خرجنا لأجلها والتغيير الذي طالبنا به، كان لابد له أن يبدأ من أنفسنا، المذنب عليه أن يحاسب، والمظلوم أن ينصف، على الأشياء أن توضع في أماكنها، لابد للحقائق أن تدوّن كي لا تضيع وننسى ما حدث يوماً، مهما طال ليل الظلم فلا بد للفجر أن ينبلع عن وجه الحقيقة، جمعينا كبيادق فوق رقعة شطرنج كبيرة، يضحون بنا الواحد تلو الآخر لأجل بقاء الملك، وإن خلت الرقعة من الجميع لا يتوانى عن حكمها وهي خاوية، لابد للأحجار أن تعلن ثورتها وتغير من قواعد اللعبة.

كش ملك..

رفعت الجلسة...

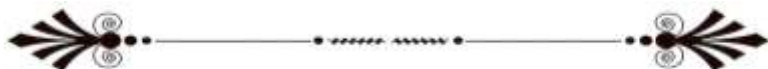


الشخصيات خيالية
ولكنها مقتبسة من أحداث حقيقية.



محتويات الرواية

4.....	الإهداء
5.....	تمهيد
6.....	المقدمة
8.....	الفصل الأول
68.....	الفصل الثاني
141.....	الفصل الثالث
165.....	الفصل الرابع
240.....	الفصل الخامس
260.....	الفصل السادس
300.....	الفصل السابع
329.....	الفصل الثامن
343.....	النهاية
345.....	يوم المعرض..
359.....	محتويات الرواية



رواية
رقعة الشطرنج
سهير المصطفى
الطبعة الأولى
1445 هـ - 2024 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر - بورسعيد



حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف،
ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي،
أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه،
أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت،
إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.